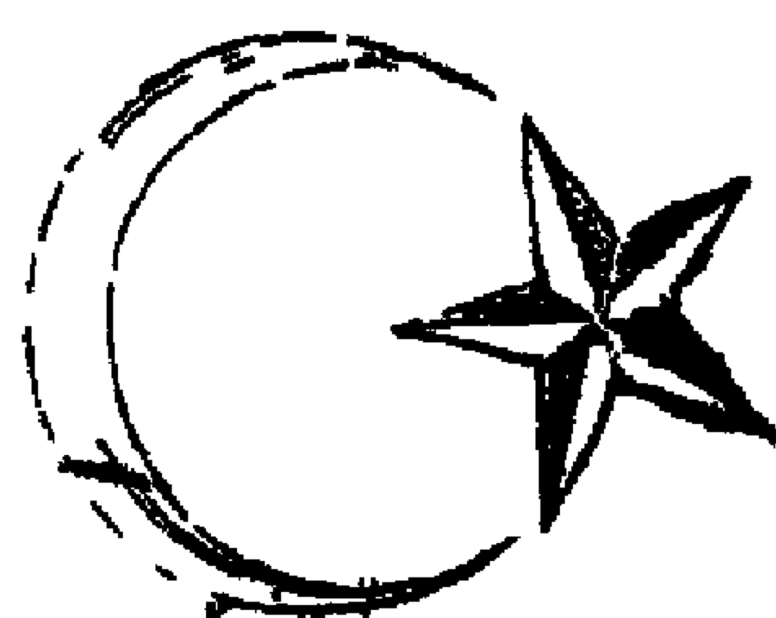


علم الدين

لحضرة العالم الفاضل صاحب السعادة

علي باشا مبارك

ناظر الاشغال العمومية المصرية سابقا



الجزء الثاني



طبع في مطبعة جريدة المحروسة بالاسكندرية

١٢٩٩

سنة

١٨٨



بسم الله الرحمن الرحيم

المسامرة السابعة والعشرون

التياترات

ثم قام برهان الدين وتوجه الى والده فوجده استيقظ من النوم فاخبره بما كان فقام وتوضأ وادى الفرض كعادته ثم توجه الى الانكليزي فحياه وبالسلامة هناه وقال له كان توجهي لجنابكم لادعوكم في هذه الليلة الى التفرج في التياترو

فقال الشيخ كان بودي ان ارافقك ولا افارقك ولكني ارى ان لا اخرج في هذه الليلة فاني اجد في جسمي بعض فتور

فقال الانكليزي لا باس عليك واظن ذلك من اثر مشقة السفر فاذا نمت الليلة واسترحت اصبحت ان شاء الله في عافية

ونشاط والان اذا لم تردان تكون معنا فارجوك ان تاذن لبرهان الدين ان يكون بصحبتي ليتفرج على التياتر وكيفيته

قال الشيخ ذلك اليك ولكن احب منك ان تصف لي بعض امر هذا التياتر

فقال الانكليزي التياتر عندنا عبارة عن محل تجتمع فيه جملة من الخلق مختلفة في الثروة والاقتدار لاجل التفرج على انواع مختلفة من العاب منتخبة من آثار بعض المشهورين من العلماء والشعراء والعقلاء والبلغاء فيتشكل بحسب الالعاب التي يراد اجراؤها فتارة تكون عبارة عن تصوير بعض وقائع حربية ومبارزات شخصية وفتن ملية وتارة تكون عبارة عن عوارض حدثت في بعض الجهات او لبعض الناس من الامراء والملوك وغيرهم كالعشق والفراق والفقر ونحو ذلك مما يحدثه الزمان في تقلباته وقد تكون هذه الالعاب مؤسسة على تمثيل بعض امور وردت في الكتب الدينية كوصف يوم القيامة وما يكون فيه من الاحوال ووصف الطوفان وما جرى فيه على الوجه المذكور في الكتب المقدسة وتارة تكون مختصة بالصفات النفسية والشهوات الذاتية كالكرم والبخل والحلم والعدوان والكبر وما اشبه ذلك وقد يتعاقب في بعضها جملة من انواع الالعاب كالجد والهزل والمفرح وغير المفرح وقد يكون مختصاً بنوع واحد ولكل علامة يعرف بها وفي بعض الالعاب لا يستعمل الاّ اللسان المتعارف

والالفاظ المعتادة وفي بعضها يستعمل النثر مع الشعرْ وفي البعض لا يستعمل الاّ الشعر وتارةً يكون القاء الكلام فيها على وجه التغني مع موافقة اصوات الآلات الموسيقية وتارة يكون على وجه القاء الخطبة او على هيئة المخاطبة والمحاورة واذا كان للعبة احوال جعلوا لها فصولاً بقدر الاحوال التي تعتريها وتراهم يصورون الملعب في كل حالة وواقعة بهيئة تناسبها وتليق بها على وجه المحاكاة لمحل وقوعها فان كانت الواقعة في ارض ذات انهار واشجار وبيوت وقناطر مثلاً صوروا المحل بهذه الهيئة بعينها وهكذا اذا كانت في صحراء بها جبال وصخور ووحوش وطيور او في بحر لهُ امواج كثيرة وسفن صغيرة وكبيرة او في وادٍ كثير المسالك وهلم جرًّا الى غير ذلك وفي كل نوع يظهر اللاعبون بالهيئة التي كان عليها الناس حين كانت الحادثة من ذكور واناث وصغار وكبار بملابسهم وهيئاتهم واحوالهم وكيفياتهم واشكالهم فان كانت الواقعة حربية مثلاً هيئوا احوال الحرب والضرب والقتال والنزال وصوروا الكر والفر والاقدام والاحجام والزحف والادبار والغلبة والفرار واشهروا السلاح وهزوا الرماح وصفوا الصفوف وضربوا بالسيوف ورموا بالمدافع والبنادق كامثال الصواعق ورفعوا البيارق والسناجق وعبروا الخنادق حتى يتخيل الحاضرون من حسن السبك ان ذلك حقيقة بلا شك اذ يرون الخيل وهيآتها والرجال وكيفياتها وينظرون فيرون سماء تارة

تظهر وتارةً تتغطى باذيال الدخان او ستور السحاب وتارة تظهر الكواكب بها للعيان وتارة تتوارى بالحجاب وينظرون الى ارض الملعب فيرونها في بعض المواضع غاصة بالشجر والغابات وغير ذلك من الهيئات والخلق في خلالها بين قتيل وجريح ومتماسك وطريح الى غيرذلك مما تقتضيه حال الوقائع وتستدعيه محاكاة صورة الواقع

فقال الشيخ الى اي وقت يمتد اللعب في التياتر . قال يمتد في العادة الى نصف الليل ومن العادة ان يكون اللعب على عدة فصول تفصل عن بعضها ببرهة خفيفة تتخلل بين كل فصلين منها لاجل استراحة اللاعبين وتجدد نشاط المتفرجين وعلامة ذلك الانفصـــال سقوط ستارة تحول بين اللاعبين والمتفرجين وهناك محلات للاستراحة وشرب القهوة والدخان وغيرما ذكر وفي اثناء ذلك يستعد اللاعبون للفصل اللاحق فان كان هناك لعبة جديدة هيئوها وهيئوا ادواتها واستعدوا واعدوا المحل لها وفي تلك المدة ايضًا يذهب كل من المتفرجين الى ما احب فمنهم من يذهب الى محل الشراب ومنهم من يقوم للمحادثة مع بعض الاحباب ومنهم من يخرج ثم يعود اذا كان معه ورقة البـاب وعلامة الاجتماع ضرب جرس يسمعه المتفرجون فيعوذون لمحلاتهم ويجتمعون فترفع الستارة فيرون المحل على الهيئة التي يراد تصويرها

وكان التياتر عند المتقدمين عبارة عن ارض متسعة يحيط بها درابزين وعمد وهي مسقوفة باقمشة للوقاية من العوارض الجوية وكان يسع نحو عشرين الف نفس يجلسون على درج يعلو بعضها بعضاً منفصلة عن بعضها لسهولة المارين من بينها وبها سلالم للصعود والهبوط وشكله عبارة عن جزئين جزء مستطيل يجلس عليه ارباب الموسيقى وجزوء مستدير وهو المختص باللعب وكان يشتمل على بعض محلات لتغيير اللاعبين ملابسهم وتحضير ما يلزم للعب

وفي هذه الاعصار المتاخرة زاد الاعتناء بمحلات التياتر ودخل فيها كثير من التحسين والزخرفة والتزيين حتى صارت معدودة من العمارات الشهيرة في الرونق والزينة والزخرفة واللطافة والظرافة داخلاً وخارجاً ولذلك عدة مبان شهيرة صرف على بنائها وزخرفتها اموال كثيرة فمنها ما صرف في انشائه قريب من مائتي الف كيس كالأوبره بباريس ومنها ما صرف عليه اقل من ذلك وكانت عادة اللعب عند المتقدمين مدة النهار فقط وقد غيرت تلك العادة الان وجعلت في الليل وهو اوفق لانه وقت التفرغ من الاشغال العمومية والاسباب المعاشية فيحب الانسان أن يتروح بالتلذذات الدنيوية والملاهي ليستريح من الآلام التي اعترته نهاراً من الاشغال الضرورية ولم يكن اوفق لذلك من الليل ولم يشتهر امر التياتر ببلادنا الا من ابتداء القرن السادس

عشر من الميلاد وبسبب ما وجد فيه من اللذة للامراء وعموم الناس مالت اليه الملل الاوروبية كل الميل واحدثوا فيه انواعاً مختلفة حتى تقدم تقدماً عظيماً وصار من ضمن اسباب الرزق لكثير من العلماء والشعراء والمشتغلين بتركيب الحكايات والنوادر والامثال ومن مواضع التربية العمومية وتهذيب الاخلاق والطباع وعلى حسب درجة التياتر وعظمه يزداد عدد الموظفين به فيكونون قريباً من مائتين وخمسين نفساً من النساء والرجال وذلك كما في الاوبره واقل من ذلك في غيره واذا توقفت ادارة المشهور منها على المساعدة ساعدت الحكومة اربابه على حسب ما يلزم من الهيئة والابهة باموال عظيمة ربما تبلغ نحو الالف كيس سنوياً فترتب على ادارته والاعتناء به اشتغال افكارهم حتى كاد ما اخترع والف في هذا المعنى من الكتب والحكايات يزيد على ما هو مكتوب في باقي العلوم والفنون وكما يوجد من التياتر عدد كثير في المدن الكبيرة كذلك يوجد في المدن الصغيرة وفي قرى الارياف خصوصاً البلاد المعتاد بها نصب اسواق او ما يوجب اجتماع الكثير من الناس كالاعياد والموالد وقد تكون في القرى داخل خيم او في محلات مستورة بالاخشاب ولا يمنع احد من دخول التياترات فيدخل الغني والفقير والعظيم والحقير وانما يدفع كل انسان مبلغاً مقدراً على حسب الدرجة التي يرغب فيها فان رغب في الدور الاول دفع اكثر من الثاني او في الثاني اكثر من الثالث او في

الحجرات المخصوصة دفع اكثر ممن على الدكات وتتفاوت الاجرة على حسب تفاوت الدرجات من نصف فرنك الى عشرين فرنكًا

فقال الشيخ لولا ما ذكرت من كمال انتظام التياتر وحسن احواله وانه من مواضع التربية العمومية وتهذيب الاخلاق لخطر في البال ان ما يحصل به من التقليد والتمثيل والالعاب المتنوعة من قبيل ما يكون في بلادنا من العاب الطائفة المعروفة باولاد رابيه وما يكون فيه من الاغاني والالحان ايضًا من قبيل ما يكون عندنا من غناء المغنين والمغنيات فاما اولاد رابيه فانهم يدخلون في تقليد بعض احوال حاضرة او امور ماضية ياخذون في تمثيلها وتصويرها وابرازها في معرض المحسوس المشاهد سواء كانت امورًا اختراعية وهمية لا مستند لها سوى المخيلة ام كانت امورًا حقيقية حصلت في الواقع ونفس الامر وقد يكون لهذه التقليدات في بعض الاحيان نفع في الجملة بان يدخل فيها تقبيح واقعة سيئة حصلت في الزمن الحاضر او الغابر من بعض الناس فيبرزونها في معرض التشنيع والتفظيع مفرغة في قوالب الهزل والسخرية فيضحك منها من يراها وقد يراها من كانت حصلت منه او من هو على حال مثلها فيستنكف ان يعرف بتلك الحالة المنكرة التي صارت مثلاً واضحوكة لاعالي الناس واسافلهم وتكره نفسه بالضرورة ان يكون معروض تقليد هولاء القوم وموضوع اضاحيكهم فيكف عن تلك الحالة القبيحة ويرجع عن معاودتها وياخذ نفسه بالاقلاع

عنها فهذه غاية ما يلتمس لهم من المزية والفائدة الاّ انه قليل نادر كالمعدوم وغالب احوالهم على ما سمعته عنهم ورايته في بعض الاحيان منهم مبني على الفحش والسخف والعيب مما تأباه النفوس وتمجه الطباع من الافعال الفظيعة والاقوال الشنيعة التي ينفر منها كل من له جانب من العقل والدين ومسكة من الحياء والحشمة وقد يطلع على هذه الاقوال والافعال بعض الاغرار من الرجال والصبيان والاطفال والنساء فيؤثر ذلك في فساد اخلاقهم وتغير طباعهم بما يرونه ويسمعونه مما عساهم قد كانوا بمعزل عنه من فحش القول وشنيع الفعل وقد قال الله سبحانه وتعالى (لا يحب الله الجهر بالسوء من القول) فلو خلا اللعب عن هذه القبائح لكان مما لا ضير فيه اما على تلك الصورة فهو مذموم منكر مضر ولهذا ترى اهل الورع والتقوى عندنا يتحامون مواضع هولاء الجماعة ويكرهون غشيانها وقد رايتهم انا عند بعض الجيران فنفر منهم طبعي ومجهم بصري وسمعي

واما الغناء عندنا سواء كان من الرجال او من النساء فلا يقصد به حكاية حال ماضية ولا حاضرة وانما هي في الغالب كلمات غرامية من الشعر او غيره من الفنون يرددها المغني ويترنم بها مع رعاية تحسين الصوت واجادة الاداء والاتيان بما يستعذب من الالحان علي قدر الامكان فيقصد فيها الى رخاوة الصوت ورخامته وجودة الاداء وحسن الانغام وقد يقطع النظر بالكلية

عن معاني الكلام حتى اننا نراهم يدخلون في الغناء بعض كلمات لا يعقل معناها المغني ولا السامع بل ربما كانت لا معنى لها في نفسها وترى المغني يعيد الكلمة الواحدة مثل يا ليل يا عين مرات كثيرة يكررها من تلقاء نفسه او باستعادة من السامع لا لاجل لفظها ولا لمعناها ولكن استجادة للحن واستحسانًا للنغمة ومما نتأسف عليه انا نرى فيما نقل الينا من اغاني القدماء في كتب الادب كلمات تحث على الكرم والفتوة والنخوة ولا نرى الاغاني عندنا في هذه الاعصار الاَّ مقصورة على العشق واللذة والشهوة فلا نرى لها اثرًا يحمد في التربية وتهذيب الاخلاق بل ربما كانت في بعض الاحوال مما يضر بذلك كما قلناه في لعب اولاد رابيه والذي اظنه بحسبما سمعته منك ان ما وصفته من التياتر ليس بهذه المثابة

فقال الانكليزي لا مناسبة بين الامرين فان الجماعة المعروفين عندكم باولاد رابيه انما هم اشخاص مجردون من حسن الخصال والعلم والكمال مجتمعون من طغام الخلق وعوام الناس لا يحسنون معقولاً ولا منقولاً بخلاف طائفة التياتر عندنا فاكثرهم ممن تعلم وتادب وتربى وتهذب وحصل على فنون كثيرة ومن آداب التياتر ان لا يقال في مجامعه الاَّ ما يؤْخذ من تآليفات متفق على موافقتها لتهذيب الاخلاق والطباع والعادات والتمييز بين الحسن منها والقبيح والفاسد والصحيح للمحافظة على ممدوحها والتباعد عن مذمومها وكل ذلك بالفاظ عذبة وعبارات رقيقة

مستحبة ولا يفعل ولا يقال ما يخل بالادب والكمال وان الجأت الضرورة في بعض العبارات الى وصف حادثة من الحوادث السرية تحايل المؤلف او اللاعب في القائها والتعبير عنها بكناية لطيفة لا يشعر بها الاَّ الحاذق المتيقظ العارف بما للحادثة من الاحوال

واما الاغاني عندنا فهي في الاغلب عبارة عن واقعة مخصوصة وحادثة معلومة يراد تذكارها ويستجاد تكرارها وقد يكون المراد بها تهيج سورة الحماس وتحزب الناس الى غير ذلك من الاحوال وقد تكون عبارة عن غراميات واغزال وربما لا يقصد من السماع في بعض الاحيان غير جودة الاداء وحسن الالقاء وموافقة قواعد الموسيقى وممازجة ما يكون موجودًا من آلات الطرب من غير نظر الى الالفاظ والمعاني فقد يكون الغناء بغير لغة السامع وهو يطرب منه لمكان الصنعة وحسن الالقاء كما يطرب من تغريد الطيور وآلات الطرب وعلى كل حال فالاغاني في التياتر انما تكون بحسبما تنتظم في سلكه من محاكاة واقعة او تصوير حادثة او غير ذلك وعلى الجملة فليس للتياتر عندنا من قبيل ما ذكرت من العاب اولاد رابية ونحوها بل هو كما ذكرناه عبارة عن امثال علمية على حسب الحوادث التاريخية والتقلبات الدهرية وهو بهذه الكيفية مما يساعد على تقدم الامة وتمدنها ويوسع دائرة فخرها وثروتها وفوائده كبيرة ومزاياه كثيرة منها اجتلاب الانس وتنشيط النفس

وترويح الخاطر بتسريح الناظر في المرائي المختلفة والمناظر الحسنة اللطيفة والاشكال المتنوعة والاوضاع المتغايرة فان الانسان يميل بطبعه الى المستغرب والمستحدث من الاشياء والمستطرف المستظرف منها ومعلوم ان الانسان اذا طال اشتغاله بالتفكر في الامور العقلية وانهماكه في الاعمال الشاقة البدنية فترت قوته وضعفت همته وكلت فكرته فيحتاج ان يتخلى عن ذلك في بعض اوقاته ريثما يستريح ويجم نشاطه وتتراجع اليه قوته فاذا طال في النهار كده وجده وجهده وانهماكه في الاعمال البدنية والاشغال الذهنية لم يأتِ عليه الليل الاّ وقد كلّ بدنه وملت نفسه وفتر ذهنه فاذا مضى الى التياتر واشتغل بصره وفكره بما يراه وما يسمعه به تحول ذهنه عما كان فيه واستراح مما يعانيه وتسلى بما يتقلب عليه من الاشكال المتنوعة والاوضاع المختلفة وطابت نفسه بما يراه من الصور الحسنة والمناظر الجميلة فاذا عاد في غده الى اعماله الذهنية والبدنية عاد بنشاط جديد ونفس مقبلة وهمة متوفرة

ثم هو في اثناء تسريح طرفه فيما يروقه من تلك المناظر ونفسه في مستلذاتها من تلك الهيئات والكيفيات يستفيد كثيرًا من الفوائد العلمية والاخلاق المرضية فيكون ما في التياتر من الاحوال لذة في الحال وثمرة في الاستقبال وهذا هو السر الذي حمل عقلاء الملوك والحكام ونبلائهم على اتخاذ التياتر فانهم رأوا ان النفوس بالطبع مائلة الى اللذات منجذبة لجانب الشهوات ورأوا ان صدها

عن ذلك بالكلية ومنعها بالمرة يتعسر او يتعذر فاختاروا ان يستحوذوا على تلك الشهوات والمستلذات و يتخذوها كآلات تستعمل فيما يراد من الامور النافعة المحمودة في الشرع والعقل ويفرغوها في قالب تصير به من اسباب الفوز والسعادة فلم يجدوا احسن من التياتر للوصول الى هذا المقصد فانه مع موافقته للاغراض واللذات والشهوات يهيء النفس للتحلي بحسن الشمائل وصفات الكمال والاستكثار منها والتمكن فيها والتباعد عن ذميم الاخلاق ورديء الطباع فهو بهذه الحالة كالخادم للشريعة التي تامر بالخير وتنهى عن الشر

ومن المعلوم ان اقوى شي تتمسك به الامة وتقوم عليه هو امر دينها اذ بدونه لا تنجح القوانين البشرية ولا تظهر اثارها ونتائجها فاذا كان التياتر خادمًا للشريعة كما ذكرناه مرغبًا فيما تدعو اليه وتامر به منفرًا عما تنهى عنه كان بذلك من اعظم الملاهي بل من اهم الامور واولاها بالاعتناء والرعاية

وانت تعلم ان كثيرًا من النـاس انما يمتثلون امر الشريعة ويتبعون احكامها خوفًا من الاخرة وما يكون فيها من الاهوال والامور المخيفة والسؤال والحساب والنار والعذاب فهذه الاهوال والمخاوف متصورة في اذهانهم منطبعة في مخيلاتهم وان لم يروها بالفعل ومن اعظم ما يقوي ذلك في اذهانهم ويمكن تاثيره من قلوبهم هذا التياتر لانه يصور جميع تلك الصور للعين ويجلوها

للعيان ويخرجها من قوة التخيل الى حيز المحسوس المشاهد فيمثل للرائي النار مثلاً في صورة هائلة وهيئة مزعجة ولهب ساطع مرتفع وشرر كبير منتشر الى غير ذلك من اهوالها وسلاسلها واغلالها وافاعيها وحشراتها وعظائم آفاتها وهو يراها ويرى المجرمين فيها تلفحهم نارها وتنهشم افاعيها ويقاسون انواع العذاب الاليم والعقاب الشديد مما ترق لرؤيته الاكباد القاسية وتضطرب لهول منظره القلوب الساكنة فما ظنك بمن قرأ اوصاف تلك الاهوال في كتب الديانة وتخيلها في ذهنه ثم رآها في التياترعلى تلك الحالة المنكرة والمنظر الفظيع وهو يعلم ان التي تكون في الاخرة اكبر واخطر وادهى وامر لما يعرفه من انه لا يمكن مضاهاة افعال الحق جل جلاله بافعال الخلق وتمثيلها للعين الاّ بوجه التقريب وعلى قدر الامكان فاذا انتقل ذهنه من تلك الصورة المشاهدة له الى تلك الهيئة المطبوعة في مخيلته وتصورها في نفسه بما لها من الهول العظيم والخطب الجسيم أفلا يرق قلبه ويقشعر جلده ويتمكن خوف العذاب منه بما يحمله على ان يتباعد عن موجباته واسبابه من الظلم والعدوان والفجور والشرور وكذلك اذا رأى تمثال الجنة بما يكون فيها من الانهار والاشجار والازهار والاثمار والقصور والديار وسائر المستلذات والمشتهيات افلا تتحرك رغبته وتميل نفسه اليها بما يحمله علي ما يقربه لهذا النعيم من فعل الخير وانواع البر

فهذا من جملة خدمة التياتر للديانة وتأييده لها واعانته على مقاصدها

فقال الشيخ من اين لهم صورة الجنة والنار والثواب والعقاب ولم يروا شيئاً من ذلك وكيف يصورون ما لم يروه وكيف يصدقهم الناس

قال الانكليزي انما يصورون ذلك على وجه التخيل والتفرس وعلى حسب ما ورد في الكتب المقدسة وسائر كتب الديانة من الاوصاف تقريباً للاذهان واخراجاً للشيء المعلوم من صورته الذهنية الى الصورة الوجودية

فقال الشيخ نحن لا حاجة لنا بهذه الصور فان ما عندنا من اليقين باحوال الاخرة يغنينا عن هذه الصور والتماثيل خصوصاً ونحن نعلم ان جهد الادمي ووسعه لا يمكن ان يصل الى محاكاة ما يكون في اليوم الاخر من الاحوال والاهوال بل لا يمكن ان يصل الى ما يصل اليه الوصف الوارد فيه فهل يبلغ التصوير والتمثيل مبلغ قوله تعالى في صفة النار انها ترمي بشرر كالقصر كانه جمالات صفر ويل يومئذٍ للمكذبين · فقال الانكليزي ليس كل الناس في ذلك سواء

وعلى الجملة والتفصيل فللتياتر في تأديب النفوس وتهذيب الاخلاق وتربية الامة مدخل عظيم

وانت تعلم ان سلطان الدرهم والدينار له قوة عظيمة عند

الناس وفعل في عقولهم يعارض بهِ قوة القوانين الموضوعة والاحكام المشروعة ولذلك ترى كثيرًا من اصحاب الثروة والمال من اهل البغي والزيغ يستميلون قلوب القضاة والحكام الى ما يخالف مقتضيات الشرع والقانون فيردعهم التياتر بروادعه ويقرعهم بقوارعه فانه يضع يده على المتمردين واهل الفسق والفجور من الخلق ويكبلهم في قيوده ويعرضهم على الاعين في ميدان حكمة الضنك ويفضحهم على رؤوس الاشهاد ويجعلهم عبرة للمعتبرين وتبصرة للمتبصرين ثم لا يقتصر حكمه على الوقت الحاضر بل يسري ايضًا الى الزمن الغابر فيجول في تواريخ الامم الماضية ويستخرج منهم من ذكروا بفعل قبيح او حسن فيستحوذ عليهم ويكلهم لرجل من رجاله يكسوهم ملابسهم ويبرزهم في صورهم ويهيئهم بهيئاتهم التي كانوا عليها واسمائهم التي كانوا يذكرون بها حتى كانهم نشروا من قبورهم قبل اوان نشورهم فيعرضهم كذلك على اعين الناس مع ما كانوا عليه في زمنهم من فعل خير ممدوح او عمل شر مذموم ومكرمة تبقى اثارها وافتخارها او معرة يخلد عارها وشنارها فيكون ذلك من اعظم البواعث على تربية النفس وتأديبها وحسن تهذيبها

لا سيما ان التياتر لا يقتصر على امر من الامور ونوع من الافعال وطائفة مخصوصة من الناس بل يستحوذ على جميع الامور وكل اجناس الناس فلا يخرج من قبضته الجبابرة المتمردون

الذين كانوا آفة ايامهم وداهية ازمانهم ببغيهم وعدوانهم وظلمهم وطغيانهم بل ينظمهم في سلكه ويجربهم في قبضة ملكه ويجرهم في ميدانه تحت نظر الناظرين من اهل العصر الحاضرين ليروا بابصارهم كيف تزول عظمة العظماء الطاغين وكيف يفعل الله جل جلاله بالجبابرة الباغين الذين ضلوا واضلوا غيرهم عن مسالك الرشد والهدى ووقعوا واوقعوا من تبعهم في مهالك الردى فياخذ من ذلك كل واحد من الحاضرين حظه من الموعظة والعبرة علي قدر استعداده وقابليته فتضعف وتسكن عند كثير من الناس شهوة الشر وتقوى وتتحرك رغبة الخير والبر

فمن ذا الذي لا يرجف قلبه وتضطرب مفاصله حين يرى فعل قاتل النفس عند القتل واي نفس لا تتأثر وقلب لا يتحرك وجلد لا يقشعر عند معاينته قاتل الولد والوالد للحصول على بعض الاغراض والمفاسد واي همة لا تتحرك عند روية فاضل كريم من الناس يفدي غيره بروحه وماله واي عقل لا يستفزه حب الفضل واهله وكل متمسك بحبله عند مشاهدة تجرد الافاضل من الرجال من حياتهم ومالهم وعيالهم لتخليص وطنهم واهله من سطوة الاعداء المفسدين وقهر الجبابرة المتمردين

كل هذه الاحوال لا يخفى تأثيرها في القلب وفعلها في النفس وليس لها غير التياتر ما يكشف حقيقتها ويعطيها قوتها فانه هو الذي يضعها موضعها وينزلها منزلها ويوفيها حقها ويكسوها ما

يليق بها من ثياب الحسن والكرامة والنعمة او القبح والمهانة والنقمة حتى يرى الرائي حالة العظماء المتكبرين والاشقياء المتجبرين والكبراء المشهورين كيف تقلبت بهم حادثات الليالي وتصرفت بهم صروف الايام وكيف طحنتهم رحى الدهر ودارت عليهم دوائر القهر وما الذي اورثتهم مساوي افعالهم ومفاسد احوالهم وكيف استنزلتهم عن درجتهم الشامخة وحطتهم عن رفعتهم الباذخة وجردتهم من قدرتهم القاهرة فاصبحوا بعد قوتهم مستضعفين وبعد قهرهم مقهورين ويرى اصحاب الهمم العالية والافكار الشريفه والافعال الحسنة والاحوال المستقيمة كيف توصلوا الى طرق المجد وارتقوا درج العز وركبوا صهوة الشرف وتسنموا ذروة الفخر

لاجرم ان كل ذلك يوسع دائرة العقل ويقوي ملكة الفهم ويوجه النفس الى طرق الخير ثم لا يخفى ان كثيرًا من امور الناس واحوالهم لا تدخل تحت حكم القوانين البشرية وبذلك يخلص من عقوبتها كثير من سيآت الناس ويخلو عن المكافأة كثير من حسناتهم ومن شأن التياترات يستحوذ على كل ذلك فيدخله في بابه وينظمه في سلك العابه ويكشف عن قبح الشر وشؤمه لتنكف عنه نفوس اربابه ويظهر فضل الخير وينوه به لتقوى فيه رغبة طلابه فهو بهذه الحالة اعظم باعث يبعث على الخير والصلاح والرشد والفلاح ويحث على التخلي من ذميم الافعال والتحلي بصفات الكمال

ثم لا شك في ان مصائب الامم ليست كلها حاصلة من المساوي والكبائر فقط بل كثير منها ينشأ عن خلل العقل ونقص الادراك وسوء التدبير وتعلق النفس بما لا ينفع او بما يضر ومن تأمل في حال كل امة وما حل بها من الحوادث سابقها ولاحقها ونظر في اسبابها وحقائقها علم ان معظم الاسباب التي اودت بها وادت الى خرابها سوء التدبير ومتابعة هوى النفس والغرور الحاصل عن الجهل

ولذلك قل ان نجد في كل عشر حوادث يضحك منها حادثة يهمنا اصلها او تهولنا صورتها ومن يقارن بين عدد اصحاب الكبائر والجرائم من امة من الامم وبين عدد من لحقهم الخرف او الذهول او الجنون منها كان كمن يقارن بين حبة رمل صغيرة وصخرة كبيرة ومن الغريب انك ترى الناس كلما زادوا في التقدم والفنون زاد فيهم عدد اهل الطيش والسفه والجنون فلا ينجع في مداواة دائهم واستئصال شافة اهوائهم وردعهم عن شرورهم وتجريدهم من ثياب غرورهم الا الباسهم ثياب الهزل وتأديبهم بسوط السخرية وعرضهم في معرض الاهانة ليفيقوا من غفلتهم وينتبهوا من رقدتهم ويتخلص الخلق من مضرتهم اذ لا عقوبة على الانسان اشد من عرضه في ميدان الهزل والسخرية وجعله للناس اضحوكة ومثلا وعبرة ولما كان حكم القوانين الدينية والدنيوية لا يدخل هذا المدخل كان التياترو بسبب تأديبه لهذا

الغرض معينًا لها على تكميل الجمعية البشرية بهذه الصورة ايضًا كما هو مساعد لها بغير ذلك•

وللتياتر غير ما ذكر مزية كبرى قد اختص بها دون غيره وهو انه مدرسة علمية لجميع الاحوال السرية ومصباح يستضاء بهِ في الاحوال الباطنة ومفتاح يفتح بهِ جميع الخفايا الكامنة حتى تظهر خطرات السرائر واوهام الظنون واحاديث النفوس فتبدو من خلال ستورها ويطلع الناس علي خفيها ومستورها مفرغة في قوالبها موضوعة في مواضعها منزلة منازلها

فان لم يحصل منه تهذيب جميع الحاضرين فلا اقل من كونه في كل مرة يؤثر في بعض افراد منهم فمع التدريج والاستمرار في الازمان المتوالية تتهذب اخلاق الجميع او الاغلب وتحسن احوالهم فان قيل انا نرى كثيرًا ممن يحضر التياتر لا تتجه افكارهم الى تحسين امورهم وتهذيب نفوسهم بل تشتغل حواسهم بما يرونه من المناظر الظاهرة من غير ان تتأثر نفوسهم باثر يوجب لهم ان يرجعوا عن فساد نياتهم ومساوي افعالهم بل ربما كان ذلك موجبًا لازديادهم في الشر واقتباسهم بعض وسائط للتمكن من الفساد واضرار العباد

قلنا ان كان ذلك فانما يكون للبعض لا للكل ومن لم يتأثر من صورة فلا بد ان يتأثر من غيرها ومن لم يرجع من مرة فربما يرجع من مرتين ومن لم يهتدِ في الحال لا بد ان يهتدي في

الاستقبال

وعلى كل حال فلهُ تأثير عظيم في عقول الشبان من الرجال والنساء فيكشف لهم عن حقائق الامور فيتحرزون من الوقوع في شباك الغي ومهاوي الغرور واقل فضائله الكشف عن العيوب والمساوي وتمييزها من الفضائل والمحاسن وهو بتحقيره للاولى وتزييفها وتعظيمه للثانية وتشريفها يحملنا لا محالة على توجيه انظارنا وازدياد ميلنا للحسن الممدوح واعراضنا وازدياد نفرتنا عن السيء المذموم فتتسع دائرة معلوماتنا وتستقيم طرق فهمنا وترتسم الامور في نفوسنا بصورها الحقيقية وهيئاتها الصحيحة فتتميز عن اضدادها ولا تلتبس بغيرها فمتى وقعت تحت حواسنا عرفناها وعرفنا اصحابها فناخذ ما يوافق لحالنا بالنظر لتحصيل المنافع ودفع المضار ونتباعد عن الاشقياء والمفسدين او نداريهم باللسان على قدر الامكان ونتقرب من الافاضل والصالحين بحسن المعاملة والود والمجاملة ونعرف ايضًا المنافقين والكذابين والنمامين والخائنين والمخادعين وطرق حيلهم وكيفيات خداعهم ومكرهم ومداهنتهم فلا يغرنا حالهم وفعلهم ولا يروج علينا غشهم وحيلهم بل نضحك من افعالهم ولا نقع في شرك احتيالهم فان التياتر يرسم لنا في وجوههم وعلى سيماهم صورة ضمائرهم وهيئة سرائرهم فنضحك من خداعهم ونهزأ بمكرهم ونبطل بقوة خيال سحرهم ونسلط عليهم وعلى شياطينهم نور العلم والمعرفة ونار الانتقاد فتسودّ وجوههم

وتحرق حتى يصبحوا بسوء فعلهم بين الناس اضحوكة ومهزاة وسخرية وربما انتهى بهم ما يلقونه من الخزي والفضيحة والذل والمهانة الى ان يرتدعوا ويتوبوا لله ويرجعوا فتخلص الامة من شرهم وسوء كيدهم ومكرهم

وكما ان التياتر يشتغل باحوال الخلق وصفاتهم وسرائرهم ونياتهم يشتغل ايضًا بتمثيل سعد الطالع ونحسه وحسن البخت وسوءه ونعيم العيش وبؤسه فيرشدنا للصبر والتجلد على ما يكون من سوء البخت وقلة الحظ وللشكر على مقابله من حسن البخت وسعادة الطالع وانت تعلم ان كل ما يقع فيه الانسان اما ان يكون مسببًا عن تدبيرلهُ وعمل عمله او لا يكون مسببًا عن شيء من ذلك . فالاول ينسب اليه ويذم او يحمد عليه والثاني هو الذي ينسب في متعارف العامة للبخت والطالع والدهر وهذا ليس لهُ فيه شيء فلا يتجه عليه فيه ذم ولا مدح ولا شكر ولا لوم فيلزمنا الاستعداد لتلقي ضربات البخت ونكبات الدهر لنجد في انفسنا ما يساعدنا على التجلد لها والصبر عليها من دون ضجر ولا جزع والتياتر يصور لنا انواع الاهوال الدهرية والاخطار الملازمة للجمعية البشرية فنعتاد عليها ونستعد لهجومها وتتدرع لها بدروع التجلد حتى نكون في حصن من الصبر والثبات يقينا من سطواتها ولا نكون عرضة للفزع والروع والجزع بل تقوينا التجربة والدربة وتحملنا علي ان لا نكل ولا نمل ولا نضجر بل

نصبر حتى يخلصنا الله منها ويعوضنا الخير والراحة عنها ومتى نظرنا الى الفقراء والمساكين وتقلبهم في الفقر والقلة والجوع والذلة تنجذب قلوبنا اليهم وتمتلئ بالرأفة والشفقة عليهم وتاخذنا الرحمة والرقة لاقل مشقة وشدة تحصل لواحد من خلق الله تعالى فيمكن من طباعنا الرفق بالناس ومواساة الفقراء ومساعدة الضعفاء واعانة المضطر واغاثة الملهوف وبذل البر والمعروف والرغبة في العدل والانصاف وليس باقل مما ذكرناه تأثير التياترفي توسيع دائرة المعلومات البشرية والاعمال الفكرية فان اصحاب العقول الفائقة والاذهان الرائقة يتسابقون في مضماره ويتبارزون في ميدانه يتفاخرون بنتائج افكارهم ويتظاهرون بمحاسن اثارهم من محاسن النثر ولطائف الشعر فتدب فيهم نار الغيرة والحمية فتذكو القرائح وتتوقد الاذهان وتسيل الخواطر وتتسع دائرة الاطلاع غاية الاتساع فتحيط بجميع الاعمال البشرية والاحوال السرية والجهرية فلا تذر عظيمة ولا حقيرة ولا تغادر صغيرة ولا كبيرة حتى تنزلها منزلها وتحلها محلها وتفرغها في قالبها وتكسوها من الثياب ما لاق بها وكل ذلك من بواعث الاجتهاد في طلب العلم وكشف الحقائق واظهار الخفايا وازالة اللبس وابراز الشيء من عالم الخيال الى عالم الحس حتى يدركه قليل الادراك وكثيره وناقص التأمل وكامله فتنفتح اذهان الناس وتنفسح بصائرهم وتستنير ضمائرهم ويرون في حيز العيان والمشاهدة اموراً كانت في عالم الوهم والخيال

او كانت منكرة او مجهولة بالكلية وبعد ان كان سلطان الوهم متحكمًا عليهم تتخلص من ربقته رقابهم وينكشف ستر الجهل عن بصائرهم فيرتفع حجاب الغفلة عن ابصارهم فينظرون في حوادث الايام الخالية والامم الماضية فتبدو لهم اسباب السعادة والشقاوة والتقدم والتأخر والعز والذل والخراب والعمارة ويقفون على اصل ذلك وكيفيته وحقيقته فيأخذون ما ينفع ويتركون ما يضر ويسعون سعي من فازوا في ايامهم بالخير والسعادة ويقتفون اثرهم فيحظون بالخيرات والمبرات ويفوزون بالنعم والمسرات

فكأن التياتر قناة ممتدة بين افراد الامة يسيل بها ماء العلم والمعرفة من الاعلى الى الادنى ومن العلماء والخواص الى الجهال والعوام فتزداد العلائق التآنسيــة وتقوى الروابط الودادية وتعم المنفعة وتتم الفائدة فاذا كان التياتر بهذه المثابة فهو احسن المبتدعات البشرية واجلها واعظمها فائدة واكملها

وقد اطلنا الكلام في هذا المعرض حتى كدنا نخرج فيه عن الغرض وفي المثل الحديث شجون والكلام يجر بعضه بعضًا وكنت ظننت اننا نتوجه جميعًا الى التياتر فاستحضرت لكما هديتين ينتفع بهما فيه احداهما لسيدنا الاستاذ والثانية لبرهان الدين ثم انه اخرج من صندوقه علبتين اعطى احداهما للشيخ علم الدين والثانية لبرهان الدين وقال انه يحتاج الى مساعدة النظر في تحقيق الاشياء البعيدة خصوصًا في التياترات لانها تكون غير تامة الانكشاف

ازداد بعدها عن حد النظر فعند ذلك تستعمل هذه الآلات المعروفة بالنظّارات تقرب البعيد وتساعد النظر وقد اتيت لكما بهاتين النظّارتين على حسب قوة بصر كل انسان فشكراه على ذلك وفرح برهان الدين بالنظّارة فرحًا شديدًا وصار ينظر بهـا من شبابيك المحل تارةً الى المدينة فيرى البيوت والحارات والمارين في الطرقات كانهم تحت قدميه وتارةً الى المينا والمراكب فيرى الملاحين والوان ملابسهم وما ينقلونه من البضاعة كانهم بين يديه فيتعجب ويستغرب لانه كان لا يرى ذلك بغير تلك الآلة ولو امعن النظر وكان اذا نظر بها الى البحر يلوح لهُ فيه صنادل وزوارق للصيادين يرى فيها ما اصطادوه من السمك فاذا نظر بدونها لا يرى من ذلك شيئًا فكانت عنده اجل شيء اهدي له واحب شي اليه وصار يقلبها ويتامل في تركيبها ويحاول الوقوف على كيفيتها فعلم الانكليزي منه ذلك فقال اراك متحيرًا في شانها قال نعم اريد ان اعلم حقيقتها فقال يكتفى في هذه الليلة بمعرفة فائدة استعمالها في التياتر فتنظر بها الي صورة الالعاب فتحققهـا وتنظر الى ملابس اللاعبين وان شئت نظرت بها الى المتفرجين وفي غد ان شاء الله اصف لك كيفيتهـا وباقي فوائدها فقال برهان الدين ومتى يكون الذهاب قال بعد ساعتين من غروب الشمس حيث تكون الساعة ثمانية بالاعتبار الافرنكي . فقال برهان الدين ان لكل قوم عادة في مجالسهم ورسمًا في ملابسهم

فلا تؤاخذني ان سألتك عما يلزم لذلك وما يقتضيه الحال والمحل فقال
لا يخفى عليك ان التياتر محل جامع فيطلب فيه النظافة والتجمل
كما في سائر المجامع وعادة رجال الافرنج في الملبس الاتفاق على
هيئة واحدة واما نساؤهم فملابسهن قد تختلف في اللون وان
كانت في الكيفية متحدة وسترى ذلك ثم انفصلا وصار برهان
الدين يتردد فيما يلبس ولحظ والده منه ذلك فقال لهُ فيما تفكر
قال قد ذكر الانكليزي ان من عادة الافرنك التجمل في الملابس
فانا افتكر فيما البسه فقال لهُ اختر ما في صندوقك احسن ملبس
لتظهر في هيئتك بزي اهل بلدك وملتك . فذلك بك اليق
وفيه لك زيادة رونق وهو يميزك من بينهم ويدل عليك ويجذب
اعينهم وقلوبهم اليك وانما يلزمك ان تجعل الادب لحلتك طرزا
والوقار لهيئتك حصناً وحرزاً فتكسى حلة فوق حلة وتحترمك
الاصاغر والاجلة واحذر من الاعجاب بنفسك والتغالي في لبسك
فاحسن الملابس واعظمها النظيف الطاهر الزكي الرائحة
وعندك اربع بدل جديدة كلها لائقة فاختر منها ما تحب فقام
ودخل حجرته واخرج صرة فتحها فاذا فيها جبة نيته وقفطان
شاهي مقلم وزبون ابيض وقميص ولباس وعمامة بيضاء معلمة
بطراز اصفر وطربوش مغربي وحزام حرير طرابلس محبوك فلبسها
واصلح عمامته وارخى لها عذبة حجازية ونظر في المرآة ثم توجه الى
والده فلما نظره في هذه الهيئة الحسنة سر بهِ وشكر الله سبحانه وقال

لهُ يا بني قد حسنت هيئتك وثيابك فحسن ايضاً شمائلك وآدابك واذا سرت مع صاحبنا هذا فمازجه وسايره واستجلب حبه واجتذب قلبه فانّا في دار غربة ليس لنا من اهلها غيره فضلاً عن كونه قد ابدى لنا من المجاملة وحسن المعاملة ما يستوجب ان نجاريه فيه وانت تعلم انك تمضي معه الى محل لم يسبق لك بمثله عادة ولا باحواله معرفة فانظر لما يعمل وافعل كما يفعل تسلم من الوقوع فيما يوجب الانتقاد عليك وتوجه اللوم اليك واستعمل الوقار والسكينة واذا نظرت الى شيء فانظر اليه بتوءدة وكمال واذا سألت عن امر شيء فاسأل عنه بلطف وادب وخالق الناس بخلق حسن وابذل وسعك في ارضاء من صحبك لكن بما لا يسخط ربك وتجاوز عن الهفوة واقل العثرة واقبل المعذرة يحبك اصحابك ويكثر احبابك

فقد سئل بعضهم اي اخوانك احب اليك قال الذي يسد خلتي ويغفر زلتي ويقيل عثرتي واعلم ان من لا يواخي الا من لا عيب فيه قل صديقه ومنْ لم يرض من صديقه الاَّ بائثاره على نفسه دام سخطه ومن عاتب على كل ذنب ضاع عتبه وكثر تعبه

اذا كنت في كل الامور معاتبًا
صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه
وان انت لم تشرب مرارًا على الاذى
ظمئت واي الناس تصفو مشاربه

وإذا رأيت من صاحبك امرًا تكرهه او خلة لا تحبها فلا تقطع حبله ولا تصرم وده ولكن داوِ كلمته واستر عورته وأبقه وابرأ من عمله قال تعالى (فان عصوك فقل اني بريء مما تعملون) فلم يؤمر بقطعهم وانما امر بالبرآءة من عملهم وهكذا صار يعظه بامثال هذه الكلم النافعة وينشر عليه لألي الحكم حتى حضر الخادم يدعوهما الى الطعام فاعتذر الشيخ بانحراف المزاج وطلب لنفسه بعض المرق والزيتون والمربات وامر برهان الدين ان يذهب الى الانكليزي ليتوجه معه الى السفرة ثم الى التياتر ففعل فلما رآه الانكليزي اعجبه شكله وهيئته ورآه قد ازداد لطفًا وظرفًا وبهجةً وحسنًا وكان برهان الدين جميل الصورة حسن المنظر متناسب الاعضاء حلو الشمائل معتدل القد اسيل الخد ادعج العين قمحيّ اللون مقرون الحاجبين قد اظهر تورد خديه بياض العمامة وابرز حسن شمائله اعتدال القامة ففرح بهِ الانكليزي وقال هلمَّ بنا يا بني وأحلني اليوم محل والدك وسلني عن كل ما كنت تسأله عنه ولا تكتم عني امرًا تريده وكن معي كما تكون معه فان لم تفعل كان نقصًا في حبك وخللاً في ادبك فقال سمعًا وطاعة وشكرًا لله فقد اوليتنا مننًا لا نحصيها فشكرنا لك غير منقطع وحبنا لك في قلوبنا منطبع كيف لا وقد اصبحتم في وجه الزمان خدًا وامسيتم في خده وردًا فكنتم حسنة من حسنات دهرنا لا نمحي بمرور الايام من صدرنا وقد طلعت لنا بكم طوالع السرور وكانت

آفلة واهتزت غصون الفرح وكانت ذابلة لا سيما بودكم الصافي الابريز وجوهر لفظكم النفيس العزيز فلا نقترح على الدهر غير صحبتكم وقطع حاضر الوقت في صحبتكم ولا نعد ايامنا معكم الا مفتاح السرور ومطالع السعود والحبور . فشكره الانكليزي على ثنائه واثنى على حسن وفائه ثم قام واخرج علبة لطيفة وقال له اني قد اعددت لك هذه الهدية من وقت خروجنا من القاهرة فتقبلها مني تزدني سروراً فقبلها منه برهان الدين شاكراً مسروراً وفتح العلبة فاذا فيها ساعة ظريفة لها ظروف وعلاقة من الذهب فوضع برهان الدين الساعة في جيبه واظهر علاقتها الذهبية على العادة فكملت خيلته وتمت زينته ثم اخذه الانكليزي من يده ودخل بهِ محل الطعام واجلسه بازائه وقد سبق لبرهان الدين تناول الطعام على السفرة العامة مراراً فكان عارفاً بجميع الرسوم المعتادة فاكل بالشوكة والسكينة مع غاية اللطافة والكمال بسهولة وكان الى جانبه فتاة افرنكية بارعة الجمال قد كساها الحسن والدلال ما تفتتن بهِ الرجال تشفي السقيم بكلامها الرخيم فاترة الطرف لينة العطف كحيلة العين حمراء الوجنتين

بيضاء فيها اذا استقبلتها دَعَجٌ * كأنها فضةٌ قد شابها ذهبُ

فمال اليها برهان الدين واخذت بلبه واستولت على مجامع قلبه فكان نظره اليها يتردد ولون خديها من الحياء يكاد يتوقد وكذلك هي كانت تسارق برهان الدين النظر فهما وان لم يتكلما

لكن في الاشارة ما يغني عن الكلم فكان بين قلبيهما مسامرات خفية نمت بها بين الحاضرين وجنات الخدود ونطقت بها من قرائن الحال الشهود وكان برهان الدين قد بلغ حد التكلم بالانكليزي في الجملة فكان يتكلم مع الخواجا تارة بالعربية وتارة باللسان الانكليزي ولما لم تعلم الفتاة هاتين اللغتين كانت تتكلم مع الخواجا باللغة الفرنساوية فكان غالب كلامها السوال عن برهان الدين وبلده واهله وعمره وما اشبه ذلك وكان برهان الدين يرى ذلك ويلحظه ويتمنى معرفة لغتها ليتكلم معها لانها ملأت فواده وملكت قياده وفهم الانكليزي ذلك لكنه اخفاه لئلا يخجلها وانما كان تارة يترجم له ما تقول وتارة يترجم لها ما يقول وكان برهان الدين متوجهًا بكليته لحسن صفاتها وشمائلها ويتمنى ان لا يفارقها لكن انقضى وقت الطعام فقامت وقام فكانت عند نهوضها تعتدل وتميل كانها المعنية بما قيل

وتميس بين مزعفر ومعصفر * ومعنبر وممسك ومصندلِ
هيفاء ان قال الشباب لها انهضي * قالت روادفها اقعدي وتمهلي

فما زال يتبعها بصره حتى غابت عن عينه وفي قلبه من فراقها حسرة لكنه تحايل على اخفاء هذا الامر واقتدى بقول من وجد سبيلا الى الصبر

ولقد قنعت من اللقاء بساعة
اذ لم يكن لي للدوام تطرقُ

قد ينعش العطشان بلة ريقه

ويغص بالماء الكثير ويشرق

ثم انه بعد تناول القهوة قام وركب مع الانكليزي في العربة وتوجها الى التياتر فوجدا على التذاكر ازدحامًا كبيرًا وخلقًا كثيرًا من نساء ورجال فقال له الانكليزي لو كنت اعلم حصول هذا الازدحام لارسلت من ياخذ لنا التذاكر من قبل فالاوفق لنا الان ان نقف خلف الناس في اخر الصف فوقفا وصارا يتقدمان شيئًا فشيئًا خلف السابقين الى ان وصلا الى الطاقة التي تفرق منها التذاكر فاخذا تذكرتين من بعد دفع ثمنهما ثم سارا الى باب التياتر فاظهراها للحاجب ودخلا فوصلا الى فسحة مزينة في جميع جهاتها وبها جماعة يودع الناس عندهم ما يستغنون عنه داخل المحل من عصي وملابس زائدة كالتي تعرف بالساكو وكذلك فعل الانكليزي وبرهان الدين واخذا ورقة عليها علامة سندًا على ما سلماهم اياه كما هي العادة ثم صعدا من سلم الى اول دور فوجدا هناك نساء تدل على المحال بحسب الدرجات فاجلستهما احداهن في بعض مدرجات الدرجة الاولى وقد شغل برهان الدين منظر المحل لبهجته ورونقه وحسن زخرفته فصار يسرح نظره الى جميع جهاته ويتامل شكله وزينته فوجده في غاية من الظرافة والاتقان ووجد في سطح قبته صورًا مختلفة ورسومًا متنوعة وقد علق في وسط القبة نجفة (ثريا) عظيمة ملأت المحل انوارًا وصيرت ليله نهارًا وانضم

لنورها كثير من الاضواء موزعة في دوائر المحل وظرقه وسائر
مرافقه ووجد المحل المخصص لجلوس المتفرجين منقسمًا الى عدة
ادوار يعلو بعضها بعضًا وبكل دور سلم يتوصل به الى ما هو اعلى
منه وبين كل دور والذي فوقه دائرة وباب الى الدرجة الاخرى
وفي الارض دكك منفصلة عن بعضها لسهولة المرور بينها وخلف
الدكك محال صغيرة مفتوحة بقدر عرضها والدور الاول عبارة
عن مدرج بثلاث درج يفصل كل واحد منها طرقة صغيرة
عرضها ثلثا ذراع للمرور يعلوه حاجز يشبه الدرابزين وفي هذا
الدور محال صغيرة كما في الدور الارضي المتقدم وجميع سطح
الدور الارضي مكسو من الداخل وبه كراسٍ للجلوس ورأى امام
الدكك الموجودة بالارض كراسي مرتفعة لجلوس رجال الموسيقى
وامامهم شموعًا مصفوفة على خط مستقيم وراى بعد هذه الدكك
محلًا مستديرًا وهو محل اللعب وفي كل من طرفيه محال صغيرة
بعضها فوق بعض ورأى اشجارًا بكثرة يرى من خلالها ما يشبه
الجبال والوهاد وفوق الجميع السماء والسحابُ وكأن المطر يمطر
ورأى في زاوية من هذا المحل مكانًا شبيهًا ببيت صغير وفيه امرأة
وبنتان فسمعهن يتكلمن مع بعضهن فظن ان المحل متصل بالفضاء
فتعجب من ذلك فقال له الانكليزي لا تظن ان هذا الذي تراه
فضاء وان هذا الذي يعلوه سماء ولا ان هذه الاشجار حقيقية وانما
كل ذلك رسم وتصوير اعطي حقه من الاتقان والاجادة حتى

صار يخال انه حقيقي كما تراه والذي يراد تمثيله الليلة في الملعب هو واقعة تعشق شاب من ذوي البيوتات الشهيرة لبنت فقيرة ليس لها حسب ولا نسب وقد اخذ جمالها بلبه فتعلق بها وتعلقت به وقد اراد ذلك الشاب التوجه للحرب فاتى اليها ليودعها وتحالفا على ان يبقى معها على الحب وتبقى هي معه عليه الى ان يعود فيتزوج بها واخذا بذلك على بعضهما العهود والمواثيق ثم افترقا ولما انقضى زمن الحرب وعاد الشاب سالمًا طلب اهله ان يزوجوه فابى فاغلظ عليه والده وساله عن اسباب تمنعه والح عليه فاخبره بجلي امره وما وقع بينه وبين معشوقته من الايمان والمواثيق فغضب عليه ابوه لخروجه عن طاعته وميله لواحدة من رعاع الخلق غير مستقيمة الاحوال ونصحه فلم يقبل فبلغ امه عدم امتثاله ثم توعداه على حرمانه من ميراثهما ان لم يمتثل فلم يرتدع فعملا عليه حيلة وهي ان يتهما البنت بعشقها لغيره فلم يصدق ذلك واراد ان يعلم ذلك بنفسه فاحضر اهله البنت خفية وخوفوها بالتعذيب وهددوها واعلموها مقصدهم فصارت تضطرب وتبكي وتنتحب واخبرتهم انها اتت منه بمولود فكيف تكون لها المعيشة بين اقرانها فتعهد لها ابوه بان يزوجها بغيره ويمهرها من عنده ويهب لولدها مبلغًا من ماله لتربيه به واكثروا عليها اللوم والقدح والذم ونسبوا اليها سبب خروج ولدهم عن طاعتهم وترك ما يجب عليه لنفسه ولاهله وانها هي السبب في سوء حظه وعدم استقامة حاله وانه بذلك

يعيش في اسواء الاحوال وانه لو كان حبك له صحيحًا لم يرضي له
لاننا لامحالة مصممون على حرمانه من ميراثنا واخراجه من دفتر
عائلتنا فانتهى بها الحال من اللوم والتعنيف الى ان قبلت منهم ما
قيل لها فاخذوا عليها المواثيق على ذلك حتى انها لما تقابلت مع
معشوقها على حسب عادتها خاطبته مع التاسف وتكلف الاعراض
عنه بسبب ما خوفوها به ولم تملك نفسها من كثرة البكاء فتركته
وحضر ابوه فآخذه ولامه على ذلك وبعد محاورات بينهما انتهى
الامر بان وعد اباه بالتسلي عنها وانه منقاد لامره راضٍ بما يرضى
به فخطب له بنت امير معروف كان الشاب يعرفها حق
المعرفة ومع كثرة مالها كان لا يميل اليها اصلاً لتجردها عن الجمال
لكنه وعد بالامتثال فلما كان يوم الزفاف دخلت البنت الفقيرة
الدار مختفية في ملبس غيرها من دون ان يشعر بها احد وكان
هناك جمع عظيم من الناس فدخلت في غمارهم واستترت في زاوية من
بستان الدار واقامت تنتظر الفرصة في اجراء ما هي عازمة عليه
واذا بالشاب قد مر وبيده عروسه وخلفه اناسٌ كثيرون فنهضت
من مكانها وقبضت بيده وقالت له ان كان ما فعله اهلك بي من
حق الاغنياء فحق على الفقراء ان تصنع بنفسها ما تتخلص به من
سوء معاملتهم واخرجت مدية ضربت بها نفسها فوقعت في الارض
ميتة من وقتها فصاح الشاب وطلب الحكيم وهاج الحاضرون
واجتمع كل من بالمنزل من الاهل وغيرهم ولكن مضى الامر وتم

ولا حيلة في رد القضاء المبرم ثم انهم وجدوا بمحلها طفلاً صغيرًا ملفوفًا في بعض خرق ومعه ورقة مضمونها انها على ما هي عليه من الحب والشوق اليه لا تغيرها حوادث الزمن ولا يثنيها ترادف المحن لكن اهله لشدة باسهم وغناهم وانتسابهم لاصول عريقة خوفوها بانواع العذاب ونسبوا اليها ما يشين عرضها بين الاهل والاصحاب وانها قدمته على نفسها وتركت له الدنيا بنعيمها حتى لا تكون سببًا لتنغيص معيشته وقلة صفاء فكرته

هذا ملخص اللعبة فالبيت الصغير هو بيت الشابة واهلها والمرأة والدتها وهذه البنت التي تراها اختها وسترى الشاب العاشق وتنظر جميع هذه التقلبات مفصلة وفي اثناء الكلام روءي الغلام العاشق آتيًا من وسط الاشجار يتكلم مع البنت واهلها وبعد قليل انفصلت الام وبنتها الصغيرة وبقي هو مع معشوقته يتكلمان ويتناشدان الاشعار على عادة العشاق ثم ارخيت ستارة حجبت جهة الملعب عن اعين المتفرجين فخرج اكثر الناس من محلاتهم

قال برهان الدين وخرج الانكليزي وانا معه فدخلنا ديوانًا كبيرًا فوجدنا الناس مجتمعين فيه من نساء ورجال منهم من يتعاطى الدخان ومنهم من يشرب القهوة وغير ذلك وكانت النساء مختلطة بالرجال البعض في مسامرة والبعض في تروض بالمشي فاحاط بنا اناس كثيرون فما من احد الا سال عني وعن بلدي وسبب مجيي ونحو ذالك ومن الغريب ان كثيرًا من

الحاضرين كان يسأل هذه الاسئلة بعد ان رأى غيره يسأل عنها وسمع جوابها فلا يكتفي بذلك حتى يكون بنفسه سائلاً ويسمع الجواب ثانياً

واما النساء فكانت الواحدة تكرر السؤال المرة بعد المرة فعجبت غاية العجب من ميل اهل هذه الملة الي وسؤالهم عني ثم سمعت ضرب ناقوس فقام الجميع فعلمت انه علامة على الرجوع فعدنا الى موضعنا وبعد برهة رفعت الستارة فرأيت الصورة تغيرت ولم ارَ اشجارا ولا انهارا ولا غيرها مما كان سابقاً بل رأيت منزلا صغيرا من داخله حجرة فيها طرابيزة وكراسٍ ورأيت الشاب مع البنت يتكلمان ويبكيان ويتناشدان الاشعار في الوجد والاشتياق ويتشاكيان آلام الفراق والزفرات متصاعدة والعبرات منحدرة والانفاس مترددة والعيون شاخصة وعلائم الوجد والوله بادية فعلمت انها حالة وداع ثم ارخيت الستارة فخرج الناس كالاول وهكذا الى ان انتهت اللعبة وكان ذلك في اربع ساعات ونصف قريباً من نصف الليل وفي اثناء الفصول كانت تتجه نحوي من جميع جهات المتياتر ابصار الحاضرين من النساء والرجال والكثير كان يستعمل النظارة وتكرر ذلك منهم مرارا وكنت انا كذلك انظر اليهم بنظارتي فارى أنهم بالقرب مني وارى المرأة مكشوفة الكتفين والصدر والراس والذراعين وارى نصف نهديها من الاعلى فلم اتمالك ان نظرت اليهن ونزهت

طرفي في حسنهن وتذكرت قول من قال

يا دمية شرعها ضرب النواقيس
ما بين قرب مزاري والنوى قيسي
هذي ثنايك قد لاحت بوارقها
ام اشرقت في الدجى انوار برجيس
ام ثغر كأس الطلا يفتر عن حبب
ام ذا ضياء نبي الله جرجيس

وعذرت من هام بحب الغواني واباح التمتع برؤية الوجوه الحسان وتمثلت بقول من قال

ايها العاشق المعذب صبرا
فخطايا اخي الهوى مغفوره
زفرة في الهوى احط لذنب
من غزاة وحجة مبروره

وما رايت واحدة منهن الا وبيدها مروحة تروح بها على نفسها وتوجه نظارتها الى غيرها وتتامل في ملابسها وكانت الرجال ايضاً تفعل ذلك وبينما نحن واذا بالفتاة التي كانت معنا على السفرة قد برزت

ولها سرائر في الضمير طويتها * نسي الضمير بانها في طيه

فتشاغلت عنها بما في التياتر من الغواني والمغنيات واختلاف الصور لكن لما وقع بصري عليها ووجدتها موجهة نظارتها نحوي

لم اتمالك ان وجهت نظارتي نحوها فكنت كما قيل

لم يكن المجنون في حالة * الاّ وقد كنت كما كانا
لكنه باح بسر الهوى * وانني قد ذبت كتمانا

فاشتغل فكري بها وقصرت نظري عليها وتوجهت بكليتي اليها وقام بي من الشوق ما لا اقدر على دفعه ولا حيلة لي في رفعه فهاجت ضمائري واضطربت سرائري واشتغلت بها عن روْية حوادث التياتر وغيرها حيث وجدتها تفوق الجميع حسنًا ودلالاً وظرفًا ولطفًا وكمالاً وكان يظهر لي انها تهتف باسمي وتشير بطرفها الى رسمي وكثيرًا ما رايتها تشير اليّ بالبنان اشارة متيم بالحب ولهان فكان بصري مراقبًا جميع حركاتها وقلبي مشغولاً بجميل صفاتها وغرقت في بحار الافكار لكني كتمت عن الحاضرين تلك الاسرار وخشيت هتك الاستار وهمت من حبها وجدًا ولا هيام عاشق ليلي وسعدى فما راعني الاّ سرعة قيامها والتفاتها اليّ بحسن قوامها وكانها تقول

بنا فوق ما تشكو نصيرًا لعلنا * نرى فرجا يشفي السقام قريبا

فغشيني من الهم ما غشي فرعون من اليمّ فما نظرت اليّ نظرة الاّ اورثت قلبي الف حسرة فذهبت وذهب قلبي معها وكدت ما لي اقوم كي اودعها وصرت اردد في نفسي عندما غاب شخصها الجميل عني

يا رائحًا بعد ما سباني * حسبك رب السما تعالى

واجتهدت في صرف صورتها عن وهمي فما استطعت وامرني آمر الورع والتقوى بسلوانها فما اطعت

وقد كنت من قبل الهوى اتقي الهوى
زماناً ولكنّ الهوى غلب التقوى

فبقي خيالها نصب ناظري وجمالها قيد خاطري حتى انصرفت مع الانكليزي بعد ما تم اللعب وانقضى وبقلبي من فراقها جمر الغضا واما ما كان من حوادث اللعب وقتل البنت لنفسها فجدير بان يذهل نفس من رآها عن حسها وذلك لان اللعب كان مستوفياً شروط التقليد وكأن الواقعة حقيقية وان ما بها من البكاء والاقوال والحوادث والافعال صادر من نفس اصحاب الواقعة فكان قلبي يتنقل على حسب تنقلات الحوادث حتى بكيت وسقطت من عيني العبرات وما افقت من ذلك الاّ بانقضاء اللعب وكانت النظّارة التي اهداها اليّ الخواجا هي المعينة على انكشاف ذلك كله فمع ان محل اللعب كان بعيداً عنا فكنت ارى حركة شفاهم وكاني في وسط المكان فعجبت لهذه الآلة وانتظرت الفرصة في سوال الانكليزي عنها وفي اثناء الطريق سألني عن حال التياتر فذكرت له جميع ما خطر لي من الخواطر وما تأثرت به من الحوادث فضحك وقال ايهما الطف وادق أالتياتر ام اولاد رابيه فقلت له شتان ما بين ذا وذاك واين الثرى من الثريا والقدم من المحيا

قال الحاكي لهذه الحكاية فلما وصلا الى محلها دخل الانكليزي مخدعه وتوجه برهان الدين الى والده فوجده قد نام فنام هو ايضاً وعند الصباح قام على حسب عادته وتوضأ وادى ما عليه من فريضة ثم ذهب الى والده فقبل يده وقعد بجانبه فسأله عما راى في ليلته فذكر له الواقعة واطنب وبيّن له ما كرهه من ذلك وما احب ووصف ما عاينه من الزخرفة والزينة وآلات الطرب والتصوير والتمثيل واللهو واللعب وقال لقد رايت الليلة ما فيه العجب العجاب ولكن ليتك ياوالدي ما اذنت لي في الذهاب قال ولمَ ذلك فذكر له ما رأى من حال النساء واختلاطهن بالرجال وكشفهن لوجوههن وصدورهن ونهودهن اظهاراً للجمال وانه راى ذلك مباينًا للحياء والكمال ومضراً بحال النساء والرجال وداعيًا الى تعلق البعض بالبعض لسهولة الاختلاط المؤدي الى الميل واشتغال البال وترك الانسان ما يجب عليه من الاعمال اذ لا يخفى ان اول الحب نظرة كما ان اول الحريق الشرر فما اسواء هذه العادة في هذه البلاد وما اضرها على العباد *

فقال الشيخ يابني لكل بلاد عادة يستحسنها اهلها ويستقبحون ما يخالفها وان كان غيرهم على عكس ذلك ولن تستطيع تغيير عادة جارية في مدينة كبيرة مثل هذه بازرائك عليها وانتقاصك لها فلا يحصل من الاعتراض عليهم غير التعرض لمعاداتهم على انا لا فائدة لنا في تغيير عاداتهم واستمرارهم عليها اذ لسنا بصدد معاشرتهم

وسكنى حاضرتهم وانما نقيم بين اظرهم مدة يسيرة ونرحل عنهم فما علينا من اخلاقهم وعاداتهم مليحة كانت او قبيحة وانما علينا اذا راينا في اوضاعهم وطباعهم واحكامهم ومبانيهم وغير ذلك شيئًا فيه لبلادنا مزية ومنفعة احصيناه وحفظناه حتى نجتهد في نقله الى جهتنا بالتنويه به بين اهل ملتنا واظهار محاسنه وبيان منافعه وترغيب الناس فيه بشرط ان يكون هذا مع التحقق من نفعه بعد امعان النظر وجودة التامل ومراجعة اهل النظر والبصيرة فيه لا ببادئ الراي والنظرة الحمقاء فقد راينا كثيرًا من الاغرار الحمقاء حين يدخلون مثل هذه المدينة الحافلة ويرون ما فيها من الزخرفة والزينة والابهة وعلائم العز والثروة واليسار مما لا يجدون نظيره في بلادهم تحملهم روعة ما يهولهم من تلك المناظر الرائعة والظواهر المعجبة على ان يستحسنوا كل ما راوه مما يخالف ما عندهم ويظنوا انه سبب الغنى والثروة لاهل تلك المدينة مع انه ربما كان في نفس الامر قبيحًا مضرًا وانما غطي على ضرره انه مصحوب بامور نافعة غيره وربما ظهرت مضراته بعد حين فعلى العاقل ان لا يتسرع الى الحكم بل يتثبت ويتامل حتى تظهر له حقيقة الشي على ما هو عليه ويجتهد في نقل النافع لاهل وطنه وملته والكف عن غيره واما ما ذكرت من خوف الفتنة من تكشف النساء كما رايت بالامس فكان عليك يابني ان تغض البصر عما لا تحل لك رؤيته وما يخاف عليك تبعته وقد قال الله جلت كلمته

(قل للمؤمنين يغضوا من ابصارهم)

وبينما هما في هذا الكلام دخل الانكليزي عليهما واخذ يسمع نصائح الشيخ لولده فاتم الشيخ كلامه وقال . واعلم يا ولدي ان لكل امة من الناس عادات الفوها واستمروا عليها لا يتحولون عنها بل لكل واحد من الامة عادات واخلاقاً تخنص بهِ ويتميز بها وقد قلت لك فيما سلف ان الخلق وان كانوا من نفس واحدة الاّ ان اخلاقهم وطباعهم متغايرة وعاداتهم واوضاعهم متنافرة فمنهم من اعتاد حجب النساء وحجزهن في المنازل ومنهم من اعتاد ابرازهن واختلاطهن بالرجال وكذلك منهم البخيل والسخي والشجاع والجبان والغبي والزكي والصالح والطالح الى غير ذلك كما ان منهم الاسود والاسمر والابيض والاشقر ومنهم من لغته العربية وغيرها وليس من نوع الانسان الا وفيه خلق من اخلاق غيره من الحيوان فاذا راينا الرجل جاهلاً في خلائقه غليظاً في طباعه قوياً في بدنه لا تومن ضغائنه الحقناه بعالم النمور لان العرب ضربت بالنمر المثل فقالت اجهل من نمر واذا رأينا الرجل هجاماً على اعراض الناس الحقناه بعالم الكلاب فان داب الكلب ان يجفو من لا يجفوه ويؤذي من لا يؤذيه واذا راينا انساناً جبل على الخلاف ان قلت نعم قال لا وان قلت لا قال نعم الحقناه بعالم الحمير فان دأب الحمار ان ادنيته بعد وان ابعدته قرب فلا تنتفع بهِ ولا يمكنك مفارقته وان رأينا انساناً يهجم على الاموال والارواح

الحقناه بعالم الاسود فخذ حذرك منه كما تاخذ حذرك من الاسد وإذا رأينا انسانًا خبيثًا كثير الروغان الحقناه بعالم الثعالب لان العرب ضربت بهِ المثل فقالت اروغ من ثعلب واذا رأينا من يمشي بين الناس بالنميمة ويفرق بين الاحبة الحقناه بعالم الظربان وهي دويبة قدر الهرة منتنة تقول العرب عند تفرق الجماعة مشى بينهم الظربان اي تفرقوا واذا رأينا انسانًا لا يصغي الى الحكمة والعلم وينفر عن مجالس العلماء ويألف اخبار اهل الدنيا الحقناه بعالم الخنافس فانه يحبها اكل القاذورات وملامسة النجاسات وتنفر من ريح المسك والورد واذا اشتمت رائحة الطيب ماتت لوقتها واذا راينا الرجل يصنع بنفسه ما تصنع المراة لبعلها فيبالغ في التزيّن وينظر في عطفيه الحقناه بعالم الطواويس لان العرب ضربت بهِ المثل فقالت ازهى من طاووس واذا راينا انسانًا حقودًا لا ينسى الهفوات ويجازي بعد المدة الطويلة على السقطات الحقناه بعالم الجمال فنجتنبنا قربه لان العرب تقول احقد من جمل فخذ من الناس حذرك وجد فيما تحسن بهِ امرك

النصح ارخص ما باع الرجال فلا
ترد على ناصح نصحًا ولا تلم

ولقد ذكرت بما انساق اليه الكلام من طبائع الحيوان نادرة لطيفة عن الامام علي رضي الله عنه وكرم وجهه حكي انهُ دخل عليه اعرابي فقال لهُ اني رأيت كلبًا وطيء شاة فولدت. فما تقول في

ولدها . فقال كرم الله وجهه اعتبره في الاكل فان أكل لحمًا فكلب وان أكل علفًا فشاة . فقال الاعرابي رايته يفعل هذا تارةً وهذا اخرى . فقال اعتبره في الشرب فان كرع فهو شاة وان ولغ فهو كلب . فقال الاعرابي وجدته يلغ مرة ويكرع اخرى فقال اعتبره في المشي مع الماشية فان تاخر عنها فكلب وان تقدم او توسط فهو شاة . فقال وجدته مرة هكذا ومرة هكذا فقال اعتبره في الجلوس فان برك فشاة وان اقعى فكلب فقال يفعل هذا مرة وهذا اخرى . قال اذبحه فان وجدت لهُ كرشا فهو شاة وان وجدت لهُ امعاء فكلب وما ذاك الاَّ من سعة علم الامام كرم الله وجهه ومعرفته بالطبائع

قال الانكليزي اظن ان الذي جر هذا الكلام بينكما حكاية ما رآه برهان من امر التياتر فاني اظنه حدثك بما كان

فقال الشيخ نعم شرح لي صورة الحال وكيف قتلت البنت وحكى لي انه تأثر من معاينته ذلك حتى كأن الامر حقيقي لا مجرد تصوير وتمثيل

فقال الانكليزي ما كنت اظن هذا الامر يؤثر في برهان حتى رأيته في اثناء الواقعة يبكي فحملت ذلك على رقة قلبه

فقال الشيخ هذا لا يستغرب من مثله فانه صغير السن قليل الممارسة للامور فهو سريع التأثر بعيد عن القسوة

قال الانكليزي فكيف بهِ لو رأى تصوير الحوادث الجسيمة

والوقائع الحربية العظيمة حيث يرى القتلى صفوفًا والمدرجين في دمائهم الوفًا والمقطعين اربًا اربًا والمدبرين عن القتال رهبًا وهربًا

فقال برهان اعوذ بالله من ذلك لست ممن يميل لرؤية هذه الامور وانما اميل لما يجلب الى النفس السرور ومالي ولما يورث الحزن ويبعث على الشجن

فقال الانكليزي الشيء لا يعرف الاَّ بضده ولا تخلو روية هذه الامور من فائدة

قال برهان ولكن هذا امر لم تألفه طباعنا ولم تسبق لنا بهِ عادة واذا رايت شيئًا من ذلك تكلمت فيه بما اراه والذي ارجوه منك الان ان تعرفني كيفية هذه النظارة ولاي شيء يرى البعيد بها قريبًا والصغير كبيرا فلا بد لذلك من حكمة



المسامرة الثامنة والعشرون

النظارات

قال الانكليزي العلم بحقيقة ذلك متوقف على قواعد علمية مذكورة في علم الطبيعة في باب الضوء وستقف عليه ان شاء الله عند تلقي هذا العلم بالمدارس وبعض هذه الخواص قائم بشكل الزجاجة الموضوعة في النظارة وبعضها ناشيء من تعددها وبعدها عن بعضها فلا ندخل في ذلك الان ويكفينا الاستدلال بها على استكشاف الانسان لامور اتسعت بها دائرة معلوماته وقد زعم بعض المورخين من الاورباويين انها لم تكن موجودة الى القرن الثالث عشر من الميلاد وانما اخترعت بعده على يد رجل تلياني وليس كذلك لانه تحقق لنا الان ان استعمالها سابق على هذا التاريخ وان هذا التلياني انما احدث فيها بعض تحسينات فقط ومع ذلك كله فاظن ان استعمالها بالديار الاورباوية لم يكن الا بعد استعمالها بالمشرق فان ابتداء علمي الملاحة ورصد الكواكب اللذين هما اشد احتياجاً اليها من غيرهما كان بتلك الديار وقد نسب المورخون اختراعها الى المصادفة حيث قالوا

اتفق ان بعض اطفال الصناع من اهالي هولاندة في بعض العابهم قربوا عدستين من الزجاج الى بعضهما وكانتا من جنسين مختلفين ثم نظروا من خلفهما فوجدوا الاشياء الصغيرة البعيدة كانها قريبة كبيرة فاخبروا معلمهم بذلك فامتحنه فوجده حقًا فاخذ في عمل نظارات بعدسات من اجناس مختلفة بعد ان كان يجعلها من جنس واحد فكانت تسمى هذه النظارات بالهولاندية نسبة الى ذلك المعلم وكانت ترى بها الصور غير تامة الوضوح بسبب ما كان يرى فيها من التلون بالوان العدسات فاشتغل اهل الفن بازالة هذا الامر وذلك ان احد الفرنساوية ادخل مادة جديدة في المواد التي تتركب منها العدسات فامتنع ظهور الالوان المذكورة وكان ذلك في القرن السابع عشر من الميلاد وهو القرن الحادي عشر من الهجرة فمن ذلك الوقت صارت الصور ترى بلونها الاصلي وبحسب تقدم الناس في المعلومات الفكرية واتساع دائرة العلم والصنائع العملية تحسن امرها شيئًا فشيئًا حتى تنوّعت الى انواع كثيرة وصلت في الاتقان الى غاية كبيرة

وجميع النظارات المستعملة الان بين الناس بالنسبة لتعدد العدسات الزجاجية وعدمه منحصرة في قسمين بسيطة ومركبة

فالبسيطة هي التي تشتمل على عدسة واحدة كالتي تمسك باليد او توضع على الانف وهي مختلفة الشكل والقيمة

بالنسبة لحسن المعدن والمادة الداخلة في تركيبها ولاختلاف شكل اعين الناس اختلف تركيبها فان من الناس من لا يرى الاشياء الا اذا كانت على بعد منه ومنهم من لا يراها الاّ اذا كانت قريبة جدا فما يوافق الاولين لا يوافق الاخرين وبالعكس والغالب ان من يرى الاشياء على بعد يكون شكل عينه مقعرا فيناسبه نظارات محدبة وان من يراها من قرب يكون شكل عينه محدبا فيناسبه نظارات مقعرة ولتفاوت اعين الناس في التحديب والتقعير كانت العدسات ايضا متفاوتة فيهما وبالتجارب وجدول التفاوت لا يزيد عن اثنتين وعشرين درجة واكبرها قوة الدرجة الاولى فلا يستعملها الا من كان بصره ضعيفا جدا كالهرم ومن اضر ببصره المرض فسبحان من علم الانسان من مكنون علمه ما اودع في مخلوقاته من الحكم الربانية حتى استعاض ما ضاع من قوة ابصاره التي هي اصل لتلذذ حواسه وغذاء افكاره

والمركبة هي التي تشتمل على عدستين فاكثر مثبتة في قضيب اسطواني فتوضع احدى العدسات في نهاته مما يلي الرآئي وتسمى الباصرة او العينية والثانية في النهاية الاخرى وتسمى الشيئية او الشخصية لانها في جهة الشيء المرئي وشخصه وقد يكون القضيب مركبًا من قضيبين او قضبان يدخل بعضها في بعض لسهولة الاستعمال وتقريب الاشياء وزيادة ظهورها للعين فتكون حينئذ

نافعة لجميع الناس لسهولة تنقيص الطول وزيادته على حسب قوة الرائي وفي هذا النوع اذا كانت العدسات من جنس واحد اي محدبة فقط او مقعرة فقط تكون الصورة المرئية مقلوبة اي ان المرئي لو كان رجلاً مثلاً لنظرت صورته منعكسة رأسه بجهة اسفل ورجلاه الى اعلى فان كانت العدسات مختلفة بان كان بعضها محدباً والاخر مقعراً رؤيت الصورة كما هي واما النظارات التي يستعملها البحريون فيوجد بها عدسات اخرى بين الباصرة والشيئية (اي الشخصية) موضوعة بقوانين حسابية وبسبب ما علم من فوائد هذه الالات لم يزل اهل الفن مشتغلين بها حتى توصلوا الى عمل نظارات تكبر الصورة عن اصلها الف مرة والفين وثلاثة الاف واكثر والى عمل نظارات لنظر الاشياء الدقيقة جداً كاعضاء بعض الحشرات كالنمل والذباب والبراغيث ونحو ذلك مما لا يمكن رؤيته بدونها وهذه ايضاً اما بسيطة كالتي عند الساعاتية والجوهرية واما مركبة في قضبان تتداخل في بعضها وتكون عادة موضوعة راسية مثبتة في قائم من معدن لتسهيل الاعمال اللازمة ويكون التعظيم الحاصل منها حينئذ محصل ضرب تعظيم كل من هذه العدسات في الاخر فاذا كانت العدسة الشخصية او الشيئية تعظم قطر الجسم خمس مرات والعينية عشر مرات كان التعظيم الاخير خمسين قطراً اي الفين وخمسمائة سطح حاصلة من ضرب الخمسين قطراً في نفسها وقد

يكون التعظيم الاخير الف قطرًا اي مليون سطح كما اذا كان التعظيم من الشخصية مائة ومن العينية عشرة او من الشخصية اربعين ومن العينية خمسة وعشرين مثلا وسأطلعك على هذا كله واريك بعض غرائب الصور التي تراها بها اذا دخلنا المدينة فان بها دكاكين مخصوصة ببيع النظارات لانها على البحر وجميع القبابطين لا بد لهم منها فلا تسير سفينة الا وبها عدة منها اما بيد القباطين او بيد البحرية



المسامرة التاسعة والعشرون

العادات

ثم امر الانكليزي باحضار الفطور فاكلوا على العادة ثم قاموا يتفرجون على المدينة ولاجل وقوف الشيخ على كيفية المدينة واهلها استحسنوا ان يبدأوا بالتفرج على اصلها القديم ثم على الجديد وفي اليوم الاخير يذهبون الى خارجها ليطلع الشيخ على اطرافها وضواحيها ويقارن احوال الزمن الماضي باحوال الزمن الحالي

ويرى كيف تتغير احوال البلدان بتغير اهلها واستحسن الشيخ الذهاب على القديم وان كان أكبر الثلاثة سنًا ليتمكن مزيد تمكن من الاطلاع على ما بها من الاماكن والبقاع والاحوال والطباع فاخذ بعضهم بيد بعض وابتدأوا من المينا (اي المرسى) فداروا حولها وراوْا بها مخازن البضاعة الواردة والصادرة ومحلات الكمرك ونحو ذلك فتعجب الشيخ من كثرة السفن وتنوع اشكالها واجناس ملاحيها وملابسهم والوانها ومن كثرة البضاعة الموجودة في المينا المذكورة منها الوارد للمدينة والصادر الى جهات مختلفة ووجد المرور بالطرق عسرًا جدًا لكثرة العربات المعروفة في مصر بعربات الكر ومقابلتها لعربات الركوب والحمالين والمارين فكان سيرهم متقطعًا غير مستمر وظهر للشيخ وولده عظم تمول الامة الفرنساوية واتساع ثروتها ومعرفتها بطريق الاسباب المعاشية ولكون النفس مجبولة على حب الوطن تذكر الشيخ مصر واهلها وثغر الاسكندرية وحالها فوجد بينها وبين مرسيليا فرقا كبيرًا وان ذلك ليس الا من تفاوت احوال التقدم ونظر الى المارين بالطرق وقارن احوالهم بما يعلم من احوال اهل بلاده فوجد ان لا نسبة بينها الاَّ في الصورة فقط لانه رأى الكل يسعى مع الاجتهاد والغيرة والنشاط في طلب الرزق وعليهم اثار اليسار والثروة والنعمة ومما زاده تعجبا ما رآه من اجتماع خلق كثير لا يسمع لهم صوتًا ولغطا كما هي عادة المصريين واهل المشرق بل كل مشغول

بامر نفسه سائر في طريقه محترز من اضرار غيره او تغيير خاطره ومع تنوع الاشغال والاعمال وكثرة العمال فلا ضرب ولا سب فكانهم اجتمعوا للصلاة او لسماع منشور من احد الولاة فلا يسمع بينهم الا الفاظ لا بد منها بين المتعاملين من غير صياح ولا صراخ حتى قال الشيخ ليت هذا الحال بازقة القاهرة والاسكندرية ونحوهما من مدن الممالك المشرقية فانا نرى النـــاس بها سيما في الموالد والمواسم والمحافل لا تكاد تمر بهم ساعة من الساعات الاّ ويحصل فيها تشويش خاطر المارين وازعاجهم من كثرة الصياح والصراخ والسب وسماع الالفاظ الفظيعة ثم تامل في اصل ذلك وسببه فوجده ناشئًا من قوانين الضبط الابتدائية وطرق التربية الاولية فتعود كل على ما نشأ عليه ثم انهم بعد الاطلاع على المينا وما بها من المباني والغرائب دخلوا المدينة فبدئوا بالجزء القديم منهـــا فوجدوا بناءه وحاراته وطرقه مثلـــ ما يوجد في المدن المشرقية سوآء بسواء الاَّ ان طرقه مبلطة وغالب حاراته يخرج منها روائح كريهة وما بها من الدكاكين والخانات ليس كالذي رأوه في الشوارع الجديدة الموصلة الى اللوكاندة حيث هم نازلون ووجدوا المارة قليلة بالنسبة لما رأوه في تلك الشوارع وما زالوا سائرين من محلة الى محلة ومن جهة الى غيرها والشيخ وابنه يتاملان فيما يمران بهِ ويقع تحت نظرهما ويقابلان حاله بحالـــ ما في مصر وجهاتها من نوعه وينظران في الفرق بين الحالين والترجيح بين

الامرين

وكان غالب نظر الشيخ منعطفًا الى عادات الناس وادابهم في معاملاتهم وسائر حالاتهم وما يراه بهم من علائم الغنى والفقر والراحة والتعب وكثرة الكسب وقلته وسهولة امر المعاش وصعوبته ونحو ذلك من الاحوال واسبابها وكان نظر برهان الدين كعادة غيره من الشبان قاصرًا على المناظر والظواهر فنظر في مبانى المدينة وتأمل فيها فرآها مرتفعة ورأى غالب البيوت من اربع طبقات الى سبع بعضها فوق بعض فتعجب من وضع المباني وكثرة تعدد طبقات المنازل مع ان اعظم بيوت مصر في العلو طبقتان خلاف الطبقة الارضية بل الكثير منها طبقة واحدة فوق الارضية

فقال له الانكليزي اراك تردد النظر الى هذه المباني والتامل في ارتفاعها واراك كالمتعجب من كثرة طبقاتها . فقال نعم . قال الانكليزي لا غرابة في ذلك فهذا كله ناشيء من امور طبيعية واسباب جوية لان هذه البلاد باردة فلا يناسبها الغرف الواسعة ولا المرتفعة وانما يناسبها القليلة السعة والارتفاع فاذا لزم عندكم ارتفاع الطبقة ستة امتار مثلاً كفى عندنا نصفها لان غالب اوقات السنة عندنا باردة فتحتاج اصحاب المساكن لاستعمال الة مخصوصة لتولد الحرارة ودفع البرودة كأفران من حديد توضع في المحلات وقت الشتاء وحمامات تعمل داخل البناء كما رأيت في محلات اللوكاندة فكلما كبر المحل احتاج لزيادة الوقود في الفرن وفي ذلك

زيادة في المصرف ولذا اضطر الناس عندنا الى تقليل ارتفاع الحجرات فكثرت الطبقات في الدور مع كون الدار لا يزيد ارتفاعها عن ارتفاع دوركم الا بشيء يسير بل ربما كان ارتفاعها سواء الا انها عندنا منقسمة الى عدة طبقات تسكنها عائلات متعددة اذ كانت العادة عندنا ان لا ينفرد صاحب الدار بسكناها بل يسكن منها فيما يكفي عائلته ويؤجر باقيها بخلاف ما عندكم من تعود كثير من الناس أن ينفرد صاحب الدار بسكناها مستقبحاً ان يساكنه غيره ولو كان من اقاربه فلما ذكر من الاسباب اختلفت اوضاع المنازل عندنا وعندكم وكما اقتضى اختلاف احوال الاقطار اختلاف اوضاع المساكن كذلك اقتضى اختلاف هيئات الملابس وتنوع المآكل والمشارب وعلى ذلك جرت عادتهم ووقع عليه استحسانهم حيث كان مرجعه الى اقتضاء الطباع ألا ترى العرب في البادية يكتفي الواحد منهم بقميص واحد ورداء ابيض من الصوف وهو المعروف بالحرام وما ذاك الاّ لان حرارة قطرهم تمنعهم من الزيادة على ذلك فالثوب لستر العورة والحرام لزينة النهار وغطاء الليل ولم يكن اختيار اللون الابيض خالياً عن الحكمة بل لانه الموافق للاقطار الحارة فيرد الحرارة عن البدن بخلاف باقي الالوان فانها تجذب حرارة الجو اليها ومن اجل ذلك اعتاد الناس لبس الابيض في الصيف وغيره في الشتاء وكذلك يستحب في البلاد الحارة الثياب الواسعة كملابس اهل

الارياف وكالجبة والقفطان عند اهل المدن واما البلاد الباردة فيطلب فيها ضيق الملابس لتكون مماسة للجسد لاصقة بهِ لان الجسد لهُ درجة في الحرارة لها مع حرارة الجو نسبة تتعادل معها بحسب الفصول فمهما كان الثوب محكما على الجسد حفظ حرارته ولو نظرت الى تفصيل المنازل عندنا وعندكم وتاملت صورتها الخارجة والداخلة لرايت ان القطر لهُ دخل عظيم في اختلافها مثلا سطوح المنازل عندكم مستوية وفي بلادنا لا يناسب هذا الوضع لان المطر عندنا كثير وفي بعض الاحيان يتجمد فيكون ثلجًا فلو كان السطح مستويًا لتسارع اليه الخلل خصوصًا لطول مدة الامطار وكثرتها فيسري الخلل الى المنازل وتمتنع راحة سكانها وتتلف امتعتهم ويؤدي ذلك الى ضرر عظيم لتراكم الثلج فوق الاسطحة واذا ابتدا الجو في الحرارة انماع وسال وبسيلانه يفسد بناء المنازل ولذلك تجد جميع سقف المنازل عندنا عبارة عن سطحين يرتفع طرفاها عند التقاها على الهيئة المعبر عنها في اصطلاح المصريين بالجمالون فهذا الشكل من ضروريات قطرنا لما علمت بخلاف ما عندكم فان الامطار في الاقاليم الشمالية المعروفة بالجهة البحرية في مصر قليلة جدًا وفي الجهة الجنوبية منها المعروفة بالقبلية نادرة ولا ضرورة للاحتراس من شيء لو وقع كان قليلا او نادرًا او غير مضر وهذا قانون عام في جميع جهات الارض فكل سكان بقعة من مبداء اتخاذهم لها مقرًا ووطنًا قد تخيلوا حتى اهتدوا الى ما

يوافق احوالهم بالنسبة لهذه البقعة ومن ثم كانت الطباع والاخلاق والعادات متولدة من طبيعة قطر الجهة واما ما زاد فطاريٌ من اختلاط سكان كل بقعة بمن جاورها



المسامرة الثلاثون

القهوة

وهكذا كان يتكلم مع برهان والشيخ يسمع الى ان وصلوا الى محل قهوة يزيل الاتراح ويجلب الافراح للطافته وحسن زخرفته وكثرة ما به من المرايا وسائر المزايا والنقوش اللطيفة والاشكال الظريفة والادوات النظيفة والآلات المطربة والحالات المعجبة فدخلوا بقصد الاستراحة فاختاروا ركنًا بعيدًا عن الزحام فقعدوا حول طرابيزة فحضر الخادم فامره الانكليزي بقهوة للشيخ ولولده وبليمونية لنفسه فذهب واتي له بما طلب ثم اخذ ورقة من اوراق الحوادث ليطلع على ما فيها من الاخبار وكان الوقت اخر النهار

ومن عادتهم التفسح في هذا الوقت فمنهم من يأوي الى محلات القهوة ليطلع على الاخبار او ليتسلى مع بعض الاخوان ومنهم من يذهب الى خارج المدينة للفسحة والتروض ومنهم من يمشي مع بعض حرمه من النساء فكان في محل القهوة في هذا الوقت زحام كثير يدخلها فوج من الناس ويخرج اخر والجميع في هيئة تدل على الثروة فاستغرب الشيخ هذا المحل واستعظم امره وراى فيه عدة محلات متداخلة وراى الناس تخرج من محل الى اخر بدون مانع يمنعهم وراى في المحل كثيرًا من الكراسي الحسنة والترابيزات الثمينة ولكثرة المرايا وتقابلها ببعضها كانت صور الجالسين والخارجين والداخلين تنعكس فيها وتتضاعف مرارًا فكان يتراءى في المحل سعة اكبر واكثر مما هو عليه في نفس الامر وكان المنظر الحادث من هذا التكرر غريبًا يلذ الناظر ويسر الخاطر فرغب برهان في التفسح في ارجاء المكان فقال له الانكليزي قم ولا حرج ولننظر الى ما تحب وتفرج فراى مكانًا كبيرًا فدخله فوجد في وسطه ترابيزة كبيرة عليها ثلاث كرات من سن الفيل وحولها ناس من جملتهم اثنان بيد كل واحد منهما عصا يضرب بها احدى الكرات الثلاث المذكورة فتضرب احدى الكرتين الاخريين او كليهما وربما ضرب بها حافة الترابيزة فتنعكس عنها الى الكرة الثانية ثم الى الثالثة وربما لم تصب الا واحدة وفهم من الناس ان هذه اللعبة تعرف بالبليارد وان الواحد اذا اصاب بالكرة التي يضربها كلتا الكرتين

الباقيتين حسب له واحد في اللعب ولعب ثانيًا فاذا لم يصب كلتيهما لم يحسب له شي ويلعب قرينه وهكذا حتى يستكمل احدهما العدد المتفق عليه بينهما فتكون له الغلبة ثم خرج من ذلك المكان الى حجرة اخرى فوجد بها قومًا جلوسًا وامامهم طرابيزات عليها الصحف الخبرية واوراق الحوادث النشرية وهم يقراون فيها وفي غيرها واخرين ياكلون ووجد محلات القهوة والمشروبات في غاية النظافة والظرف والخدمة في هيئة الكمال واللطف ووجد شابة ظريفة الملبس جميلة الصورة امامها مكتبة ودفتر تكتب فيه ما يطلب فرجع وذكر ما راى لوالده وكان قد راى هو ايضًا قريبًا من المحل الذي هم به اناسًا يلعبون القمار واخرين يلعبون بالنرد وهو المعروف بالطاولة واخرين يلعبون بالشطرنج والدومنو

فقال الشيخ تنبيهًا لولده واحكامًا لرشده قد رايت ما بهذا المكان من بديع الاتقان وغريب الاحسان ما يدلك على تسابق الافكار في توصل بني نوعك الى محاسن الاثار فهذا الموضع كما تراه يبلغ كل داخل فيه مناه فالناس ما بين آكل وشارب ومتفرج ولاعب ومطلع على الاخبار الوقتية وسائل ومجيب عن الاحوال التجارية والناس مع اختلاف هذه الشئون على اكمل هدء واجمل سكون الى سلامة ابدان ولطافة اذهان ونظافة ثياب وملاحة ذهاب واياب فاين من هذا غالب محلات القهوة في مصر حيث يجتمع السوقة من الناس ولا يرى ما يسر الناظر ويسر الخاطر ولا

شي فيها غير القهوة وتراها لضيقها يهجم على من فيها الدخان المتصاعد من الكانون وكذلك دخان النرجيلة والعود ونحو ذلك حتى يراهم من يمر بهم كانهم في حريق او محل سجن مضيق فهي منبع لكثير من الامراض والعلل وماوى لاهل البطالة والكسل خصوصاً المحلات التي يتعاطى فيها الحشيش فلا يسمع فيها الاّ الفاظ يمجها السمع وينفر منها الطبع وقلما خلت عن السب والضرب فهي بهذه الكيفية لا تليق بالامراء والاعيان والفضلاء

فقال الانكليزي ان اصل ما جعلت له هذه المحال عندنا وعندكم واحد ولكن بسبب ازدياد الثروة والتوسع والعمران اكتسبت هذه المحال عندنا هذه الهيئة شيئًا فشيئًا حتى صارت كما ترى يرد اليها جميع الناس من رجال ونساء وافاضل وامراء ومع هذا فما هنا ليس شيئًا بالنسبة لما في مدينة باريس كما ستراه فليس الخبر كالعيان وقد رايت عندكم بالموسكي وجهة الازبكية والاسكندرية بعض محلات للقهوة تشبهها وان كان غالب المترددين اليها من الاوروبويين فهذا ربما يشعر بانْ قطركم قد اخذ في مبادي التوسع في العمارة والرفاهية فيوشك ان تكثر به هذه المحلات ويزداد انقانها وتحسينها . أما رايت في ازقة مرسيليا القديمة محلات للقهوة لا فرق بينها وبين ما في القاهرة فهذا مما يدل على ان هذهِ الحالة لم تكن في القرون السابقة كما هي الان ولكن لا تكون الامور الاّ

تدريجاً فكلما ازدادت امة من الامم تحولت عن حالتها الاصلية الى ما يقتضيه ما صارت اليه ولا يخفى عليك ان الانسان وان كان يصرف في القهوة هنا اضعاف ما يصرفه عندكم الاّ ان ذلك ليس لذات القهوة بل لها ولما يتبعها من نظافة المكان وما فيه من المحاسن التي رايتها فانكم تعلمون ان النظافة من ضرورات حفظ الصحة التي رعاها الشرع والعقل ولذلك يتعين على ضباط البلاد والقرى والمدن دوام تفقدها والتنبيه عليها حتي تصير عند الاهلين طبعاً وعادة من جملة العادات المالوفة .كما انهم يلزمهم زيادة عن ذلك شدة التضييق على المواد المضرة بالعقل والجسم كالحشيشة فيلزم مزيد التاكيد في ازالتها والتوعد بالعقاب الشديد على استعمالها وكثيراً ما سمعت عندكم بنشر اوامر من الحكومة بمنع تعاطيها وعدم زرع شجرتها في شي من ارض مصر ولكن لم تمتنع بالكلية وليت شعري من اين عرف المسلمون هذه الشجرة وكيف استعملوها ولم تكن مشهورة الاستعمال بين قدماء المصريين



المسامرة الحادية والثلاثون

الحشيش

فقال الشيخ انها لم تكن من مستنبتات مصر واشتهرت نسبتها الى طائفة من الاعاجم تسمى الحيدرية نسبة الى رئيسهم حيدر قال الحسن بن محمد في كتاب السوانح الادبية سالت الشيخ جعفر بن محمد الشيرازي الحيدري ببلدة (تستر) في سنة ثمان وخمسين وستمائة عن السبب في الوقوف على هذه العقار يعني الحشيشة ووصوله الى الفقراء (يعني الدراويش) خاصة وتعديه الى العوام عامة فذكر لي ان شيخه حيدر طلع ذات يوم وقد اشتد الحر وقت القائلة منفردًا بنفسه الى الصحراء ثم عاد وقد علا وجهه نشاط وسرور بخلاف ما كان يعهد من حاله قبل فدخل محله واذن لاصحابه في الدخول عليه واخذ يحادثهم ويوآنسهم فلما راوه على هذه الحالة من المؤانسة بعد اقامة المدة الطويلة في الخلوة والعزلة سالوه عن سبب ذلك فقال بينما انا في خلواتي اذ خطر ببالي الخروج الى الصحراء منفردًا فخرجت فوجدت كل شي من النبات ساكنًا لا يتحرك لعدم الريح وشدة القيظ ومررت بنبات له ورق

فرأيته في تلك الحال يميس ويتحرك بلطف كالثمل النشوان فجعلت اقطف منه اوراقًا وآكلها فحصل عندي من الارتياح ما شاهدتموه فقوموا بنا حتى اوقفكم عليه لتعرفوا شكله قال فخرجنا الى الصحراء فاوقفنا على النبات فلما رايناه قلنا هذا نبات يعرف بالقنب فامرنا ان ناخذ من ورقه وناكله ففعلنا فوجدنا في قلوبنا من السرور والفرح ما عجزنا عن كتمانه فلما رآنا على الحالة التي وصفنا امرنا بصيانة هذه العقار واخذ علينا الايمان ان لا نعلم بها احداً من عوام الناس واوصانا ان نخفيها عن الفقراء وقال ان الله تعالى قد خصكم بسر هذا الورق ليذهب باكله همومكم الكثيفة ويجلو بفعله افكاركم الشريفة فراقبوه بما اودعكم وراعوه فيما استرعاكم

وعاش الشيخ حيدر بعد ذلك عشرين سنة ثم توفي سنة ثماني عشرة بزاويته في الجبل وعظمه اهل خراسان وزاروه وكان قد اوصى اصحابه عند وفاته ان يوقفوا ظرفاء اهل خراسان وكبراءهم على هذه العقار فاستعملوها فلم تزل هذه الشجرة شائعة ذائعة في بلاد خراسان وفارس ولم يكن يعرف اصلها اهل العراق حتى ورد اليها صاحب هرمز ومحمد بن محمد صاحب البحرين وهما من ملوك سيف البحر المجاور لبلاد فارس في ايام الملك الامام المستنصر بالله وذلك في سنة ثماني وعشرين وستمائة فحملها اصحابها معهم واظهروا للناس اكلها فاشتهرت بالعراق ووصل خبرها الى اهل الشام ومصر والروم فاستعملوها وقد نسبها لحيدر المذكور محمد بن علي

بن الاعمى الدمشقي في قوله من ابيات

دع الخمر واشرب من مدامة حيدر
معنبرة خضراء مثل الزبرجدِ
يعاطيكها ظبي من الترك اغيد
يميس على غصن من البان املدِ
فتحسبها في كفه اذ يديرها
كرقم عذار فوق خد موردِ

وقال الشيخ محمد الشيرازي القلندري لم ياكل الشيخ حيدر الحشيشة في عمره البتة وانما عامة اهل خراسان نسبوها اليه لاشتهار اصحابه بها وكان اظهارها قبل وجوده بزمان طويل وذلك انه كان بالهند شيخ يسمى بيررطن هو اول من اظهر لاهل الهند اكلها ولم يكونوا يعرفونها قبل ذلك ثم شاع امرها في بلاد الهند حتى ذاع خبرها ببلاد اليمن وما جاورها ثم فشا الى اهل فارس ثم ورد خبرها الى اهل العراق والروم والشام ومصر في السنة التي تقدم ذكرها وبيررطن هذا يزعمون انه كان في زمن الاكاسرة وادرك الاسلام واسلم وعاش بعد ذلك طويلاً وذلك مما لا اصل له وقد نسب اظهارها للناس الى اهل الهند علي بن مكي في ابيات له يقول فيها

فقم فانف جيش الهم واكفف يد العنا
بهندية امضى من البيض والسمرِ

بهندية في اصل اظهار اكلها

الى الناس لاهندية اللون كالسمرِ

وقد قيل في هذه الشجرة الملعونة كثير من الشعر وان لم يبلغ ما قيل في اختها الخمر ويقال ان اول ما نظم فيها من الشعر قول ابي عبد الله محمد بن ابي بكر بن عبد القادر الحنفي

وخضراء كافورية بات فعلها * بالبابنا فعل الرحيق المعتقِ
اذا نفحتنا من شذاها بنفحـــة * تدب لنا في كل عضو ومنطقِ
غنيت بها عن شرب خمر معتق
وبالدلق عن لبس الحديد المزوقِ

فقال الانكليزي ما المناسبة في نسبتها الى الكافور في قوله وخضراء كافورية

فقال الشيخ ليس المراد نسبتها الى الكافور المشهور وانما اراد نسبتها الى بستان كافور وكان مشهوراً به وكان هذا البستان موجودًا بمصر قبل بناء القاهرة وتملك الدولة الفاطمية لديار مصر انشاه الامير ابو بكر محمد بن طفج الملقب بالاخشيدي فلما قدم جوهر القائد الى مصر جعل هذا البستان من داخل القاهرة وعرف ببستان كافور وقيل لهُ في الدولة الفاطمية البستان الكافوري قال بن عبد الظاهر البستان الكافوري هو الذي كان بستانًا لكافور الاخشيدي وكان كثيرًا ما يتنزه بهِ وبنيت القاهرة عنده ولم يزل الى سنة احدى وخمسين وستمائة فاختطت

البحرية والعزيزية بهِ اصطبلات وازيلت اشجاره قال ولعمري ان خرابه كان بحق فانه كان عرف بالحشيشة التي يتناولها الفقراء والتي تطلع بهِ يضرب بها المثل في الحسن قال شاعرهم ابو الحسن علي بن عبد الله الينبعي

رب ليل قطعته ونديمي
شاهدي وهو مسمعي وسميري
مجلسي مسجد وشربي من خضراء
تزهو بحسن لون نضير
قال لي صاحبي وقد فاح منها
نشرها مزريًا بنشر العبير
أمن المسك قلت ايست من المسك
ولكنها من الكافور

فلم يرد انها من الكافور وانما اراد انها من البستان المذكور ومن ذلك قول ابي المعز بن ابي الحسن بن احمد الصائغ المغربي

قم عاطني خضراء كافورية
قامت مقام سلافة الصهباء
يغدو الفقير اذا تناول درهمًا
منها لهُ تيه على الامراء

وامر السلطان الملك الصالح نجم الدين ايوب الامير جمال

الدين بن يغمور ان يمنع من يزرع في الكافوري من الحشيشة شيئًا فدخل ذات يوم فرأى فيه منها شيئًا كثيرًا فامر بأن يجمع فجمع واحرق فنظم في ذلك ابو العباس احمد بن يوسف ابياتًا مطلعها

صرف الزمان وحادث المقدور
تركا نكير الخطب غير نكير

وكان ذلك في سنة ثلاث واربعين وستمائة فهذا وجه تلقيبها بالكافورية وقد عرفت اصل تلقيبها بالهندية والحيدرية والصحيح ان هذا النبات قديم معروف من قبل الشيخ حيدر المتقدم ذكره بازمان طويلة يدل على ذلك ما نقله الاطباء في كتبهم عن بقراط وجالينوس من مزاج هذه العقار وخواصها واما حكمها في الشرع فهو التحريم لما يخدر العقل منها قال بعضهم شر سكر سكر الحشيشة وان قال من غلب على عقله هواه وهوى به الفساد الى مضيق مهواه

هي البكر لم تنكح بماء سحابة
ولا عصرت يومًا برجل ولا يدِ
ولا عبس القسيس يومًا بكاسها
ولا قربوا من دنها كل مقعدِ
ولا نص في تحريمها عند مالك
ولا حد عند الشافعي واحمدِ

ولا اثبت النعمان تخييس عينها
فخذها بجـد المشرفي المهنـدِ

قال المقريزي في الكلام عليها دع نزاهة القوم فما بلي الناس بافسد من هذه الشجرة لاخلاقهم ولقد حدثني القاضي الرئيس تاج الدين اسماعيل بن عبد الوهاب ابن الخطباء المخزومي قبل اختلاطه عن الرئيس علاء الدين بن نفيس انه سئل عن هذه الحشيشة فقال اعتبرتها فوجدتهـا تورث السفالة والرذالة وكذلك جربنا في طول عمرنا من عاناها فانه ينحط في سائر اخلاقه الى ما لا يكاد ان يبقي له من الانسانية شيئًا وقد قال ابن البيطار في كتاب المفردات ومن القنب نوع ثالث يقال له القنب الهندي ولم أره بغير مصر ويزرع في البساتين ويقال له الحشيشة عندهم ايضًا وهو يسكر جدًا اذا تناول منه الانسان قدر درهم او درهمين حتى ان من اكثر منه يخرجه الى حد الرعونة وقد استعمله قوم فاختلّت عقولهم وقد ادى بهم الحال الى الجنون وربما قتلت ورايت الفقراء يستعملونها على انحاء شتى فمنهم من يطبخ الورق طبخًا بليغًا. ويدعكه باليد دعكًا جيدًا حتى يتعجن ويعمل منه اقراصًا ومنهم من يجففه قليلاً ثم يحمصه ويفركه باليد ويخلط به قليل سمسم مقشور وسكر ويستفه ويطيل مضغه فانهم يطربون عليه ويفرحون كثيرًا وربما اسكرهم فيخرجون به الى الجنون او قريب منه وهذا ما شاهدته من فعلها قال فانظر كلام

العارف فيها واحذر من افساد بشريتك وتلاف اخلاقك باستعمالها ولقد عهدناها وما يرمى بتعاطيها الاَّ اراذل النـاس ومع ذلك فيأنفون من انتسابهم لها لما فيها من الشنعة وكان قد تتبع الامير سودون الشيخوني رحمه الله الموضع الذي يعرف بالجنينة من ارض الطبالة وباب اللوق وحكر واصل ببولاق واتلف ما هنالك من هذه الشجرة الملعونة وقبض على من كان يبتلعها من اطراف الناس ورذلائهم وعاقب على فعلها بقلع الاضراس فقلع اضراس كثير من العامة في نحو سنة ثمانين وسبعمائة وما برحت هذه الخبيثة تعد من القاذورات حتى قدم سلطان بغداد احمد بن اويس فارًا من تيمورلنك الى القاهرة في سنة خمس وتسعين وسبعمائة فتظاهر اصحابه باكلها وشنع الناس عليهم واستقبحوا ذلك من فعلهم وعابوه عليهم فلما سافر من القاهرة الى بغداد وخرج منها ثانيًا واقام بدمشق مدة تعلم اهل دمشق من اصحابه التظاهر بها وقدم الى القاهره شخص من ملاحدة العجم صنع الحشيشة بعسل خلط فيه عدة اجزاء مجففة كعرق اللفاح ونحوه وسماه العقدة وباعها بخفيفة فشاع اكلها وفشا في كثير من الناس مدة اعوام فلما كان في سنة خمس عشرة وثمانمائة شاع التجاهر بالشجرة الملعونة فظهر امرها واشتهر اكلها وارتفع الاحتشام من الكلام بها حتى لقد كادت ان تكون من تحف المترفين وبهذا السبب غلبت السفالة على الاخلاق وارتفع ستر الحياء والحشمة من بين الناس وجهروا بالسوء من

القول وتفاخروا بالمعائب وانحطوا عن كل شرف وفضيلة وتحلوا بكل ذميمة من الاخلاق ورذيلة فلولا الشكل لم تقض لهم بالانسانية ولولا الحس ما حكمت عليهم بالحيوانية وقد بدا المسخ في الشمائل والاخلاق المنذر بظهوره على الصور (انتهى المراد منه)

فقال الانكليزي وقد تكلم الافرنج ايضًا على هذه الشجرة الخبيثة واطنبوا في ذمها وذكر مضارها ومفاسدها

المسامرة الثانية والثلاثون

يوم العطلة

ثم انهم ارادوا الانصراف فطلب الانكليزي خادم المحل فأتى لهُ بورقة مكتوبة فيها اصناف ما اخذوه فدفع الثمن وارضى الخادم ثم خرجوا يتفرجون على المدينة الجديدة وازقتها وشوارعها الى ان وصلوا الى ميدان من ميادينها المعدة للفسحة فوجد الشيخ بهِ غالب اهل البلد من غني وفقير وكبير وصغير في احسن

ملا بسهم كل على قدر حاله · فقال الشيخ هل هذا اليوم عندكم يوم عيد فقال الانكليزي لا بل العادة في جميع بلادنا التفسح والتخلي عن الاشغال كل يوم في هذا الوقت واما يوم الاحد فيعطل الناس فيه اشغالهم ويخرجون بعد الظهر للتنزه فهو عندنا كيوم السبت عند اليهود ويوم الجمعة عند المسلمين غير ان عادتهم في يومهم تغيرت عما كانت عليه في صدر الاسلام فان بعضهم قد يشتغل فيه كباقي الايام ولم يبق لهُ من الاحترام الاَّ صلاة الجمعة واما اليهود فعلى اصل عادتهم لا يشتغلون في يومهم بشيء وكذلك طائفة البروتستانت من النصارى خصوصاً الانكليز لا يشتغلون بشي في يوم الاحد واظن انك لا تجد في هذه العادة باساً اذ في ذلك اليوم تتفرغ كل امة لقضاء لوازمها كل بحسبهِ فالفقير يتفرغ لقضاء لوازمه المنزلية وتنشيط قواه البدنية وتنظيف ثيابه وجسده وصاحب الوظيفه يقيم بمنزله لمؤانسة عائلته او لتتميم اشغال نفسه مما يتعسر عليه في غير هذا اليوم فضلاً عما يحصل فيه من المزايا كتزاور الاصحاب وعيادة المرضى وغير ذلك من الامور اللازمة لدوام الجمعية

فقال الشيخ نعم العادة ولكل امة عادة على حسب شرائعهم ومقتضيات احوالهم وليوم الجمعة عندنا اعمال تطلب فيه كصلاة الجمعة والاغتسال لها والتبكير لصلاتها والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فيه والصدقة والنظافة والتطيب بالروائح الحسنة

ونحو ذلك واظن ان لكل امة في يومها خواص تشبه هذه وان كان لا يحضرني الان ما هي . وقد حان وقت الطعام فقاموا وركبوا عربة ورجعوا الى مقرهم وفي اثناء الطريق قال الانكليزي للشيخ ان البوسطة الى مصر ترسل غداً وعن قريب نسافر فان كان عندك مكتوب تحب ارساله فاعطنيه لارسله مع خطاباتي

فقال الشيخ نعم اريد ان ارسل بعض كلمات للاولاد في داخل مكتوب برهان وسأكتبها ان شاء الله في اللوكاندة . قال فكيف وجدت هذه المدينة . قال حسنة لطيفة وانما ارجو منك ان تتحفني ببعض انبائها لاكون على علم بها وباحوالها

فقال الانكليزي هذا بعض ما يجب عليّ وسأقص عليك ما اعلم من امرها بعد وصولنا الى مستقرنا فلما وصلوا دخل كل منهم حجرته وازال ما بهِ من غبار الطريق وغير ما لزم تغييره ثم حضروا الى المائدة فاكلوا ثم قاموا الى حجرة الشيخ وقد حضر برهان ومعه يعقوب الذي كان اصطحب بهِ في السفينة وقد تكلم معه الانكليزي بعض كلمات ففهم منها لياقته للخدمة واتفق معه على شروط الخدمة وما يلزم اداؤه وكان فيما قاله لهُ ان برهان الدين صغير ويحتاج لدليل يدله ومرشد يرشده فاعظم واجب عليك العناية بهِ والملازمة لهُ ففرح برهان بذلك ثم ان الانكليزي قال للشيخ قد طلبت مني بعض اخبار هذه المدينة وانا متفكر

فيما القيه اذ لا يخفى انه مضى عليها قرون عديدة وما من قرن الا وتقلبت فيه حوادث لو جمعت لملأت مجلدات فكيف لو جمعت حوادث القرون كلها لكن لا يخفى ان نتيجة الحوادث في جميع البقاع والقرون متقاربة فتاريخ كل امة كتاريخ غيرها وكذا كل بلدة لا فرق في ذلك بين المدن والقرى اذ النتيجة لا تخرج عن احد شيئين خير وشر ومن الاول تكون اللذة ومن الاخر يكون الالم وتسلط الاثنين لازم لكل فرد من افراد الخليقة فلا يدوم احد على حالة واحدة وكذلك البقاع فكل حالة مقترنة بضدها

الدهر لا يبقى على حالة * لا بد ان يقبل او يدبرا
فان تلقاك بمكروهه * فاصبر فان الدهر لن يصبرا



المسامرة الثالثة والثلاثون

مرسيليا

ومن ذلك هذه المدينة واهلها فقد تقلب عليها كل من الامرين وشربت من الكاسين واعتراها من الخير وضده ما اعترى غيرها كالاسكندرية وغيرها وملخص ما اعلمه من امرها انها قبل المسيح بستمائة سنة اي قبل تاريخ الهجرة النبوية بالف ومائتين واربعين سنة تقريباً كانت لقوم يعرفون باسم ليجور او (ليغور) وكان لهم جزء عظيم من خليج ليون واغلب ارض خليج جينوا فهاجر اليها بعض الاروام اعني سكان اسيا الصغرى او الاناطول من مدينة يقال لها فوسيه محيت اثارها الان فنزلوا بهذه البقعة وسكنوها وكانت ارض فرانسا اذ ذاك لقوم يقال لهم الجلوا (او الغالية) وكان لهم ملك يقال له نانوس فطرد قوم الليغور من هذه البقعة الى ان تولى واقر مكانهم اولئك المهاجرين لمساعدتهم له واتحادهم معه فاستوطنوها واستمروا بها واخذوا في اسباب التقدم فاتسعت شهرتهم وعظمت ثروتهم فحسدهم من جاورهم وحاربوهم مرارًا ولكن لم يفوزوا منهم بطائل ثم جاءهم بعد ستين سنة جمع عظيم من

قبائلهم واهليهم فاستقبلوهم واسكنوهم معهم فزادت قوتهم وقويت شوكتهم وعمرت بلدتهم حتى فاقت على ما جاورها من البلاد واحدثوا عدة من المدن والثغور مثل نيث واونيب واتسعت دائرة تجارتهم وسارت في جميع البحار خصوصاً بمساعدة الرومانيين ثم انفردت هذه المدينة بتجارة البحر واستقلت بها عند انحطاط مدينة صور وقرطاجنة وبقي الامر على ذلك الى ان اسست القسطنطينية فاخذت منها شهرتها وتحولت التجارة اليها وذلك في حدود ثلاثمائة سنة من ظهور المسيح ومن ذلك الحين اخذت مدينة مرسيليا في الانحطاط والاضمحلال وبعد ان كانت منفردة بالشهرة في سياحة البحار والتجارة اصبحت كغيرها من الثغور آخذة في التنازل وفي تلك الايام كان امر القوم مفوضاً الى ستمائة من رجالهم يقيمون مدة حياتهم في تدبير احوال جمهورهم وكان الشرط في انتخابهم لهذه الوظيفة ان يكونوا من اهلها المولودين بها وان يكون لهم اولاد ذكور وكانت الدعاوي والقضايا مفوضة الى خمسة عشر شخصاً منهم ينظرون فيها على مقتضى قوانين موضوعة وكان بت الحكم مفوضاً لثلاثة من المعتمدين وكانت عادتهم ان تكون قوانينهم الجاري على مقتضاها فصل الدعاوي مشهورة ومعلقة بحيطان المحال الشهيرة من المدن ليتمكن كل واحد من الاهلين من الاطلاع عليها ومعرفتها بنصوصها وموضوعاتها وتلك القوانين كانت لا تخالف قوانين اليونان في شيء

وفي سنة ٤٣٦ من ظهور المسيح اي قبل الهجرة بمائتي سنة حصل لهذه المدينة من ملوك فرنسا كثير من النصب والشدة حتى انحط قدرها انحطاطاً بالغاً وبقيت الازمان الطويلة في اضمحلال وسوء حال خصوصاً لما تغلب عليها العرب في سنة ١١٧ بعد الهجرة فهدموا اكثر مبانيها واذلوا اهليها وخربوا عماراتها فصارت بهذه الاسباب في اسواء حال واخذت في التنازل الى زمن شرلماني فجعلها في حمايته من سنة ثمانمائة من الميلاد وهي سنة ١٨٤ من الهجرة فاخذت في الارتقاء والتقدم من ذاك الوقت ونمت علائقها التجارية مع غيرها واشتهرت بالسياحة في البحار كما كانت اولاً وجلبت من جهات اسيا واسبانيا اهل الصنائع والحرف وغيرهم فسكنوها فعاد اليها فخارها وشهرتها في التجارة والصناعة واستمرت على هذه الحالة الى سنة ٨٨٥ من الميلاد اعني سنة ٢٧٢ من الهجرة ثم اضيفت في هذا التاريخ الى مملكة فرانسا فقويت شوكتها وحسن امرها بمساعدة ملوك الدولة فاخذت تجارتها في النمو والتقدم حتى صارت اعظم الثغور الفرنسوية وفي سنة ١٨٠١ من الميلاد و ١٢١٦ من الهجرة كان عدد اهلها تسعين الفاً وخمسمائة فقط والان بلغ مائتين وخمسة وثلاثين الفاً اعني ان اهلها زادت في تسع وستين سنة مائة واربعة واربعين الفاً وخمسمائة فهذا دليل على تقدمها ورفاهية اهلها واعتدال هوائها فلم يكن البرد فيها شديداً جداً ويندر ان تنزل درجتها في الشتاء عن الصفر اكثر من ثماني

درجات ولا تزيد درجة حرارتها عن ست وثلاثين درجة فهي
من هذه الحيثية لا تخالف الاسكندرية من اعمال مصر الاَّ قليلاً
واما من حيثية التجارة فكل من هذين الثغرين يخرج منه من
اصناف التجارة نحو اربعمائة تونولاته (والتونولاته عبارة عن ٨٠٠
اقة تقريبًا) الاَّ ان السفن الواردة الى ثغر مرسيليا اكثر من السفن
الواردة الى ثغر الاسكندرية فان عدد ما يرد في السنة الى
مرسيليا نحو خمسة الاف وما يرد الى الاسكندرية نحو ثلاثة وفي
الايام السابقة كان المانع من زيادة تقدم مرسيليا قلة المياه العذبة
بها فكان اهلها واصحاب السفن الواردة اليها ياخذون ما يلزم
لشربهم من الماء العذب اذ ذاك من نهر صغير قريب من موضع
المدينة لكنه كان يجف في غالب اوقات السنة فكان يلحق اهل
البلد والوافدين عليها من الاغراب من ذلك ضرر عظيم ولم
يزل الحال على ذلك الى ان عمل لها خليج طوله سبعة وثمانون
الف متر بلغت مصاريفه نحو مليونين من الجنيهات المصرية فتمت
بذلك لهم اسباب الرفاهية والراحة وتلذذوا بانواع التلذذات التي
كانوا محرومين منها من قبل كالتمتع بكثرة البساتين والحدائق
وفساقي الماء في الميادين وحصل للناس من ذلك مزيد الراحة
بسبب تقسيم المياه على المنازل وايصاله الى جميع طبقاتها مع السهولة
ومن هذا الخليج جزء عظيم يبلغ طوله خمسة وعشرين الف متر يمر
في جوف الجبال من تحت الارض فلا يراه احد ومنه جزء يبلغ

طوله اربعمائة متر بوادٍ يسمى وادي دوكفاور بمر فوق عقود من البناء عالية شاهقة يبلغ ارتفاعها اثنين وثمانين مترًا وكمية الماء الوارد الى حوض التصفية الذي يقسم منه الماء على جهات البلد تبلغ في الثانية الواحدة عشرة امتار مكعبة وهي نحو مائة وست عشرة قربة من قرب مصر اعني القرب الكبيرة المعروفة في مصر بالحماري اما بالقرب الصغيرة المعروفة بالكتافي فتبلغ نحو مائتين وعشرين قربة

وبما ذكر صارت هذه المدينة الى ما تراه من العمارة والبهجة وحسن الحال

فقال الشيخ هكذا الدنيا لا تزال تتنقل فيها الاحوال ودوام الحال من المحال وقد قال تعالى وهو اصدق القائلين (وتلك الايام نداولها بين الناس) والبقاع كالناس تشقى وتسعد كما قال القائل

انى اطلعت على البقاع وجدتها

تشقى كما تشقى الرجال وتسعدُ

وما ذكرته لي بالنسبة لمرسيليا قد حصل لغيرها من المدن والقرى فلا يكاد يسلم من ذلك التبدل بلد كما انه لا يخلو من التغير والتنقل احد

هي المقادير تجري في اعنتها

فاصبر فليس لها صبر على حال

يوماً تريش خسيس القدر ترفعه

الى السماء ويوماً تخفض العالي

وقد ذكرت بما حكيت لي من تاريخ مرسيلية وتقلب حالها تاريخ الاسكندرية وتغيراتها والشيء بالشيء يذكر فان مدينة الاسكندرية ايضاً قد توالت عليها احوال كثير وتقلبات كبيرة من سعد ونحس ونعيم وبؤس فقد جرعها الدهر كؤوس صابه وشهده واذاقها من حلوه ومره وقلبها بين خصبه ومحله فما من قرن مرّ عليها الاّ وهي في حالة غير ما كانت عليه من قبله فسبحان من له الدوام والبقاء ولا يعتريه التغير والفناء

المسامرة الرابعة والثلاثون

شذرات

من تاريخ مصر والاسكندرية ومراسلة الاسكندر ودارا وارسطاطاليس

فقال الانكليزي نعم قد اصاب الاسكندرية ومصر ايضاً من ذلك ما اصاب سائر البلاد وقد نقل الينا من سير الاقدمين واخبار السالفين ان مصر قبل انشاء الاسكندرية بعدة قرون كانت في احسن حالة واوفر نعمة فكانت العلوم والصنائع بها

في اقصى درجاتها واحوال التقدم* والتمدن فيها واصلة الى غاياتها وكانت حينئذٍ اهلها في عيش رغيد وطالع سعيد وخير مزيد مشتغلين بجدهم وجهدهم في ازدياد عزهم ومجدهم والاستكثار من اسباب سعادة الحال ونماء الارزاق والاموال وما زالوا كذلك الى ان خانها الزمان فسلط عليها الفرس فاغاروا عليها تحت قيادة ملك من ملوكهم يقال له كمبيشاش او كمبيز فدمر مبانيها وغير مغانيها وخرب معابدها ومعاهدها واسر اهلها واذلهم وقهرهم وبسط فيهم يد الظلم والجور والعدوان حتى تركوا اعمالهم وتخلوا عن صنائعهم ومساعيهم واضطر كثير منهم الى الفرار والتغرب عن الديار ومن ذلك الحين اخذت مصر في التقهقر واحوالها في التغير وكان ذلك قبل مولد المسيح عليه السلام بخمسة وعشرين وخمسمائة عام وكانت قبل ذلك قبلة يؤمّها الناس من جميع الافاق لطلب العلوم والفنون والارزاق حيث كان ما عداها من البلاد في ظلمات الجهل وهي من بينها مضيئة بانوار العلم والفضل فاصبحت بعد ذلك تشكو لغيرها ما دهها وازال نعيمها ونعمها وسلبها ما كانت فيه من رغد العيشة وحرمها بسبب سطوات هذا الجبار الظالم الغدار الذي لم يكن ظلمه قاصراً على الاحياء بل تعدى ايضاً الى الاموات فاخرج اجسامهم من قبورهم فاحرقها وذرى رمادها في الهواء

وفي ذلك الوقت كانت مملكة الرومانيين في ابتداء نشأتها

واخذت مملكة الروم ايضًا في ابتداء عزها وشهرتها وهذا بسبب من هاجر اليها من المصريين الذين رحلوا عن اوطانهم فرارًا من مظالم الفرس وعدوانهم فاستوطنوا بلادهم ونقلوا اليهم كثيرًا مما كان عندهم من صنائع مصر وعلومها وفنونها وكان بمحل الاسكندرية بلد صغير في محل مرتفع على البحر يقال له راقوتي او رقوده

قال الشيخ يؤيد هذا ما قرأته في كلام بعض مؤرخي الاسلام

قال بنيت الاسكندرية غير مرة وكان اول بنائها بعد الطوفان في زمن مصرايم بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام وكان يقال لها اذ ذاك مدينة رقوده ثم بنيت بعد ذلك مرتين (اه)

قال الانكليزي أيًا ما كان هذا المحل في الازمان العتيقة فقد آل امره قبل بناء هذه المدينة الموجودة الان الى ان صار به على ما نقل الينا من علمه قرية صغيرة تعرف بالاسم المذكور يسكنها جماعة كانت تقيمهم به فراعنة مصر لمنع من يطوفون في البحار من ان ينزلوا بارضهم وكان الفراعنة يكرهون الملاحة واهلها كراهة شديدة ولذلك اقاموا هولاء المحافظين بهذا المحل لمنع من عساه يريد النزول به ممن يحب الملاحة وكان المحافظون الذين يمنعون هذا المحل من اعراب البادية النازلين في الصحراء خلف الجبل الغربي فان هذا المحل كان منقطعًا عن الناس بعيدًا عن العمارة مجردًا عن المزارع والمراعي فلم يكن يرضى بسكناه غيرهم

وقال بعض المؤرخين كانت راقوتي هذه جعلت في قديم الزمان محطة عسكرية لمنع اليونان من دخول مصر وكانت الفراعنة قد اعدت ما جاورها من الارض لرعي الماشية واقامة الرعاة بها لاعانة العسكر عند الحاجة اه . ثم لم يزل ظلم الفرس بمصر حتى كثرت بها الفتن وتوالت عليها المحن ونزع كثير من اهلها ايديهم عن الطاعة والانقياد وفزعوا للسلاح واستعدوا للحرب فنشب الشر بين الفريقين وحصل من ذلك مصائب كثيرة وخطوب عظيمة اضر امرها باهل البلاد واضعفت الحكومة ووهنت قواها ومنه نشأ تمزق اجزائها وتفرق كلمتها وتبع ذلك غلبة الروم في جهسات متعددة انتصروا فيها فكان في ذلك ازدياد شهرتهم وقوة كلمتهم وانتصــار العلم على الجهل بنصرتهم ولكنهم جرت عليهم عادات الايام في تنقلها وتداولها بين الناس وتحولها فتقهقروا بعد تقدمهم حتى غلبة المقدونيين ومن ذلك الوقت اتسع صيت المقدونيين وعظمت دولتهم وقويت شوكتهم وصولتهم بظهور الاسكندر الاكبر بين اظهرهم فجاب بهم الاسكندر بلاد الفرس وتسلط عليهم ودوخهم واستولى على ممالكهم في مدة دارا ملكهم ودخلت مصر تحت قبضته وكان ذلك في سنة ٣٣٢ قبل الميلاد اي بعد مرور قرنين من استيلاء كمبيشاش على مصر وقد قرأت في بعض الكتب العربية بعض مكاتبــات ظريفة دارت بين دارا والاسكندر وبين الاسكندر وارسطاطاليس في ذلك قد شذ عني عبارتهــا وكنت

اود لو كان عندي صورتها فهل في حفظك ايها الاستاذ شيء منها

فقال الشيخ نعم قرأت في بعض التواريخ ان الاسكندر لما ولي مكان ابيه قطع ما كان يرسله ابوه كل سنة الى ملك الفرس من القطيعة ويقال انها كانت الف بيضة من الذهب فلما قطعها كتب اليه دارا يتهدده وبعث اليه بكرة وصولجان وخرقة فيها سمسم وقال لهُ انت صبي فالعب بهذه الكرة فان اديت الاتاوة والا بعثت اليك بجنود عدد هذا السمسم واتيت بك في الوثاق

فكتب اليه الاسكندر

اما بعد فقد تيمنت بالكرة والصولجان فان الدنيا مثل الكرة وسألعب بها واضيف ملكك الى ملكي واما السمسم فقد تيمنت ايضاً بهِ لانه بعيد عن الحرافة والمرارة واما البيض فان الدجاجة التي كانت تبيض قد ذبحتها واكلت لحمها فغضب دارا وسار اليه بجموعه وسار الاسكندر بجموعه فالتقيا على نَصيبِين فلما همّ دارا بالقتال بعث اليه الاسكندر بنصحه ويقول لهُ ايها الملك لا تفعل فان دماء الملوك لا تجوز اراقتها وهدم البيوت القديمة غير محمود والبغي ذميم العقبى والحرب غير مأمون العاقبة واصحابك قد ملوك وكرهوك لسوء سيرتك فارجع

فانك تحمد قولي فلم يلتفت اليه دارا واقاما يتحاربان مدة ثم ان الاسكندر دبر حيلة وهو انه لما وقع الملل بين الفريقين برز منادي الاسكندر فقال يا معشر الفرس قد علمتم ما كان من مكاتبتكم لنا ومكاتبتنا لكم من الامان وقد طال القتال فمن كان منكم على غير قتال فليعتزل وله الوفاء بالعهد فاتهمت الفرس بعضها بعضاً واضطربوا فكان من اسباب خذلان دارا ثم وثب على دارا رجلان من اصحابه فطعناه من خلفه وكان الاسكندر نادى من ظفر بدارا فلا يقتله فجاء بهِ الرجلان الى الاسكندر فنزل عن فرسه وقعد عند رأس دارا وبهِ رمق فقال والله ما هممت بقتلك ولقد نهيت عنه واني ليعز عليّ مصابك فاسألني حوائجك فقال تقتل فلانًا وفلانًا اللذين قتلاني فاني كنت محسنًا لهما فقال سمعًا وطاعة واحضر الرجلين فقتلها وقال هذا جزاء من يجرأ على ملكه وتفرق ملك فارس ثم صار الاسكندر الى بابل وجلس على سرير دارا واستولى على خزائنه وجواهره وسلاحه وشرع في هدم بيوت النيران وقتل الموابذة

وكتب الى استاذه ارسطاطاليس يستشيره فيمن بقي من عظماء الفرس بما معناه

اما بعد فان دوائر الاسباب ومواقع الفلك وان كانت

اسعدتنا بالامور التي اصبح لنا بها الناس دائنين فانا مضطرون الى حكمك وغير جاحدين لفضلك والاجتباء لرايك لما بلونا من جدى ذلك علينا وذقنا من جنى منفعته حتى صار ذلك بتجرعه فينا وترشيحه لعقولنا كالغذاء لنا فما ننفك نعول عليه ونستمد منه استمداد الجداول من البحار وقوة الاشكال بالاشكال وقد كان فيما سبق الينا من النصر وبلغناه من النكاية بالعدوّ ما يعجز القول عن وصفه والشكر على الانعام به وكان من ذلك ان جاوزنا ارض الجزيرة وبابل الى ارض فارس فلما نزلنا باهلها لم يكن ريثما تلقانا نفران منهم بقتل ملكهم طلبًا للحظوة عندنا فامرنا بصلبهما لتجرّهما وقلة وفائهما ثم امرنا بجمع من هناك من ابناء ملوكهم وذوي الشرف منهم فرأينا رجالاً عظيمة اجسامهم واحلامهم بدل ما ظهر من رؤيتهم على ان وراه من قوة بأسهم ما لم يكن معه سبيل الى غلبتهم لولا ان القضاء ادالنا منهم ولم نرَ بعيدًا من الراي ان نستأصل شافتهم ونلحقهم بمن مضى من اسلافهم لتسكن بذلك القلوب الى الامن من جرائرهم ورأينا ان لا نعجل ببادرة الراي في قتلهم دون الاستظهار بمشورتك فيهم فارفع الينا رايك فيما استشرناك بعد صحته عندك وتقليبه على نظرك على عادة ارائك المسعفة والسلام على اهل السلام فليكن عليك وعلينا

فكتب اليه ارسطاطاليس
المؤيد المهدي لهُ الظفر من اصغر خولهِ ارسطاطاليس

اما بعد فقد تقرر عندي من مقدمات فضل الملك ويمن نقيبته وبروز شأوه وما ادى الى حاسة بصري صورة شخصه ووقع في فكري على تعقب رايه ايام كنت اودّي اليه من تعليمي اياه ما اصبحت قاضياً على نفسي بالحاجة الى تعلمه منه وقد ورد كتاب الملك بما رسم لي فيه وانا فيما اشير بهِ على الملك كالعدم مع الوجود ولكني غير ممتنع من اجابته

فاقول ان لكل تربة لا محالة قسما من كل فضيلة وان لفارس قسمتها من النجدة والقوة وانك ان تقتل اشرافهم تخلف الوضعاء منهم وترث سفلتهم منازل عليتهم وتغلب ادنياؤهم على مراتب ذوي اخطارهم ولم يبتل الملوك قط ببلاء هو اعظم عليهم من غلبة السفلة وذل الوجوه واحذر الحذر كله ان تمكّن تلك الطبقة من العلية فان نجم منهم ناجم على جندك واهل بلادك دهمهم ما لا رويّة فيه ولا منفعة معه فانصرف عن هذا الراي الى غيره واعمد الى من قبلك من العظماء والاحرار فوزع بينهم مملكتهم والزم اسم الملك كل من وليته منهم ناحية واعقد التاج على راسه وان صغر ملكه فان التسمي بالملك لازم لاسمه والمنعقد له لتاج

لا يخضع لغيره ولا يلبث ذلك ان يوقع بين كل ملك منهم وبين صاحبه تدابرًا وتغالبًا على الملك وتفاخرًا بالمال حتى ينسوا بذلك اضغانهم عليك ويعود بذلك حربهم لك حربًا بينهم ثم لا يزدادوا في ذلك نصرة الاّ احدثوا هنالك استعانة بك فان دنوت منهم كانوا لك وان نأيت عنهم تعززوا بك حتى يثب كل منهم على جاره باسمك وفي ذلك شاغل لهم عنك وامان لاحداثهم بعدك ولا امان للدهر وقد اديت للملك ما رايته حظًا وعليّ حقًا والملك ابعد رويّة واعلى عينًا فيما استعان بي عليه والسلام الابدي على اهل السلام فليكن على الملك . اه . قال الشيخ فهذا ما علق بخاطري من ترجمة تلك المكاتبات فهل تعلم كيف كان بناء هذا الثغر وسببه

قال الانكليزي يقال ان الاسكندر لما استولى على ارض مصر في جملة ما دخل تحت حوزته من الممالك اخذ يدبر فكره فيما يأتي له بواسطته ارتباط علائق المعاملة بين الامم المختلفة التي استولى عليها في جهات متفرقة من الارض فراى انه لا بد له من اتخاذ مركز معين تتحد به علائق هذه الامم ورأى ان يكون هذا المركز بساحل البحر المتوسط اعني بحر الروم فاختار لذلك محل رقوده المتقدم ذكره فبنى به الاسكندرية ووسمها باسم نفسه رغبة في تخليد ذكره وان يبقى اسمه ببقائها ويذكر كلما ذكر اسمها

ولما انشأها جعل تقسيم الدور والازقة بها على حسب وضع

ارضها فكانت على شكل البرنُس المقدوني وكان يشقها شارعان عظيمان متقاطعان احدهما يشقها من الشرق الى الغرب طوله فرسخ وفي احد طرفيه باب كانوب وهو مضاف الى اسم مدينة كان الى جهتها وهي التي يقال لها الان ابو قير وفي الطرف الاخر باب نكروبوليس وهذه كلمة يونانية بمعنى المقبرة والشارع الثاني يشقها شمالاً وجنوباً وطوله ثلث فرسخ وفي احد طرفيه باب الشمس على البحيرة وفي الطرف الاخر باب القمر على المينا وكانت سعة كل من هذين الشارعين مائة قدم وعندهما كانت المعابد والهياكل والمباني الفاخرة والعمارات العظيمة وكانت المدينة منقسمة اربعة ارباع اعظمها واهمها الربع الذي كان بين الشارع الكبير والبحر وكان فيه المدفن الذي كان يسمى صوما وبهِ اودعت جثة الاسكندر حين مات فوضعت في تابوت من الذهب ودفنت فيه ومحله الان تل يعرف بكوم الديماس وكان فيه ايضاً دار الكتب (الكتبخانة) العظمى وبيت التحف ودار الملوك والملعب وكان هناك قطعتان من الصخر عظيمتان من الاحجار المعروفة بالمسلات من اقدم الاثار المصرية وهما باقيتان الى الان وقد وقعت احداهما ولم تزل الثانية قايمة بمكانها ويسميها الناس مسلة كلوبطرة ومسلة فرعون وفي محل رقوده القديمة (السيرابيوم) وهو مدفن الحيوانات التي كانت مقدسة في دينهم وهناك عمود سوير وهو مضاف الى اسم الملك سوير الروماني الذي وضعه ويعرف عند الافرنج

بعمود بومبيوس وهو قائد روماني مشهور وهذا العمود هو الذي يقال لهُ عندكم عمود السواري ولعل لفظة السواري هذه من لفظة سوير المذكورة

وفي غربي اسكندرية اعني جهة باب العرب والقباري يرى الانسان ابوابًا منحوتة في الصخر وهي ابواب قبور ومعابد للنصارى استحدثوها عند ظهور الديانة النصرانية ولما كان موضع الاسكندرية بعيدًا عن مجرى النيل ليس بهِ من الماء العذب ما يستطاب للشرب جعل لها خليج يتصل بالنيل ويوصل اليها ماءه في اوان ارتفاعه وقد جعل فيها صهاريج واسعة يخزن فيها الماء لاوان انحطاط النيل ولم يكن على ساحل بحر الروم مينا اعظم سعة من مينا الاسكندرية فانها تكفي كثيرًا من المراكب ويمكن ان يكون فيها مائتان وخمسون سفينة وعند اتصالها بالبحر سلسلة من الصخر تمتد من الشمال الشرقي من عند الصخرة القائم فوقها المنار المعروف بالفنار الى الجنوب الغربي حتى تنتهي الى جزيرة المرابط وهي مغطاة بالماء تضرب فوقها الامواج وفي طول هذه المسافة ثلاثة مداخل تعرف بالبوغازات تمر منها السفن الواردة والصادرة اولها البوغاز الشرقي وهو منحصر بين صخرتين احداها الى جهة الشرق وتسمى الجوانية والثانية الى جهة الغرب وتسمى صخرة الحوت وعرضه نحو اربعة الاف متر وعمق مائهِ نحو ستة امتار وبعده البوغاز المتوسط ثم القبلي وكانت هذه المينا في القديم

متصلة بالمينا الشرقية المعروفة بالمينا القديمة وكان بينها جسر يمتد من راس التين الى المدينة وكانت السفن تنتقل من احداها الى المينا الاخرى من فتحات كانت في ذلك الجسر وقد تحجرت الان تلك المينا القديمة وصارت غير صالحة لوقاية السفن والامن عليها فلا يوجد بها الان الاَّ قليل من السفن الصغيرة ويشاهد الفنار السالف ذكره لاهل السفينة في لجة البحر على بعد عشرين ميلاً منه فاذا رأوه احترسوا على سفنهم من ان تقع على الصخور التي عند ساحل البحر ولهذا الغرض جعل هذا الفنار لا للدلالة على مدخل المينا كما هو الشأن في غيره من امثاله في سائر المالك وانما يكون الدخول الى المينا من البوغازات المذكورة بدلالة جماعة من اهل الاسكندرية يعرفون برؤساء البوغاز يأتي احدهم للسفينة وهي مسافرة فيلزمها بالارشاد والدلالة حتى تخرج الى متسع البحر وكذلك وهي داخلة حتى تلقي المراسي وهذه عادة جارية من قديم الزمان لكثرة ما في البوغاز من الاعوجاجات والصخور المعترضة في اثنائه

ولما انشأ الاسكندر هذه المدينة استوطنها ونقل مقر السلطنة اليها وكان قبل بمدينة منف القديمة التي يقال انها اول مدينة عمرت بعد الطوفان وقد خربت وبني عند اطلالها قرية يقال لها ميت رهينة عند مدينة الجيزة ومدينة منف هذه من اشهر المدن القديمة ذكراً واعظمها فخراً وكثيرا مّا ذكرت في الكتب الافرنجية

ولم تخلُ ايضاً من ذكرها الكتب العربية

قال الشيخ هي كما ذكرت عظماً وشهرةً وقدماً وقد زعم بعض المؤرخين ان كلمة منف في اللغة القبطية بمعنى ثلاثين وان سبب تسميتها بذلك هو ان بيصر بن حام بن نوح عليه السلام خلف ثلاثين نفساً منهم اربعة ذكور وهم مصرايم وفارق وماج وياج فتزوجوا وتناسلوا وكثروا وكان مصرايم اكبرهم وكانوا قبل بناء منف يسكنون بسفح المقطم فلما بنوها انتقلوا اليها وسكنوها وسميت بهذا الاسم بعددهم كذا زعم ولكني سمعت من بعض من يعرف علم اللسان المصري القديم ان لفظة منف اصلها باللسان المذكور (منّفر) وهي مركبة من كلمتين احداهما من ومعناها المحل والثانية (نفر) ومعناها العظيم او الخصب فركب اللفظان تركيباً مزجياً وجعل مجموعها على هذه المدينة وكان يقال لها عند اليونانيين منفيس ثم قيل لها منف وكانت مقر الفراعنــة من قديم الزمان فكانت من اعظم المدن المصرية ابهة ورونقاً وسعة حتى قيل انهــا كان لها سبعون باباً من الحديد والصفر وكانت الانهار تجري من تحت منازلها واقنيتها فيحبسون الماء كيف شاءوا ويرسلونه كما ارادوا قيل وفي ذلك يقول الله جل ذكره حكاية لقول فرعون (أليس لي ملك مصر وهذه الانهار تجري من تحتي افــلا تبصرون

فقال الانكليزي قد بقيت هذه المدينة على ما ذكرت انها

الاستاذ من عظمها وفخرها ورفعت قدرها حتى انتقل تخت السلطنة الى الاسكندرية فهرع الناس اليها وكثرت عمارتها وانحط من قدر منف وغزها وابهتها بقدر ما زاد في عز الاسكندرية ورونقها واستوطن الروم في مدة الاسكندر مدينته هذه الاسكندرية فكانوا اكثر سكانها اذ كان منهم معظم جنوده وغالب رجاله ثم كثر عددهم في مدة من خلفه من البطالسة حتى دخلوا جميع بلاد مصر ولم تخرج البطالسة في ايامهم عن النهج الذي نهجه لهم الاسكندر من عدم التعرض لاهل البلاد التي دخلت تحت طاعته في شيء من عاداتهم وما هم عليه وكان اول هذه البطالسة بطليموس لاغوس فلما ولي الحكومة بعد الاسكندر سنة ٣٢٤ قبل الميلاد سار في المملكة سيرة حسنة ورتب امورها ترتيبًا عاد عليها بعظم الفائدة واستوجب لاهل البلاد ومن عنده من الاغراب مزيد الامن والاطمئنان على ما بأيديهم من الاملاك والاموال مضافًا ذلك الى امنهم على الانفس والاهل والعيال فعمت الامنية وكثرة العمارة والثروة والمدنية وكان بطليموس لاغوس المذكور محبًا للعلم واهله مجدًا في تعليمه وتعميمه فانشأ في الاسكندرية مدرسة عظيمة شاع صيتها بين العباد فقصدها الناس من اقاصي البلاد وجعل فيها خزانة للتحف جمع اليها ما قدر عليه من النوادر والطرف وانشأ بها دار كتب عظيمة جعل فيها قدرًا وافرًا من الكتب النفيسة مما جمعه من اكثر المعابد المصرية وما غنمه من

البلاد التي اغار عليها وحاربها فصارت من احسن خزائن الكتب واعظمها واشهرها ومن كثرة رعايته للرعية وتمسكه بالعدل والانصاف في ايامه ومجانبته للظلم والحيف في احكامه كثرت البركة في محصول الارض واتسعت دائرة الزراعة والتجارة وكثرة الارزاق والمكاسب ثم لما قضى نحبه وخلفه في الحكومة ولده سار سيرته في الرعية فكثرت العمارة والتجارة وصارت الاسكندرية مقصداً لجميع التجار يقصدونها من المشرق والمغرب فكان يرد اليها التجار من الهند وبلاد المغرب وآسيا وبلاد الصين وجزائر البحر المحيط والبحر الاحمر وسواحل بحر الروم والبحر الاسود وغيرها ومنها تنفرق البضائع وتوزع على جميع البلاد في معمورة الارض فكانت الاسكندرية في تلك الاوقات منفردة في ذلك لا يشاركها فيه غيرها ونقل اليها من الاثار القديمة والتحف العظيمة من مصر وغيرها كل غريب وعجيب وجمع لها المعلمون والاحبار من جميع الاقطار فصار اهلها قدوة للناس في العلم والفخار وصارت مركز التجارة لجميع التجار الاان من ولي الحكومة من البطالسة بعد بطليموس الاول وابنه لم يسيروا سيرتهما فحدث في ايامهم الظلم والجور والاجحاف والغدر فهاجر كثير من الناس من ارض مصر الى غيرها من البلاد فراراً من ظلمهم وبغيهم ووقع باسهم بينهم ايضاً فاكثروا من سفك دماء بعضهم فكانت الاسكندرية في كثير من ايامهم عرضة للمحنة والفتنة

وأدى طول نزاعهم ومغالبهم لبعضهم الى ان التجأ بعضهم الى الرومانيين فتوسطوا بينهم في امورهم ودخلوا بينهم حتى آل امرهم الى أن تمكنوا من مصر وطردوا منها البطالسة واستولوا عليها وذلك قبل الميلاد بثلاثين سنة فانزلوها عن درجتها وسلبوها ثوب نعمتها وجعلوها احدى مدنهم واضافوها مع باقي مملكة مصر الى متسع ملكهم فاخذ قطر مصر من ذلك الوقت في الانحطاط عما كان عليه من درجات العز والفخر وصاروا يحتقرون اهلها ويؤخرونهم ويقدمون غيرهم عليهم ولا ينظرون بعين العناية والرعاية اليهم فنشأ من ذلك فتن كثيرة ادت الى حروب متتابعة سفكت فيها دماء كثير من العباد وخرب بسببها اكثر البلاد حتى امتدت يد التعدي الى دار كتبها العظيمة فاتلفت معظم كتبها ودرست شهرت مدرستها التي كانت وحيدة المدارس في تلك الايام واخذ العلم في التقهقر خصوصاً عند انقسام مملكة الرومانيين الى مملكتين شرقية وغربية وكان تخت المملكة الشرقية استانبول وتخت المملكة الغربية روما وصارت مصر في هذه القسمة تابعة لمملكة المشرق وذلك في حدود ثلاثمائة واربعة وستين بعد الميلاد وفي ذلك الوقت كانت درجة مدينة الاسكندرية في التجارة والعمارة تلي درجة رومة التي هي تخت المملكة الغربية من المملكتين الرومانيتين وفي هذا العصر اخذت الديانة العيسوية في الظهور وتصدى لنشرها قياصرة الروم وقومهم ولكون هذه الديانة ظهرت

بقرب ارض مصر دخلتها من غير معارض ولا مانع فنشاء بها عدة كنائس وديور وظهر بها عدة من البطارقة والاساقفة المشهورين وجعلوها محلاً لجميع اعمالهم الدينية ومظهرًا لاقوالهم الخلافية فقامت بينهم نار الشقاق وانقطعت باختلافهم حبال الوفاق ودخلت الحكام بينهم في تلك الامور ولم يكن في العادة من شانهم الدخول في مثلها وترتب على الاختلال وفساد الاحوال ان غنمت هذه الفرصة الملكة زنوبية المتسلطنة وقتئذٍ على مملكة تدمر التي كانت مقر سليمان عليه السلام في قديم الايام وهي في صحاري الشام فاغارت هذه الملكة على مصر بجنودها واستولت على سرير الاسكندرية وذلك قبل الهجرة بنحو خمسين وثلثمائة سنة ولكن لم تلبث قليلاً ان طردت منها ثم امدّتها مملكة تدمر بالعساكر والذخائر فارادت الرجوع الى مصر لاخذها ثاني مرة وكان ذلك في زمن القيصر ادريانوس فسار اليها من رومة فكسرها واسرها وبقيت مصر في قبضة الرومانيين كما كانت وفي مدة هذا القيصر حصل في مصر بعض اصلاح لامورها وتنظيم لاحوالها ولكن لم تلبث ان جر اليها طمع من ولوا من قبل القياصرة عليها بعض مصائب عظيمة وخطوب جسيمة اضرت بمصر واهلها ولا سيما اسكندرية فانها عادت بكثير المضرة عليها وعلى من فيها واخلت بتجارتها فاعتراها من هذه التقلبات الضعف العام وزال عنها رونقها فهاجر منها الى الروم كثير ممن كانت تفتخر بهم من اهل العلم والثروة ولكن

بقي بها بقايا منهم كبطليموس الفلكي الشهير وديوكانت وسورابوس وغليان فحفظوا ما بقي عن الاوائل من آثار العلم والفنون ولولاهم ما عثر المتاخرون بشيء من اثار المتقدمين وامتدت هذه الاحوال مدة مأتين وسبعين سنة لم تزد فيها الاسكندرية الاَّ تقهقرًا وتاخرًا ومع كل هذا كانت مملكة الروم الشرقية الملحقة بها الاسكندرية احسن حالاً من المملكة الغربية فان شدة الجور والظلم والفجور والقسوة في المملكة الغربية المذكورة كانت اكثر وادهى وامر ولذلك قام اهل تلك الجهة على ملوكهم مرارًا وما من مرة منها الاَّ صرفت فيها المملكة اموالاً عظيمة وسفكت فيها دماء كثيرة من غيران يحصل من ذلك كله ادنى فائدة بل كان عاقبة كل مرة منها زيادة ضعف الاهلين واضمحلالهم وسوء احوالهم وفي تلك المدة كثرت المنافسات الدينية واتسع الخلاف بين اهل الديانة النصرانية وكثرت الديور بجهات الاسكندرية وما جاورها وانقطع بها كثير من المترهبين الذين هاجروا الى مصر فرارًا من جور حكام البلاد الاخرى لكنهم لبغضهم لدين من تقدم من المصريين هدموا مبانيهم القديمة وهياكلهم الجسيمة وخربوا الكثير من البلاد وهدروا دم من كان بها من العباد حتى اننا لو نسبنا ما فعله ملك العجم وخلفاؤه بمصر واهلها لم يبلغ معشار ما فعله النصارى بها وبهذه الافعال الشنيعة تغيرت احوال الامة وتحولت عن بعض عاداتها وطباعها ومعتقداتها وكرهت الروم والرومانيين وتمنت

انقضاء حكومتهم وزوال نعمتهم واستمر الحال على ذلك الى سنة ٦٤٣ من الميلاد وهي سنة ٢٢ من الهجرة فجاءت جيوش امير المؤمنين عمر بن الخطاب يقودها عمرو بن العاص فحاصر الاسكندرية اربعة عشر شهرًا ثم افتتحها ودخلها بمن معه من العسكر وضرب على اهلها الجزية فرحل عنها كثير من الاغراب الى بلادهم وانتقل بعضهم الى مدينة مصر التي اتخذها المسلمون قاعدة المملكة وعاصمة البلاد وسموها الفسطاط وهي في موضع بابلون القديمة ومن اثارها التلال الكثيرة الموجودة الى الان بين العيون وباب السيدة وسور القاهرة فكان كلما اخذت مدينة الفسطاط في الشهرة اخذت مدينة الاسكندرية في الخمول والاتضاع وصارت تتلاشى تجارتها ويفارقها اهلها ويضمحل حالها بعد ان كانت اعظم مدينة في هذه الديار ومركزًا لتجارة جميع الاقطار ثم صارت كل سنة تتاخر وتتقهقر واستمرت على ذلك قرونًا عديدة ومددًا مديدة فلما كانت سنة ١١٦٧ من الميلاد وهي سنة ٥٦٣ من الهجرة هجم عليها الفرنسيس واستولوا عليها ودخلوها ولكنهم لم يلبثوا بها الاّ زمنًا قليلاً ونهض لاستخلاصها من ايديهم الملك الناصر صلاح الدين فاخلاها منهم واجلاهم عنها واستردها الى الاسلام سنة ٥٦٤ كما كانت

وفي سنة ٥٩٩ من الهجرة استولى عليها الجنويون وفي مدتهم حصل بعض رواج في التجارة وتقدم في العمارة وصارت تتوارد

عليها الاغراب وتسكنها التجار ثم تخلصت منهم ووقعت في يد ملك فرس سنة ٦٤٨ من الهجرة حين كان الملك لويز التاسع إسيرًا بمصر وكان يتكلم مع سلطانها في تعيين ما يفدي به نفسه من الاسر ويقال ان ملك فرس لما استولى عليها هدم مبانيها وسلب اموالها ثم لم تقم من هذه الورطة حتى وقعت في ادهى منها واعظم فان الفرنسيس اغاروا عليها في سنة ١٣٦٧ من الميلاد وهي سنة ٧٦٩ من الهجرة ثم خرجت من ايديهم ولكنها لم تخرج من سوء الحال ونكد الدنيا وحوادث الدهر فانها كانت عرضة لظلم المماليك الذين كانوا حاكمين في مصر

فقال الشيخ ان كل ما حصل فيها من التقلبات الكثيرة والاحوال العسيرة لا يصل الى ما اصابها في مدة المماليك الذين استولوا على الحكومة بعد انقضاء دولة الفاطميين ودولة صلاح الدين وذريته فان بعض من ولي السلطنة من اعقابه اتخذوا منهم خدمًا وعسكرًا وجعلوا منهم معظم رجالهم فكانوا يقدمونهم على غيرهم من المستحقين حتى استحوذوا على رتب عالية ومناصب جليلة ليسوا لها باهل فمن شدة غيهم وسوء بغيهم داخلهم الطمع في ملك ساداتهم فزاحموهم في حكومتهم واحتقروهم واخرجوهم عن سلطنة اجدادهم واغتصبوها لانفسهم فتأسست سلطنتهم وامتدت زمانًا كثر فيها الظلم والجور والفساد فكانت مصر في ايامهم كسفينة في طوفان او جيش احاط به العدو من كل مكان وانقطع ذكر الاسكندرية

وشهرتها وتناقصت كثيرًا عمارتها ولكنها لم تنقطع بالكلية تجارتهـا فكان يأتي من البلاد الافرنجية بعض بضائع الاّ انها كانت قليلة لعدم اعتناء الحكام بما يوجب الامن على التجارة وانضم الى ذلك ما ضرب عليها من المكوس والجمارك على غير قاعدة مضبوطة ولا قانون منتظم فلم يزل يتناقص الوارد من البلاد الافرنجية بحر الروم وهكذا كان الوارد من جهة البحر الاحمر يتناقص حتى يتنازل الى قدر يسير ولكنها مع كل ما ذكر كانت حين دخلها عبد اللطيف البغدادي المؤرخ الشهير في سنة ٧٨٥ من الهجرة قد بقيت فيها بقية ولم تضمحل بالمرة فرأى بها ما حكاه من اثار العمارة ووجد اهلها مشتغلين بالاخذ والاعطاء والتجارة

وهذه كانت حالها حين استولى عليها السلطان سليم سنة ٩٢٣ من الهجرة ثم اخذت بعد ذلك تفقد بقايا ما كان لها من الصيت والشهرة والتجارة والعمارة بما كان يتوالى عليها من ظلم المماليك واتباعهم واشياعهم فكانت تجارتها وعمارتها كل يوم تنقص عما قبله ولم تزل تتقهقر واحوالها تتغير الى ان جعلت كالسجن لمن يغضب عليهم الباشا بمدينة القاهرة ويرسلهم اليها

ثم اغار عليها نابليون بونابارت بجنود الفرنسوية سنة ١٢١٣ من الهجرة فدخلوها واستولوا عليها ولكنهم لم تطل بها مدتهم فخرجت من يدهم ولكنها عادت لما كانت عليه من الظلم والشر وفساد الاحوال حتى اختل امرها وضجر اهلها لكثرة تعدي حكامها

عليهم وظلمهم لهم فتركوا اسباب الكسب والثروة والتقدم واعرضوا عن العلوم والفنون فكثر الخراب بمصر واعمالها وهاجر منها من تخلص من ايديهم من اهلها ووقعت العداوة والبغضاء بين هولاء الحكام ايضاً كما وقعت بين الاهالي وبينهم وكثرت ما بينهم الفتن والمحن والشرور وكثر قتالهم لبعضهم وعاد ذلك بزيادة الخراب للبلاد والضرر لاهلها فما كان يرى السائر بها الاَّ ما يسوُءه ويحزنه من سوء اثارهم وقبيح اطوارهم فكم من اثر قديم اعدموه وقصر مشيد هدموه وارض صالحة افسدوها وبلدة عامرة اصبحت خراباً وكانت حارات القاهرة في ايامهم ميادين لفتنهم وقتالهم وصدور الاهالي اغراضاً لنبالهم فعظم الشر واشتد الامر ولم يزل الحال على هذا المنوال الى ان قيض الله لهذه البلاد دولة افندينا الاكبر محمد علي المرحوم اول هذه الدولة الخديوية فشمر عن ساعد الجد والاهتمام في عمارة ما خرب منها واعادة ما نزح من العلم والمعرفة عنها واخذت الاسكندرية من ذلك قسطها كغيرها من البلاد فحسن امرها وكثر سكانها وزادت تجارتها زيادة عظيمة بعد ان كانت تلاشت واضمحلت فان التجارة ايضاً يعتريها ما يعتري السياسة والادارة والعمارة من التنقل والتبدل والتحول

فقال الانكليزي نعم هذا صحيح لا مرآء فيه فكل الناس الان يشهدون لمحمد علي المرحوم بما ابداه من الهمم العالية في اعادته لمصر ما كانت فقدته قبيل ايامه من حركة التجارة فانها قبله كانت

كما ذكرتم قد اضمحلت تجارتها وتلاشت بالكلية وكادت تكون كما كانت عليه في الاعصار العتيقة المتقادمة العهد فانها في اوائل الزمان كانت تجارتها داخلية منحصرة بين اهلها لا حظ فيها للاجانب فكانت مسدودة عليهم لا يدخلونها بشي من التجارة واول فتح ابوابها لتعاطي التجارة الخارجية ودخول تجار الاجانب ومعاملتهم كان في عهد فرعونها المسمى ايساماينكوس فانه اول من رخص للاغراب في دخول مصر والاختلاط باهلها وذلك قبل الميلاد بستمائة وست وخمسين سنة وكانوا من قبل لا يؤذن لهم بدخولها فلما فتح بابها للاجانب اخذوا يتواردون من كل جهة عليها وينسلون من كل حدب اليها فاتسعت بها دائرة التجارة وازدادت اسباب الثروة وكانت الامة الكنعانية هي المتسلطة على التجارة في تلك الحقبة كما هو شان الانكليز الان وبقي الامر على ذلك الى دخول الفرس مصر فدخل معهم الفقر والقلة وزال الامن لشدة الظلم والجور فاخذت التجارة في الانحطاط والتقهقر ولم تزل كذلك الى وقت البطالسة ففتحوا لها طرقًا جديدة وروابط متينة فاتسعت اتساعًا عظيمًا امتدت شهرته في افاق البلاد فهرعت لها الناس من كل واد وصارت مينا الاسكندرية مركزًا عظيمًا للتجارة يرد اليه محصول الجهات القريبة والبعيدة من كل جانب فزادت عمارتها بهذا السبب وكثر سكانها حتى بلغ عدد اهلها نحو ثلثمائة الف نسمة ولا مبالغة في ذلك فقد نقل انه كان فيها حين افتتحها

المسلمون اربعة الاف من الحمامات ونحو اثنى عشر الف نفس من باعة الخضراوات ولم تزل يزداد حسن حالها وتنتقل في درجات الثروة واليسار والعز والفخار الى سنة ١٤٩٢ من الميلاد وهي سنة ٩٠٣ من الهجرة

وفي التاريخ المذكور عرف الناس طريق راس العشم الصالح فسلكته السفن التجارية الى الهند بعد ان كانت تمر من مصر فاخذت التجارة بعد ذلك تتناقص في الاسكندرية وتتاخر وصارت احوالها تتغير وتتقهقر الى ان جاءت دولة محمد علي الاكبر فصارت تتراجع اليها التجارة وتزداد وتكثر وذلك بما حصل في مدته ومدة من خلفه من عائلته على الحكومة من تسهيل النقل وتأمين الطرق واستمالة قلوب الاجانب فاتسعت بها موارد الثروة واليسار وقصدتها التجار من جميع الاقطار فازدادت التجارة والعمارة بها ازديادًا عظيمًا وبلغت مبلغًا جسيمًا حتى بلغ عدد سكانها الان نحو مائتي الف نفس فيهم نحو اربعين الفًا من الافرنج وكان عدد سكانها حين استولى عليها نحو ثمانية الاف نفس

وقد بلغت قيمة الوارد والصادر من البضائع في مينا الاسكندرية سنة ١٢٧٣ من الهجرة نحو ستة ملايين وسبعمائة وعشرين الف جنيه ومعظم ذلك مع الانكليز فان اكثر التجارة في مصر الان بيدهم وكانت قبلهم مع الجنويين في مدة المماليك وقبل ذلك مع الكنعانيين كما مر ذكره

ومما اوجب كثرة التجارة بمصر وازدياد المنافع لاهلها الاكثار فيها من زراعة القطن وقصب السكر ونحوهما وما وضع فيها من القوانين المفيدة والترتيبات السديدة وما حصل من ترتيب المعاملة وعلائق التجارة بين المصريين وغيرهم من الامم الاجنبية بما اوجب كثرة ورود الاجانب على ارض مصر للتجارة حتى وصلت الى ما وصلت اليه بحيث اذا وقف احد بساحل مينا الاسكندرية تاكد له ذلك بما يراه على السفن الراسية فيها من كثرة الاعلام المتنوعة للامم المختلفة ومما يدل على حالة التجارة بمصر في هذه الايام الحاضرة الاطلاع على مقدار ما يباع بها في السنة من اصناف البضاعة ففي سنة ١٨٥٤ للميلاد و ١٢٧١ للهجرة كان مقدار ما بيع فيها من صنف القطن خاصة اربعمائة وثمانية وسبعين الف قنطار بيعت بتسعة عشر مليونًا من الفرنكات ولكثرة الرغبة في تجارته لما فيه من زيادة الربح زاد المقدار بعد ذلك فبلغ في سنة ١٢٧٣ للهجرة مقدار ما بيع منه خمسمائة وتسعة وعشرين الف قنطار بثلاثة وعشرين مليونًا وخمسمائة الف من الفرنكات وثمن ما ورد الى مصر من الاقمشة في تلك السنة من بلاد الانكليز خاصة نحو سبعة عشر مليونًا وخمسمائة الف من الفرنكات سوى ما ورد من سائر الجهات وكان مقدار السفن الواردة الى مينا الاسكندرية والصادرة عنها نحو اربعة الاف واربعمائة واربع وستين سفينة نحو ربعها

من سفن الانكليز والباقي من سفن غيرهم ولا شك ان كثرة مقدار هذه السفن يدل على كثرة حركة التجارة

المسامرة الخامسة والثلاثون

كتاب علم الدين

قال ناقل الحديث فلما وصلا الى هذا الموضع من القول كان قد انصرم جزء من الليل وطاب المنام فانقطع الكلام واستأذن الانكليزي للقيام وانصرف الى حجرته فقام الشيخ وتوضأ وصلى ما عليه سنة وفرضا وشرع يحرر خطابًا لزوجته واهل بيته هذه صورته بعد العنوان والسلام

اما بعد فقد قطعنا لجج البحر الاسكندري بحمد الله تعالى في مدة خمسة ايام قضيناها في صحة ورفاهية وراحة ولم يشغلنا عن ذكر الله شاغل بل شاهدنا فيها ما يدل على عظيم سلطانه فكنا اناء الليل واطراف النهار نتضرع اليه ونتامل في عجائب مخلوقاته

الدالة عليه ولم نرَ في اثناء السفر الاَّ ما يسرنا ويصفو به سرنا وقد حصل لنا في السفينة من الاكرام شي زائد على المرام كل ذلك من فضل الله علينا ولطفه بنا واحسانه الينا واما ما كان من صاحبنا الانكليزي ولطفه فلا يستطيع القلم استيفاء وصفه وفي الجملة لم يكن منه الاَّ ما يسر الخاطر ويقر الناظر وقد انقضت ايام السفر ونحن في سرور وانشراح وكأنها كانت بيننا ايام افراح وقد وصلنا ثغر مرسيليا وهي اول مدينة لفرنسا وهي بالنسبة للاسكندرية واقعة في الساحل الغربي من البحر المتوسط (بحر الروم) فاقمنا بها يومين وعن قريب نرحل عنها قاصدين مدينة باريس تخت مملكتهم ومقر سلطنتهم وكان حصل لي امس بعض توعك خفيف وزال وعادت الصحة بحمد الله الى احسن حال وقد طفت مع صاحبنا وتجلنا في البلد فراينا مبانيها القديمة كمصر واحسن منها ما استجد ورأينا لها مراسي عظيمة يحف بها ارصفة جسيمة فاعجبني حسن احكامها ومزيد انتظامها ودهشت من كثرة سفن التجارة فيها واختلاف السنة ملاحيها ففيهم من العرب والعجم وغيرهم من جميع الامم ومن كثرة السفن بمبناها وانضمامها لبعضها لا يكاد يرى الماء من خلالها واعجب من ذلك انهم لا يحتاجون في اخراج البضائع من السفن الكبيرة الى زوارق كالتي رايتها بالاسكندرية بل يقربون السفينة الى الرصيف حتى تتصل به فيربطونها بحلقات متبتة فيه رباطًا محكمًا ويرفعون منها البضايع كما هي الى البر بواسطة

عيارات عظيمة ترفع بها الاثقال على غاية من السرعة والسهولة فلا يمضي على اكبر سفينة بعض دقائق او درجات الاَّ وقد صار جميع ما بها على البر وقد اخبرني الانكليزي ان مساحة هذه المينا على وجه التقدير مائة وسبعة وعشرون فدانًا من فدادين مصر وان نصف هذا القدر للمينا القديمة ونصفه للمينا الجديدة وان محيط الارصفة سبعة الاف متر وثمانمائة وخمسة عشر مترًا وان التجارة تشغل منها نحو اربعة الاف وثمانمائة متر وهناك مينا ثالثة أُحدثت منذ عهد قريب سعتها قدر مجموع الاثنين وطول رصيفها ثلاثة الاف متر واربعمائة وتسعون مترًا فتكون سعة المينات الثلاث بمرسيليا نحو مائتين وخمسين فدانًا تقريبًا ورايت لهم لطيفة عند ارادة ارساء السفينة ذلك انها اذا قربت من البر يدخلونها في خليج يؤمن به عليها من تاثير الرياح عليها واصطدام السفن بعضها وقد وضعوا للسفن في طريقها اربع منارات تهتدي بها وهي عبارة عن مبانٍ عالية في راس كل واحد منها فانوس عظيم يضيء في الليل وفي اسكندرية ايضًا منارة تعرف هناك بالفنار وقد عرفت ان احدى هذه المنارات الاربع وهي اكبرها يظهر نورها على بعد عشرين ميلاً من المينا وارتفاعها اربعون مترًا وارتفاع الثانية خمسة وعشرون والثالثة اثنى عشر والرابعة تسعة وهذه ترى على بعد تسعة اميال من المينا ورايت على الارصفة مخازن اخبرني صاحبنا انها قد بناها باذن الحكومة جماعة من مشاهير

القوم واغنيائهم اجتمعوا وعقدوا بينهم جمعية اشتراك على راس مال قرروه للصرف على انشائها يدفع منه في كل سنة جزء على التدريج الى اتمام تسع وتسعين سنة

واخبرت ان معظم اعمالهم الجسيمة تعمل بهذه الكيفية وان اصل مال الشركة المذكورة عشرون مليونًا من الفرنكات تعدل (٨٠٠٠٠٠) جنيه انكليزي من النقود المصرية وانهم قسموا ذلك المبلغ على اربعين الف سهم فخص كل سهم خمسمائة فرنك وكذلك رأيت بمرسيليا معامل لاصناف متعددة كمعامل الصابون وتكرير السكر وطرق الحديد ودباغة الجلد وعمل الشمع واستخراج النبيذ والزيت وقد ترتب على وجود هذه المعامل بعض معامل اقل منها اهمية الاَّ انها تابعة لها مثل معامل الصور الصناعية اللازمة لعمل الصابون ونحو ذلك

وقد اخبرني صاحبنا ان عمل الصابون لم يحدث بهذه المدينة الاَّ في القرن السادس عشر من الميلاد الموافق للقرن الحادي عشر من الهجرة وانه كان ياتي اليهم قبل ذلك من مدينة يقال لها جنوا وفي سنة ١٧٨٩ من الميلاد وهي سنة ١٢٠٤ من الهجرة بلغ الحاصل منه نحو مائتين وخمسة وعشرين الف قنطار وقد بلغ الان نحو ثلاثة امثال هذا المقدار بسبب استعمال زيت الابذار واكثر ما يصنع منه يستهلك في ارض فرنسا وقريب من سدسه يرسل الى الخارج وعدد المعامل الموجودة الان لعمله نحو

خمسة واربعين فيها نحو خمسمائة من العمال واما معامل تكرير السكر فخمسة وقد بلغ ما دخل مرسيليا من السكر الخام في سنة الف وثمانمائة وثلاث واربعين للميلاد وهي سنة ١٢٥٩ للهجرة نحو ستة وعشرين الف اوقة مصرية ثم زاد بازدياد التقدم في التمدن والرفاهية فبلغ ما يرد لها الان منه نحو خمسة وخمسين مليونًا

واما معامل الحديد فكان لا يوجد منها بمرسيليا قبل الان بنحو عشرين سنة الاّ معملان لسبك الحديد خاصة والان فيها معامل متعددة منها ما هو لاذابته ومنها ما هو لعمل آلات الوابورات البرية والبحرية وغير ذلك وفي هذه المعامل من العمال نحو الفين وخمسمائة والمتحصل منها يوميًا نحو الفي (بنتو) وبها ايضًا معامل متعددة لعمل الرصاص وسكبه في اشكال مختلفة وكذا معامل النحاس والقصدير ويوجد بها من معامل الشمع ثلاثة عشر منها لعمل الشمع المعروف بمن السمك ثلاثة فيها مائتان وخمسون عاملاً ولعمل شمع الدهن عشرة فيها خمسمائة عامل

واما معامل الدباغة فقد ذكر لي ان عددها الان قل عما كان سابقًا وانها كانت في سنة ١٨٤٨ للميلاد اعني سنة ١٢٦٥ من الهجرة نحو الخمسين منها لدبغ الجلود الكبيرة اربعة عشر ولدبغ الجلود الصغيرة ستة وثلاثون وكان في كلا النوعين نحو الف وسبعين عاملاً واما الان فهي اربعة عشر معملاً منها لدبغ الجلود الكبيرة تسعة ولدبغ الجلود الصغيرة خمسة وكذلك ذكر لي ان بها

من الطواحين ثلاثة واربعين خمسة منها تدور بالهواء والباقي منه ما يدور بالبخار ومنه ما يدور بالماء وبها نحو سبعمائة من العمال

وفي هذه المدينة ايضًا سبعة معامل لعمل (الالوميت) وهي كلمة فرنساوية جعلت على ذلك الكبريت الذي يقال له في مصر كبريت بلا نار وفيها سبعة معامل لعمل الصوفان واثنان وسبعون محلًا لعمل الحلي بانواعه وبها غير ذلك كثير من المعامل كمعامل المشروبات بانواعها والحلويات باشكالها والمخللات باجناسها حتى ان بها معامل مختصة بما يرسل الى الجهات البعيدة من المواد القابلة للتعفن من الاطعمة كانواع السمك واللحم والفاكهة فيحفظونها في ظروف محكمة بطرق مخصوصة تمنع عنها التلف والتعفن مددًا طويلة فلا يعتريها شيء من ذلك

وكذا معامل الفخار والطوب والخرز وغير ذلك مما يضيق عنه النطاق ولا تسعه الاوراق وما دعاني الى هذا التطويل والاكثار الاّ علمي برغبتك في الوقوف على ما شاهدناه لتلحقيه بحاشية الكتاب الموسوم بغرائب الاخبار وعجائب الامصار

ولا احب ان اطيل عليك بتفصيل ما هنا من محدثات البدع والفجور وما ارتكبوه على خلاف امر الله سبحانه من مذموم الامور ولكن اذكر لكِ بعضه عنوانًا يكون لما لم اذكره قانونًا وميزانًا وهو اني لم اسمع احدًا من جميع سكان هذه البقعة يذكر اسم الله تعالى بل اراهم في جميع نهارهم لا يتكلمون ولا يشتغلون الاّ بامورهم

الدنيوية وفي الليل لا يأوون الاّ الى محلات الملاهي ومن الغريب انهم مع اعتنائهم بنظافة ملابسهم وتزيين ظواهرهم لا يستعمل احد منهم الماء في ازالة فضلاته ولا يستجمر ولا يغسل يده بعد الاكل

ومن عاداتهم انهم لا يلتزمون ابقاء لحاهم على حالة واحدة فربما ارى الواحد منهم ذا لحية طويلة عريضة ثم اراه قصرها كثيراً او حلقها راساً فلم يبقِ الاّ شاربيه وتارة يبقي الشارب والعنفقة وما حاذاها ويحلق ما عداها وتارة يحلق ما حاذى العنفقة ويرسل ما عدا ذلك حتى يكون قريبًا من الصدر وتارة لا يبقي الاّ شعر العارضين وتارة يجعلها على شكل عريض من اصله ضيق من نهايته ومنهم من يتركها حتى تطول طولاً مفرطًا ومنهم من يحلق شعره بتمامه حتى يصير كالامرد واما ما يضعونه على رؤوسهم مما يعرف عندنا بالبرنيطة فشيء يطول شرحه وقد نظرت بعضه في مصر وله هنا انواع كثيرة فتارة يكون طويلاً مرتفعًا نحو نصف ذراع وتارة يكون قليل الارتفاع وتارة يكون ضيقًا من اعلاه واسعًا من اسفله نازلاً قريبًا من الجبهة الى غير ذلك ومن عادات هذه الجهات ان نسائها يالفنَ الكلاب كثيرًا ويستتبعنها حيث سرن وتكون معهن حيث كن فهي لهن من اعز الاصحاب والاحباب حتى ان الانسان في محلات الفسحة يرى في الجمعية كثيرًا من الكلاب وتحتفل النساء بهذه الكلاب حبًا منهن ويحتفل بها الرجال تقربًا اليهن واكرامًا لهن لما يعلمونه من منزلتها عندهن

فحب المرأة منهم لكلبها ربما يعدل حبها لولدها فتجعله جليسها وضجيعها وانيسها ينام ويقوم معها لا تفارقه وتقبله في فمه وتعانقه وانواع هذه الكلاب عندهم كثيرة منها ما هو قدر القط فأقل ومنها ما هو اكبر ومنها ما شعره طويل يقولون انه متولد بين الشياة والكلاب ومنها ما ابوه ذئب وغير ذلك وهناك نوع تقتنيه الرجال وتألفه يقولون انه يأتي اليهم من الارض الجديدة المسماة بالامريكا ولكن لا باس بهذا النوع لان فيه على ما يقال مزية عظيمة وهي اهتداوه لاخراج الغريق من قاع البحر يقولون انه يشم رائحة الغريق فيغوص في الماء حتى يخرجه الى البر وقد رأيت رجلاً اعمى يسحبه كلب في رقبته مرجونة صغيرة فاذا راى انسانًا ترك صاحبه وذهب يستعطي لهُ صدقة وقد صادفنا في مرورنا وحين رآنا ترك صاحبهُ واتانا فوقف امامنا وجعل يبصبص بذنبهِ وينظر الينا ويحرك راسه كحالة غيره من الكلاب حين يرى من ياكل شيئًا فيقوم بين يديه طامعًا في ان يلقي اليه شيئًا ما ياكله ففهمنا الغرض ووضعنا له بعض دراهم في المرجونة التي في عنقه فذهب الى صاحبه وحرك يده فاخذها من المرجونة وكذلك رايت بمنزل قريب من منزلنا امرأة اشارت لكلب من الشباك فصعد اليها فاعطته دراهم فاخذها منها ونزل واعطاها لصاحبه والامور التي شاهدناها هنا كثيرة يطول سردها وتعدادها وقد قيدتها في اوراق عندي اتلوها عليكِ عند عودنا ان شاء الله تعالى وقد ذكرت ما ذكرت

انموذجا لما ادخرت وارجو ان تبلغي سلامي لحضرة اخيكِ ولحضرات من يسال عنا من المشايخ اخواتنا وقبلي لي الاولاد والاخوات وارجو منكِ اتصال المكاتبة في كل بوسطة لاجل الاطمئنان عليكِ وعلى كل من لديكِ ولا مشقة عليكِ في ذلك اذ ما عليكِ الاّ تسليم خطابكِ لمن تستلمين منه خطابي او ارساله مع الخادمة الى محل وكيل صاحبنا الانكليزي



المسامرة السادسة والثلاثون

الارق والصلاة

ثم ختم الخطاب ووضعه في ظرفه وقرأ على حسب العادة ما تيسر من القرآن العظيم وتلا اوراده ثم اضطجع في سريره فلم يغتمض جفنه بنوم وذهب فكره نحو وطنه ومقر اهله وسكنه وتذكر الاحبة والاولاد وما هو فيه من الغربة وبعد البلاد فضاع بتلك الخواطر لذيذ نومه واشتغل قلبه باحوال اهله وقومه فقام من فراشه مكتئبًا

حزينًا وصار يتردد في حجرته شمالاً ويمينًا وبقي على هذه الحال من الارق وهجم عليه جيش الخواطر والقلق ولما لم يجد للنوم طريقًا وصار في بحر افكاره غريقا عمد الى شباك حجرته ففتحه عساه يتسلى برؤية المارة في الطرق وصار ينظر منه وينصت بسمعه ولكن كان انقضى جزء عظيم من الليل وانقطع المرور من الطرق ودخل كل احد مضجعه فلم يجد احداً يمر من الطريق الاّ القليل النادر وكانت تلك الليلة من اخر الشهر فلم تكن من ليالي القمر بل كانت سوداء الاهاب حالكة الجلباب قد ارخت على المدينة ذيول ظلمائها وغطت على جميع اطرافها وانحائها ثم نظر الى السماء فلم يرَ الاّ الكواكب وكأنها تبعث اليه مع اشعتها سلام الحبائب وكأن النسيم يلاطفه ويسليه برقته ويذكره بليال مرت له مع احبته وايام نقضت باهل مودته فصار يستحمل النسيم اليهم السلام ويجعله واسطة بينه وبينهم في الكلام فلما لم يسمع من يجيبه زاد انينه ونحيبه ورفع للسماء اكف الدعاء وقال اللهمّ يا من تنزه عن المكان وابدع بقدرته عوالم الامكان الهي انت الذي رفعت السماوات وزينتها بنجوم تجري في بحار الظلمات فدهشت من نورها ابصارنا وتحيرت في ادراك حقيقتها افكارنا انت اعلم بحالي ونهاية امالي الهي انت الذي حولتني من وطني وصيرتني بين اهل هذه الديار بعيداً عن سكني فلك الحمد على ما قدرت ولك الشكر على ما اردت اعوذ بك من زوال النعم وموجبات النقم انك على كل شي قدير الهي

اوزعني طرق الاستقامة واعذني من اسباب الخسران والندامة الهي يسر لي العود الى اهلي وعشيرتي ولا تمتني في غربتي واذا قدرت عليّ الاقامة في هذه البلاد فالهمني الصبر على ما قدرت والرضى بما قضيت وثبتني على ديني وقوِّ في رجائك يقيني واجعلني وولدي واهلي ومن يلوذ بي في عياذك وجوارك وامنك وحفظك واحفظني من شياطين هذه البلاد واعني بفضلك على مناقشات اهل الضلال والفساد ولا تزغ قلبي وثبت عقيدتي حتى لا يكون لحججهم على عقلي سبيل ولا لظواهر ما ارى من الزخارف على قلبي تأثير واجعل عظمتك ملءَ قلوبنا ونور هدايتك جلاء عيوننا حتى لا نسمع الاَّ ذكرك ولا نمتثل الاَّ نهيك وامرك واهدنا الى صراطك المستقيم وثبتنا على دينك القويم بجاه نبيك الاعظم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وبحق من اصطفيته من عبادك الصالحين واصفيائك الطيبين الطاهرين (ثم شرع في ورد الاستغفار وصار يكرره الى الاسحار حتى ختمه بقوله) اللهم امن روعاتنا واستر عوراتنا واذهب غيظ قلوبنا وجنبنا وساوس الشيطان واعذنا منه يارحمن حتى لا يكون له على قلوبنا سلطان وادخلنا كنف رحمتك حتى نفوز بنعيم جنتك ثم تزمل بغطائه فنام وهو يكرر اخر البقرة واول سورة الانعام فحين اصبح قام يشكر نعم ربه لديه مؤديًا ما فرض عليه وندب اليه ثم جلس الى الاسفار بين ذكر واستغفار فعند ذلك دعا ولده برهان الدين فحضر وعلى اثره اتى الانكليزي

فجلسوا يتحادثون وتناولوا ما تيسر من الطعام وحكى الشيخ ما اصابه في ليلته من الارق والقلق

المسامرة السابعة والثلاثون

السكر

فقال الانكليزي ان استحسنت فقم بنا نمشي في البلدة ونطوف في طرقاتها برهة ليزول الكسل والملل وينشط الخاطر وترتاح النفس فوافقه الشيخ على ذلك وقاموا فطافوا في شوارع المدينة يحومون خلال ديارها متاملين في محاسن الابنية وانتظام الطرقات واحوال الامة حتى عدل بهم السير الى بعض المحلات المعدة للاستراحة وانواع الملاهي والاشربة وغير ذلك فعزموا على الاستراحة هناك ساعة فلما اخذوا مجلسهم وهدأت بهم راحتهم وشمل عيانهم ما بحضرتهم من الخلق المتحلقة حول دوائر المرمر وعليها الاشربة الملونة بالالوان المختلفة في الاواني المصنوعة على الاشكال الغريبة

وللناس غوغاء واصوات منكرة كما هو شان اهل المنادمة والمقامرة
قال الشيخ عجبت من انهماك اهل هذه البلاد في استعمال هذه
الاشربة وما يتبعها من الملاهي والملاعب وتأنقهم في انواعها واوانيها
وقد نشاء من ذلك افناء كثير من الاموال وشغل معظم الاوقات
فيما يعود على الابدان بالمضار وعلى العقول بالاختلال وعلى الاعراض
بالاهمال حتى ان ذلك كثيرًا ما يكون سببًا لاتلاف الانفس
والخروج من الشرف والعزة ولذة الحياة الى الخسة والذل والم
العيش مع ما هم عليه من توجه الافكار وانبعاث العزائم من
رجالهم ونسائهم واطفالهم الى ما يعود على وطنهم وسكان ارضهم
والمحتمين بهم بالشرف الاكبر والحظ الاوفر والالفة التامة والرئاسة
والملك الثابت حتى انهم تخطوا ذلك الى ارادة تنبيه الامم لما تصلح
به احوالهم وتذامروا على ذلك وظهرت مساعيهم فيه فلقد كانت
جاهلية العرب في ذلك اسد رأيًا واحسن حالاً فان حلماءهم
وكبراءهم لما ظهر لهم ما في استعمال تلك الاشربة والملاعب من
تهييج الشرور وافساد المعاملات واخراج الاموال عن صورة
الصلاح تناهوا عن ذلك واخذوا على ايدي الشبان فيه فصاروا
ثلاث فرق الفرقة الاولى اولو الاحلام والنهي ومنهم الذي يقول
لا اشرب ما يشرب عقلي والذي يقول وقد قيل له الا تشرب ما
يزيد في جرأتك وسماحك لا اصبح سيد قومي وامسي سفيههم الفرقة
الثانية الشبان المتهورون وهولاء كانوا يتباعدون عن ابائهم وذوي

الولاية بعلة الاصطياد والنظر في احوال الاموال العازبة في مراعيها فيميلون الى بعض الغياض لتحصيل اهوائهم على وجه الاستخفاء الفرقة الثالثة الفتيان الذين وجدوا من انفسهم القوة والنخوة والنجدة فهولاء كانوا يتجاهرون بذلك اعتمادًا على قواهم واحتماء بشدتهم والالسنة آخذة فيهم بالملامة وهم لا يعتبرون حتى جاء الاسلام ومضى شطر منه وهم على تلك الحال لم يزعجهم عنها حكم صريح بات حتى انزل قوله جل ذكره (ومن ثمرات النخيل والاعناب تتخذون منه سكرًا ورزقًا حسنًا) فاقتصر بصفة الحسن على الرزق ليفهم السامعون قبح السكر ثم قال اناس منهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه يا رسول الله أفتنا في الخمر المذهبة للعقول المتلفة للاموال فاوحى اليه صلى الله عليه وسلم (يسئلونك عن الخمر والميسر قل فيهما اثم كبير ومنافع للناس فكف قوم وبقي اخرون حتى قام بعضهم يصلي امامًا في صلاة جهرية فقرأ قل يا ايها الكافرون اعبد ما تعبدون فنزل قوله تعالى (يا ايها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وانتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون) فكانوا لا يشربون في وقت تاتي عليهم فيه صلاة وهم سكارى ثم نزل قوله تعالى بالحكم البات والتحريم الصريح يا ايها الذين امنوا انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان (الايات) فانتهى جميع المسلمين عن استعمال ما ذكر وشرعت فيه العقوبة الحد في الشرب والتعذير في غيره ثم اختلف المجتهدون في تقرير

الاحكام الشرعية في مسى الخمر واحكام الاشربة فقال قوم كلما خامر العقل وخالطه وغيره عن حاله الاولى فهو خمر وحكمه حرمة شرب قليله وكثيره وفساد بيعه وشرائه وحرمتها وقال قوم مسى الخمر عصير العنب يترك في الاواني حتى يغلو ويشتد ويقذف بالزبد وغيره يسى سكرًا والحكم حرمة قليل الخمر وكثيرها نيئة فاذا طبخت حتى ذهب ثلثاها حل ما دون السكر منها كما هو الحكم في بقية الاشربة فاتفقت كلمة المسلمين على حرمة السكر والحد عليه لما فيه من الفساد الذي لا يخفى دون ما فيه الاختلاف السابق لرعاية مصالح العباد حسب اختلاف البلاد

فقال الانكليزي ان ما قلته حق والنقد به حسن اذ لا مزية لعاقل ان كل ما يؤدي الى فساد في الجمعية وخلل في نظامها توجب السياسة والانظار الصحيحة المنع منه والاخذ على ايدي الناس فيه فليت اهل بلادنا اقتصروا على موضع الحاجة منه ولم يتجاوزوه الى السرف هذا واسال حضرة الشيخ تفسير الميسر والانصاب والازلام والالمام بما دار بين مقرري الشريعة المحمدية من القول في احكام ذلك والسماع واستعمال الات الملاهي

المسامرة الثامنة والثلاثون

الميسر والانصاب والازلام

قال الشيخ الميسر لعبة كانت لهم يلعبونها في مجلس الشراب صورتها انه يجتمع عشرة فتيان هم اللعبة ومعهم رجل يستامنونه يسمى الياسر في يده جراب يسمى الربابة قد وضع فيه قطعاً من الخشب مسواةً تسمى القداح الواحد قدح على واحد نقطة وعلى اخر نقطتان وهكذا الى السابع ويغفلون ثلاثة منها ولكل قدح اسم يخصه وهي الفذ والتوأم والرقيب والحلس والنافس والمسبل والمعلى والمنيح والسفيح والوغد وينحرون جزوراً ويجزئونها ثمانية وعشرين جزاء بعدد النقط التي على القداح ثم يخرج الياسر القداح على اسماء الاشخاص قدحاً قدحاً فكل من خرج له قدح اخذ من الجزور بعدد ما على قدحه من النقط ومن خرجت لهم القداح الغفل يغرمون ثمن الجزور

ثم انهم يعطون اللحم لمن حضر من فقراء الحي لا ياكلون منها كان ذلك منهم على وجه التفتي والتكرم وكثيراً ما كان يتولد من ذلك شر بسبب ان الذين يغرمون ربما ادركهم الشح والندم

والاسف على عدم البخت ويحسدون من تخرج له الانصبة لكونهم استاثروا بالحظوظ والبخوت دونهم فهذا صنف من الميسر هواكرم الاصناف واخفها ضرراً

ثم ان العرب كانوا يلعبون بلعب كثيرة كشطرنج الهند ونرد الفرس والمسابقة على الخيل والابل والترامي بالنبال الى اغراض وهو النضال في اشياء كثيرة وكانوا يتراهنون في ذلك باخطار كبيرة كمائة من الابل مثلاً يجعلونها خطرا في الرهان فربما اصبح الواحد صعلوكاً معسراً وامسى شريفاً ذا ثروة وافرة ولذلك كانوا يسمونه الميسر لما فيه من يسر قوم وان كان فيه عسر اخرين

يحكى ان تماضر المشهورة بالخنساء اخت صخر دخلت يوماً على ام المؤمنين عائشة رضي الله عنها وعلى صدرها منسوج من شعر صنعته من شعر راسها عند فقد اخيها على عادة نساء الجاهلية اذ كانت المرأة اذا فقدت عزيزاً لها حلقت شعرها ونسجته صداراً فقالت لها عائشة رضي الله عنها الم ينهك الاسلام عن ذلك فقالت الخنساء يا ام المؤمنين تزوجت فتى من فتيان قومي ذا يسار فقامر حتى اعسر واملق فشكوت ذلك لصخر اخي فاخذ بيدي وقام الى ابله فصدعها نصفين وخيرني فذهبت بنصف ماله فقامر به زوجي حتى انفده فرجعت الى اخي ففعل فعلته الاولى وقامر زوجي حتى رجعت الثالثة وانا فيما يعلم الله من الاستحياء فانا من وراء البيت وصخر اخي مضطجع واضع راسه في حجر امراته فلحنتني المراة وسمعتها تقول

هذه اختك وما اظنها تاركتك حتى تملق فلم يجبها وقام فاستقبلني وحياني واخذ يصنع بي صنعه السابق وهو يقول

وكيف لا امنحها خيــارها * وهي فتاة قد كفتني عارها
وان امت تمزقن خمارها * وتجعلن من شعرها صدارها

فما عشت لانزعه كما لا يفارقني الحزن على صخر فحرم الشارع المخاطرة بالاموال

واما نفس اللعب فقد ندب الى السباق والنضال وفعلا بين يديه واثاب الغالب لما في ذلك من الجد والمنفعة وقد عقد لهما في الفقه باب السبق والرمي

واختلف الائمة فبعض اجاز النرد وحرم الشطرنج وبعض اجاز الشطرنج وحرم النرد واما الانصاب فهي حجارة او اشيا اخر كالصغر يصورونها في اشكال مختلفة وبعضها كان مصورًا قديمًا موروثًا للاخلاف عن الاسلاف كانوا ينصبونها ويتقربون عندها بانواع عباداتهم ويقولون ان هذه الانصاب تشهد لنا باعمالنا عند ربنا وتشفع لنا فحرم ذلك وكفر فاعله ومعتقده واما الازلام فهي ثلاثون قطع من الخشب مكتوب على واحد آمر وعلى واحد ناهٍ والثالث عطل لا كتابة عليه فكان الرجل اذا عزم عزمًا خلط تلك القداح في جراب ثم اخرج منها واحدًا فان كان الآمر فعل وان كان الناهي ترك وان كان العطل اعاد العمل فنهي عنه ذلك في اشياء كثيرة من جنسه كزجر الطير والحيوانات والاحوال

التي يشاهدها العازم عقب عزمه فيستشئمون ببعض ويتيمنون ببعض فقال عليه الصلاة والسلام اذا تطيرت فامض وقبل ذلك تنبه كثير من العرب لبطلان تلك الاشياء فان بعض الناس كان يرى المشائم فيقدم فيصيب ما اراد على اتم وجه حتى قال شاعرهم

لعمرك ما تدري الضوارب بالحصى
ولا زاجرات الطير ما الله صانعُ

وقال اخر

على المرء ان يسعى لما فيه نفعه
ويقضي اله الخلق ما كان قاضيا

واما السماع واستعمال آلات الملاهي فاجازها بعض بشرط امن الفتنة بالوقوع في محظورات الشرع وعدم اللهو والاشتغال عن الواجبات في اوقاتها ومنعها بعض لما يغلب فيها من السهو والغفل عن اداء الواجبات والنظر في المصالح والسعي لها في اوقاتها

قال الانكليزي ان ميل الانسان بطبعه الى ما يجدد نشاطه ويعود على فكره بالراحة من الاشتغال بما يكد قواه من استماع الاصوات الحسنة والنظر الى المناظر الجميلة والاشتغال بالامور الملهية هو الذي بعث الافكار على اصطناع الات الطرب وتحسينها واتقان ما يناسبها وكان ذلك من الاعمال العائدة على كثير من اهل هذه البلاد بالثروة حتى نظمت في الاعمال التي يبني الناس عليها امور معاشهم ولا غرو ان يشتغل الانسان بما فيه كسبه

وارتياح اهل ارضه ونزهتهم وتسليهم عن كثير من الهموم المكدة والاعمال المتعبة فلذلك ترى اطباق اهل هذه الارض ولا سيما النساء على تلك الاشياء حيث وجد فيها الكبار واهل العجز والهرم تعويض ما فقدوه من ملاذ الشباب وهي من تحائف الشباب وجملة آلاته التي يحصل بها على تمام ملاذه الداخلة تحت قدرته الحاضرة بين يديه

المسامرة التاسعة والثلاثون

حكاية المصري الغريب

قال الناقل وبينما هم كذلك اذا بانسان هرم دخل عليهم فسلم بلسان عربي فصيح فرد عليه الشيخ وولده وحياه الانكليزي على حسب العادة واذنوا له بالجلوس فجلس ثم تاملوا في هيأته ولغته فعرفوا انهُ ليس من اهل البلدة فقال الشيخ لعلكم من اهل مرسيليا قال لا وانما انا ساكن بها منذ مدة طويلة وانا من جهة مصر

ومسقط راسي القاهرة ولي بها اقارب ولا اعلم الان ما فعل الله بهم وكانت اقامتي معهم بمصر في خط الازبكية ولي حكاية غريبة في سبب مفارقتي لهم فقال الانكليزي اظنك ممن كان حضر مع نابليون بونابرت حين خرج من مصر فقال نعم فقال له كيف تبعته وتركت عائلتك واهل بيتك قال الرجل في مدة اقامة الفرنساوية بمصر كان قد اختلط بهم بعض اهلها حتى دخلوا تحت طاعة الفرنسيس وانضموا اليهم فمنهم من كان في خدمتهم ومنهم من دخل في عسكرهم وقليل منهم شاركهم في التجارة فكنت ممن دخل في العسكرية فاقمت فيها مدة الى ان حصل الصلح بينهم وبين المصريين وكان في من كتب اسمه في العسكرية كثير من القبط المصريين ونصارى الشام ومن بقي من المماليك الذين كانوا بها قبل دخول الفرنسيس اليها ولما وقع الصلح وتأهب جيش الفرنسيس للرحيل خرج من العسكرية من خرج وبقي من بقي فكنت ممن بقي وكان عمري اذ ذاك قريبًا من ثلاثين سنة وكان السبب في بقاء من بقي مع الفرنساوية ان اهل مصر كانوا يتوعدون كل من دخل في زمرة الفرنساوية بالقتل وبغيره فلذلك اخترت البقاء معهم والمهاجرة الى بلادهم وعلى اي حال فالقسمة غلبت وخرج معهم من خرج الى ان وصلنا مرسيليا فمنا من اقام بها ومنا من بقي في العسكرية وسار مع نابليون فكنت ممن اقام بمرسيليا فرتب لنا من جانب الحكومة مرتبات لكنها لم تكن كافية فاخذنا في الاسباب

كل على حسب اقتداره وتزوجنا من نسائهم وتخلقنا باخلاقهم وتهيأنا بهياتهم واكتسب كل منا على حسب سعيه وكده واعاننا على الكسب في هذه المدينة انها مينا واشغالها كثيرة وامور السعي والعمل والكسب فيها متيسرة وبهذه الكيفية تيسرت معيشتنا ورضينا بقضاء الله وقدره وان كان حب الوطن لا يبرح من بالنا وافكارنا لا تفتر عن ذكر اهلنا وبقينا على هذه الحال الى ان تعصبت الدول على دولة فرنسا واتفقوا على خلع الامبراطور واشخاصه الى جزيرة الب للاقامة بها وردّ الحكومة الى الملك لويز الثامن عشر من ملوكهم فعند ذلك حصل لنا ولكل من كان قد انتمى اليه من الذل والاهانة ما كان سببًا في مفارقتنا لمرسيليا ولو كنا نعلم الغيب لكنا جميعًا هاجرنا من هذه البلاد قبل ان ينزل بها ما نزل من المقدور وما هو في علم الله مستور ومسطور فكنا نحو اربعمائة نفس بعيالنا وكانوا يسوموننا كل يوم من العذاب ما لا اقدر على وصفه الى ان حصلت الحادثة التي رجع فيها بونابرت الى السلطنة مدته الاخيرة المعروفة عند اهل هذه البلاد بحكومة مائة يوم لانه لم يقم بها الاّ هذه المدة فلما انقضت حصل لنا ولجميع من انتسب اليه غريبًا كان او غير غريب ما يعجز عن استيفائه اللسان ويكل في حصره البيان وحاصل الامر ان جميع المماليك والمهاجرين الذين كانوا معنا وعيالهم واولادهم قتلوا في وسط حارات مرسيليا وشوارعها بكيفيات يشمئز منها الطبع ويمجها السمع

ولولا اني كنت غائبًا في ذلك الوقت لقتلت فيمن قتل ولما عدت وجدت عيالي جميعًا قتلوا مع والدتهم وشرح ما حصل في تلك الايام طويل ولو مكثت طول عمري اذكر لك من اخبارها لكان ما اذكره بالنسبة لما اتركه اقل من القليل

فقال الشيخ اود ان اعلم كيف كان قتل المساكين الاغراب وكيف سلمت الحكومة في ذلك فان مثل هذا لم يسمع به في بلاد البربر ولا بين سكان البادية فكيف يكون في الملل المتمدنة ام كيف يحصل من ملة يقال فيها انها بلغت من التمدن غايته

فقال ذلك الرجل ان طباع هذه البلاد غريبة جدًا لانهم دائمًا في فتن ومحن ويودون دائمًا تغير صورة حكومتهم وديانتهم كما يغيرون ملابسهم فان شئت وتفضلت عليّ انت ومن تحب بالزيارة في منزلي فهناك نتروح بذكر البلاد واتلو عليك شيئًا مما وقع في هذه الحادثة من الصلاح والفساد فسكت الشيخ فنظر ذلك الرجل الى الانكليزي فقال اما انا فقد دعيت عند بعض الاحباب ووعدته في هذا اليوم بالذهاب واود ان اخذ معي برهان الدين وان اراد حضرة الشيخ ان يتوجه معك ويصطحب يعقوب معه فالرأي له فاتفقوا على ذلك وقاموا جميعًا فذهب الشيخ ويعقوب مع الرجل الى منزله فقابلتهم زوجته احسن المقابلة وحيتهم تحية الاكرام والمجاملة واجلستهم في المكان المعد للضيفان وامرت باحضار القهوة والدخان فشربوا ثم شرعوا في التبسط بانواع الكلام الى ان

وصلوا الى ذكر حوادث الايام فقال الشيخ للرجل ارجوك ان تفي بما وعدت به آنفًا من حكاية ما حصل في قتل اولئك المساكين الاغراب وما حصل بهم من انواع العذاب والعقاب فتنفس الرجل الصعداء وقال ان اهل مرسيليا وما جاورها من البلاد بل اهل فرنسا على الاطلاق منقسمون فرقًا فمنهم في السلطنة الملوكية ومنهم من يميل الى الامبراطورية ومنهم من يحب الجمهورية ولكل قوم كلام في ترجيح رايهم ليس هذا محله وكل فرقة من هذه الفرق مع الاخرى في فرنسا كسعد وحرام في مصر والقيسية واليمانية في بلاد الشام فمتى كانت الحكومة امبراطورية كانت الغلبة لمن يتبعها والعكس بالعكس فمن ذلك لا ينقطع من بينهم عرق الشقاق ولا تزال الدماء بينهم تراق في الحارات والاسواق ومن ذلك مسألة الاغراب التي سمعتها فانها انما نشات من تلك التعصبات وذلك ان اهل مرسيليا كانوا اول من نصب لواء العصيان في القومة الاولى على بونابرت فلحقها مدة حكومته ما لحقها من الذل وضياع المزايا التي كانت بيناها زمن الحكومة الملوكية لانها كانت وقت ذاك معافاة من الكمارك والعوائد وكان ذلك من اقوى اسباب ثروتهم وسعة تجارتهم فلذلك كانوا يتمنون عود الحكومة الملوكية حتى انهم من شدة كراهتهم له ولمن اتبعه لما شاع الخبر بانحطاطه في سنة الف وثمانمائة واربعة عشر للميلاد وهي سنة ١٢٣٠ للهجرة قاموا جميعًا وقام معهم اهل البلاد والمديريات التابعة لها ففعلوا باتباعه افعالاً

شنيعة وقتلوا كل من كان له ميل اليه بالقوة وشاع ذلك حتى
كان امرًا مشهورًا وتاريخًا على طول الزمن مذكورًا وهجموا على
محلات رجال الحكومة فقتلوهم وقتلوا اتباعهم ولم ينجُ مدير المديرية
من ايديهم الاَّ بالفرار الى ميدان الفسحة وهجموا على هيكل
الامبرور الذي كان منصوبًا في ميدان المدينة فكسروه ورموه
واقتلعوا جميع ما كان في ذلك الميدان من الاشجار والنبات
والازهار وحرقوا ما كان به من انواع الزينة والزخرفة وبالجملة
فلم يحترموا تربة كانت هناك وان كانت لاحد مشاهير رجالهم بل
حفروها ودمروها حتى لم يبق لها اثر هذا والسبب في تغالي اهل
هذه المدينة في الميل الى الملك ان عائلته كانت دائمًا تعدهم برد
المزايا التي فقدوها وتشوقهم برجوع مزايا اخرى كانت لهم من قبل
وسلبتها منهم حكومة بونابرت فلما خلع من الملك اول مرة جمعوا
من رجالهم حزبًا عظيمًا عينوه لترغيب من يريد الدخول في
العسكرية فانضم اليهم اهل الشقاوة والمفسدون واخلاط من
العَمَلة والفعَلة واستمروا على ذلك نحو احد عشر شهرًا من خلعه
ولهذا لما بلغ هولاء الاشرار خروجه من جزيرة الب ودخوله ثانيًا
ارض فرنسا خافوا على انفسهم من عاقبة فسادهم وايقنوا بحلول
العقاب بهم دفعة واحدة ورفعوا لواء العصيان ورغبوا اهالي
المدينة ومن حولها وخصوصًا العمال في المعامل وفي المخازن
العسكرية وكذلك كل من وجدوه من الفقراء والمساكين فتجمع

من هذه الجموع المختلفة الاف مؤلفة وانتشروا في المدينة وشبوا في طرقاتها نار الفتن التي احلت بهم القضاء وهجموا على فريق العسكر واكرهوه على ان يقوم معهم لمنع الامبرور من دخول ارض فرنسا فخرج معهم بعسكره وساروا لتعطيل الامبرور عن الخروج من البحر لكن الله قدر خروجه من البحر قبل وصولهم اليه فلم يبلغوا مقصدهم ورجعوا الى المدينة خائبين فصاروا يقوّون جموعهم فعظمت قوتهم وازداد كرب الاهالي المنقطعين لاشغالهم من تعديهم وظلمهم لهم وكانوا يزعمون ان الملك اذا قام بجيوشه يقاوم حزب الامبرور نابليون ولم يخطر ببالهم ان الامبرور متى وضع قدمه بارض فرنسا اجتمع حوله خلائق كثيرة من عساكره القديمة والجديدة وغيرهم استمالهم اليه ما كان له من الشهرة وكثرة الفتوح والنصرة فكان الامر على خلاف ما زعموا ولم يقاومهُ حزب الملك بل فرّ بعائلته ودخل نابليون ارض فرنسا واخذ بعنان الحكومة كما كان فتضعضع راي هولاء الاشرار وتفرق شملهم وترتب على نزول الملك عن سرير الملك وخروجه من باريس تغيير جميع حكام الجهات والمديرين ومن جملتهم حكام المديرية التي مركزها مرسيليا فتغير حاكمها وحضر لقيادة العساكر بها رئيس غير الاول وكان يحب الصلح والاصلاح فاجتهد في منع اسباب الفساد وقمع اربابه بطريق الانصاف والمساواة وتسكين الفتن حتى انحسمت الامور ومع هذا كان المفسدون كلما وجدوا للفتنة فرجة اوسعوها او فرصة للشر

ابتدروها فكانوا يوقدون نيران الفتن خفية ويلقنون كل من وجدوه كراهة الحكومة الامبراطورية واتباعها حتى انهم اكثروا من الطعن في حق راس العساكر المحافظين بمرسيليا حيث كان هو المانع لما يقصدونه من الفساد وكثيرًا ما اخبر باقوالهم ومقاصدهم وانهم يتمنون حيلة لسفك دمه وهو مع ذلك لا يخرج عن الطريق الذي الزم نفسه بسلوكه من الرفق في المعاملة وحسن الخلق والمجاملة بل استمر على استعمال ما يوجب الصلح والاصلاح لاطفاء الفتن وحصول الامن بين الرعية وكثيرًا ما راى بعينه تعدي بعض هولاء الاحزاب وفتحهم ابواب الشر بالنزاع والمخاصمة مع عساكره من غير مقتضٍ لذلك فكان لا يستفزه الغضب ولا يغير طبعه معهم ما يقع منهم ظنًا منه انهُ على طول الايام اذا تمهدت قواعد الحكومة على اصول من العدل متينة تنجلي قلوب الاحزاب ويزول ما في نفوسها من الضغينة فانهم جميعًا امة واحدة وابناء وطن واحد فلا بد ان يصفو البال وتحسن الاحوال قال ولم يعلم بما خفي في خبايا الغيب فاخطأ ظنه وخاب امله وضاع عليه تدبيره وعمله وذلك انه لما وقعت الواقعة المشهورة بجهة (واترلوا) انهزم فيها جيش نابليون فانتشرت الاخبار في جميع نواحي المملكة ومن الجملة جهة مرسيليا فشاع فيها الخبر يوم الاحد لعشر بقيت من شهر جونيو سنة ١٨١٥ للميلاد وهي سنة ١٢٣١ للهجرة وذلك بعد ستة ايام من تاريخ الواقعة فخاض في حديثها الناس واشتغلوا بها فكنت لا تجد

احداً منهم الاّ رايته مهتمًا بهذا الامر مشغولاً به فلا يجتمع منهم اثنان فاكثر الاّ على الخوض في حديث هذه الحادثة سواء كان ذلك في محلات النزهة والفسحة ومواضع القهوة او الكنائس والدور والازقة والميادين بحيث لم يبق فيما اظنه احد من الفرنساوية الاّ تكلم في هذه المادة وما يترتب عليها من النتائج المؤلمة والعواقب الوخيمة فغلب الوهم على قلوبهم لاعتقادهم جميعًا انه لا بد من دخول العدو باريس وتصرفه في اهلها بالغلبة والقهر وهذا الخوف كان عامًا لجميعهم ما عدا حزب الملك ومن اتبعه فانهم وجدوا فرصة لاظهار ما في نفوسهم وبابًا للوصول الى اغراضهم فهبوا من نومهم وقاموا من مهد خمولهم واجتمع عليهم كل من اراد الانتماء والانضمام اليهم او رغب في السلب والنهب معهم فاجتمع بهم اهل الشر والفساد جميعًا فلم يبقَ قاتل ولا لص ولا قاطع طريق الاّ انضوى اليهم واختلط بهم وانتشروا في ارجاء المدينة فكان اول ما فعلوه انهم هجموا على العساكر ورموهم بالرصاص وقابلهم العسكر بمثل ذلك بحكم الضرورة فقتل من الفريقين خلق كثير واخر الامر انهزمت شرذمة العسكر فخلا الجو لاولئك الثائرين ولم يبق لهم مانع وهجموا على البيوت وعلى الدائرة البلدية فجرى منهم من الرذائل والمفاسد ما لا يدخل تحت حصر واخذوا بيرق الجمهورية وحرقوه في ميدان كان منصوبًا به هيكل نابليون الاول ثم سطوا علي ذلك الهيكل فكسروه وداسوه تحت ارجلهم ثم داروا في الازقة

متجاهرين بالاقوال الفظيعة والتحريض على قتل كل من ينتمي الى نابليون لو عائلته او يميل للجمهورية وهجموا على مواضع كثيرة من جملتها محل كان به نحو ثلثمائة من الضباط الضعفاء المعروفين بالسقط اصحاب المعاش فاخذوهم عن اخرهم وذبحوهم ذبح البقر وكذلك فعلوا بنحو اربعمائة من طائفة المماليك فقتلوهم عن اخرهم ولم يرقوا لاطفالهم ونسائهم بل الحقوهم برجالهم واباءهم ولم يكن لذلك من سبب سوى ان هولاء المساكين كانوا اظهروا الفرح عند عودة نابليون فبقي ذلك في نفوس القوم وحقدوه عليهم حتى بطشوا بهم في هذه الواقعة وفعلوا معهم اموراً شنيعة واحوالاً فظيعة تقشعر منها الجلود ويكاد يرق عندها الجلمود فمن ذلك انهم كانوا عند قتلهم للواحد منهم يقطعونه اربًا يلقونها في الطريق وكانوا ياخذون الواحد فيوثقونه بالحبال ويضربونه بالعصي والخناجر فلا يموت حتى يذوق انواع العذاب واشد العقاب

ثم قال ذلك الرجل وكان في جملة من مات الاولاد (يعني اولاده) وامهم قال وكان من يمر في اي طريق من طرق المدينة وما حولها حينئذٍ انما يمر بين رمم القتلى ويخوض في دماء الجرحى حتى اختلطت رمم الرجال برمم النساء وكان اولئك المفسدون في خلال ذلك يتكلمون بكل ما تشمئز منه النفوس وفعلوا ما لم يفعله المجوس فكانوا يطوفون حول القتلى راقصين مسرورين فرحين مستبشرين رافعين اصواتهم بالاغاني والاشعار

المتضمنة للمباهاة والافتخار بما فعلوه من القبائح وارتكبوه من الفضائح ومع ذلك لم تكن هذه الاهوال خاصة برسيليا واهلها بل كانت في جميع جهات المملكة باسرها فكم من بلدة حرقت وضيعة خربت وقرية نهبت قال فما كان احد يسمع في تلك الاوقات عن جهة من الجهات الاَّ ما يسوء الفوأد ويحرق الاكباد

فلما وصل الرجل من حكاية حديثهم الى هذا المحل قال يعقوب (وكان مع الشيخ) سبحان الله العظيم قد قدر الله على طائفة المماليك بهذا العقاب فاصابهم في كل جهة من الارض فان ما حصل لهولاء برسيليا حصل مثله لاخوانهم بمصر وامثالهم الينكجرية بالقسطنطينية سواء بسواء وكان ذلك في اوقات متقاربة فان ما وقع بمصر كان في سنة ١٢٢٦ من الهجرة وما حصل برسيليا كان في سنة ١٢٣١ منها كما مر والذي حصل في القسطنطينية كان سنة ١٢٤١

فعند ذلك قال الشيخ هذا ما وعد الله ورسوله وصدق الله ورسوله قال الله تعالى (ذلك بان الله لم يك مغيرًا نعمة انعمها على قوم حتى يغيروا ما بانفسهم) وقال (وسيعلم الذين ظلموا اي منقلب ينقلبون) قال بعض الحكماء من سلب نعمة غيره سلب غيره نعمته والحجر في البنيان من غير حله عربون على خرابه والله لو ان الجنة وهي دار البقاء اسست على حجر من الظلم لاوشك ان تخرب حكي ان بعض الوزراء جلس يومًا للمظالم فلما انقضى

المجلس راى رجلاً جالسًا فقال له ألك حاجة قال نعم ادنني اليك فاني مظلوم وقد اعوزني العدل والانصاف قال ومن ظلمك قال انت ولست اصل اليك فاذكر حاجتي قال وما يحجبك وقد ترى مجلسي مبذولاً قال يحجبني عنك هيبتك وفصاحتك قال ففيمَ ظلمتك قال في ضيعتي الفلانية اخذها مني وكيلك غصبًا بغير ثمن فاذا وجب عليها خراج اديته باسمي لئلا يثبت لك اسم في ملكها فيبطل ملكي فوكيلك ياخذ غلتها وانا اؤدي خراجها وهذا لم يسمع بمثله في المظالم فقال هذا كلام تحتاج معه الى بينة وشهود واشياء فقال ذلك الرجل أيؤمنني الوزير من غضبه حتى اجيب قال نعم قد امنتك قال البينة هم الشهود واذا شهدوا فليس يحتاج معهم الى شي اخر فما معنى قولك بينة وشهود واشياء واي شي هذه الاشياء ان هي الاّ الجور وعدولك عن الحق فضحك الوزير وقال صدقت والبلاء موكل بالمنطق واني لا ارى فيك مصطنعًا ثم وقع له برد ضيعته وان يطلق له مائة دينار يستعين بها على عمارة ضيعته وصيره من اصحابه وكان من امر ذلك الرجل قبل ان يتوصل الى الانصاف واعادة ضيعته له اذا قيل له يا فلان كيف الناس يقول بشر بين مظلوم لا ينصر وظالم لا ينتصر فلما صار من اصحاب الوزير وردت عليه ضيعته وانصفه قال له الوزير ليلة كيف الناس الان قال بخير قد اعتمدت معهم الانصاف ورفعت عنهم الاجحاف ورددت عليهم

المغصوب وكشفت عنهم الكروب وانا ارجو لهم ببقائك نيل كل مرغوب والفوز بكل مطلوب

المسامرة الاربعون

المحار

قال ناقل الحديث وبينما هم في هذا الكلام اذ حضرت صاحبة المنزل واشارت بالقيام للطعام وكان الاتفاق على ان يكون الاكل على عادة المشرقيين فوضعت الاطعمة دفعة واحدة واكلوا جميعًا بايديهم من كل صحفة ولم يختص احد دون اخر بشيء الاّ انهم وضعوا امام الشيخ طبقًا فيه محار من المعروف بالمدينة فعافته نفسه وابى ان يتعاطى منه لعدم تعوده على تعاطيه فاكلوا وشربوا ثم ارادوا ان يتحدثوا فيما بقي من اخبار تلك الحوادث لكن لضيق الوقت تعجل الشيخ بالانصراف فاستأذن وقام وتبعه يعقوب فركبا العربة وسارت بهما

فقال الشيخ ليعقوب لقد عجبت من تقديمهم ذلك المحار بين يدي مع وجود غيره من الماكل الشهية فلم اعرف لذلك من مزية

فقال يعقوب انما فعل الرجل ذلك تطييباً لخاطرك واحتفالاً بامرك ودلالة على العناية بشانك فان الافرنج قاطبة يحبون آكل هذا المحار حباً زائداً واكثر من يتعاطاه الامراء والاكابر من اهل المدن الاوروباوية

فقال الشيخ كنت اسمع ان اهل اسكندرية ياكلون شيئاً يشبهه يسمونه بام الخلول وانهم يصنعونه بالتوابل والافاويه والبهارات ويجعلون منه المملحات وكذلك بلغني انهم يتعاطون نوعاً يسمونه بلح البحر يطبخونه مع الارز فيكون عندهم لذيذاً ولكني لم اذق شيئاً من ذلك فلا اعلم طعمه وهل هو ماخوذ من هذه البحار او غيرها وما كيفية صيده

فقال يعقوب ان الصيادين يصطادونه من البحر الملح بشباك مخصوصة وطرق معروفة لهم غير الطرق المعتادة في صيد السمك وفي كثير من جهات اوروبا ترى اقواماً من الاهلين يشتغلون بتربيته وتنميته في معامل مخصوصة قد اصطنعوها بسواحل البحر يربونه فيها كتربية المصريين للفراريج في معاملها وان كانت الكيفية مختلفة فان المعامل التي نحن بصددها عبارة عن احواض واسعة مصنوعة بالقرب من ساحل البحر ينالها الماء في وقت المد وينحسر عنها في وقت الجزر وقد جعلت لها ابواب تقفل وتفتح لامساك الماء

في الاحواض وصرفه عند الحاجة بالاختيار وفي قاع الحوض احجار من الصخر موزعة في جهاته وحول كل من الاحجار قطع من الخشب مثبتة حوله ثم حول كل جملة من الصخر خشب غيرها وكلها متصلة ببعضها بواسطة حبل مربوط فيها محيط بجميعها ويربط في هذا الحبل حزم من الحطب وفروع الشجر تدلى في الماء فعند حصول الفقس يجتمع البيض على الصخور وعلى الاخشاب ويتعلق بالحزم المدلاة في الماء ويبقى كذلك الى ان يكبر وعند ذلك يكون اخذه باليد سهلاً فياخذون منه ما ارادوا مما يجدونه قد بلغ حد الانتفاع به وما وجدوه لم يصل الى تلك الغاية ابقوه حتى يصل اليها

فقال الشيخ اريد ان اعرف تفصيل احوال هذا الحيوان بقدر الامكان وكيف اهتدى الانسان الى معرفة ما ذكرت من طريقة تكثيرهِ وهل هذه الطريقة حادثة ام قديمة

فقال يعقوب هذه الطرق كانت معلومة من قديم الزمان وكان الرومانيون وغيرهم يستعملونها وقد عرفها المتاخرون منهم ولكثرة سفري في البحار صار بيني وبين اربابها الفة وببعض حيواناتها معرفة حتى عرفت هذا الحيوان وكنت اظن قبل ان اعرفه انه لا شي في جوفه وان كان فيه شي فانما هو خزف او مواد صلبة الحاقًا لما بطن منه بما ظهر هذا ما كنت اظنه فيه الى ان اتفق لي في بعض الاسفار ان اجتمعت باحد الطبيعيين وكنت اذ ذاك

بجهة الامريكا فرأيته يومًا وقد جمع من هذا النوع شيئًا كثيرًا فسألته عن فائدته وعما في جوفه واصل مادته فاخذ منه واحدة ففتحها وصار يريني ما في جوفها ثم قال لي اعلم ان الله سبحانه وتعالى قد اتقن كل شي خلقه لا فرق بين كبير الحيوان وصغيره حتى المضغة والعلقة واودع فيه ما يلزم لبقاء شخصه ونفسه وخص كل نوع بمزايا تميز بها عن غيره من انواع جنسه ومن ذلك حيوان المحار فان لحمه بارد رطب مخاطي ليس فيه عظام من الداخل ولكونه على هذه الحالة جعل الله له وقاية تقيه من جميع العوارض وتحفظه من آفات البحر وحيواناته وهذه الوقاية وهي المحارة او الصدفة تارة تكون شكلاً مخروطًا على هيئة البرج وتارة تكون شكلاً مستديرًا كالدرقة وتارة تكون كدرع الحرب وغير ذلك وتارة تكون قطعة واحدة كما في الحلزون وتارة تكون قطعتين فاكثر وهي الميديا وبحسب هذه العقود في القطع وعدمه انقسمت الى ثلاث رتب اصلية

الاولى ذات الصدفة

الثانية ذات الصدفتين

الثالثة كثيرة الصدف

وهذا الذي وضع بين يديك على المائدة يعرف بالميديا وهي في الرتبة الثانية ومسكنه في الغالب قاع البحر في مواضع يتخذها على صورة الجزائر والتلال واذا نظرت الى الواحدة منها وجدت

محارتها مركبة من فلقتين احداهما كبيرة وهي التي يلتصق بها ما في الباطن والغالب فيها ان تكون محدبة ذات سمك وهي السفلى والثانية العليا وهي اصغر وارق سمكًا من اختها واقل تحدبًا وهما ملتصقتان ببعضهما بعصب متصل بالحيوان فيه مرونة يتيسر معها للحيوان فتحها واطباقها باختياره فيرى في وسط المحارة من الداخل بقرب اتصال الفلقتين ببعضهما نقرة بيضاء فيها عصب سميك ابيض اللون متصل بالحيوان هو الآلة له في تحريكها كما مر وباطن المحارة املس ذو لمعان كلمعان اللؤلؤ واما ظاهره فذو طبقات او ثنيات متراكبة بعضها فوق بعض وهذا الحيوان مجبول على السكون والاستقرار وعدم الانتقال عن محله بالاختيار فينشأ من صغره على الصخور في قاع البحر ويثبت عليها حتى يرى كانه قطعة منها واذا تاملت في هذا الحيوان عند فتح محارته وجدته قطعة لحم متجمعة قليلة الشفافية سنجابية اللون بيضية الشكل مظروفة في غشاء رقيق ناعم قابل للانقباض والانبساط ذي طيات متعددة وله فلقتان مفتوحتان في معظمه وهو شبيه برأس البرنس ينتهي دقيقه عند مجتمع فلقتي المحارة وفي دائر كل فلقة من هذا الغشاء زوائد فيها شعور يمدها الحيوان ويقبضها باختياره ويظهر ان بها نوع احساس وبواسطة هذا الغشاء يمتص الحيوان بعض المواد الجيرية من المحارة وفي مجتمع طرفي الغشاء من جهة انفتاح المحارة يوجد فم الحيوان مستعرضًا وهو فم كبير قابل للتمدد عديم الفكين اي عد

الاعضاء المضغية له شفتان غشائيتان رقيقتان وفيه اربع زوائد كل واحدة منها مثلثية الشكل ذات ثلاثة اسطحة مستوية وهي بمنزلة الخرطوم يتناول بها غذاءه ويدخله في فمه فينحدر منه الى معدته وهذه المعدة على شكل الكمثرى ويتصل بها معاء رفيع معوّج يتجه بالميل الى جهة الامام ثم ينخفض قليلاً ثم يرتفع ويمر بعد ذلك خلف المعدة بحيث يكون قريبًا من الفم وينعطف الى الخلف في طريق تقاطع طريقه الاولى حتى يكون في الجهة الخلفية من العصب المتصل به الحيوان بالمحارة كما مر وهنالك ينتهي ذلك المعاء بفتحة في ظهر الحيوان يقال لها الخاتم ويحيط بالمعاء وبالمعدة ايضًا الكبد وهو اكبر اعضائه كلها حتى انه وحده يعدل معظمها ولونه مسود وفيه مائع مصفر اللون هو البلغم وفم هذا الحيوان ينطبق على معدته وقلبه لحمي مغزالي الشكل موضوع تحت كبده محيط بجزء من اخر المعاء احاطة تامة وهو كما في الحيوانات الكبيرة مركب من جزئين احدها الاذين والاخر البطين ومن البطين يخرج عرق يتفرع ثلاثة افرع احدها يوجه الدم الى الجزء العلوي من الحيوان اي الى الفم وما به من الزوائد المتقدم ذكرها والثاني يوجهه الى الكبد والثالث يوجه السائل الغذائي الى سائر الجسد وليس الدم في هذا الحيوان احمر كما في غيره من الحيوانات الصغيرة بل هو شفاف عديم اللون وهو يمر من اذين القلب الى البطين ومنه الى العرق الغليظ الذي تتفرع منه الفروع الثلاثة التي قدمنا

الكلام عليها ثم منها تتوزع في جسم الحيوان

ومن هذا يعلم ان هذا الحيوان له دورة دموية لكنها ليست كالدورة في الحيوانات الكبيرة وانما هي كالدورة في السمك وبعض حيوانات غيره

وهذا الحيوان يستنشق في الماء ما يحتاج اليه من الهواء كالسمك فله خياشيم يفصل بها من الهواء الذائب في الماء ما يلزم له من الاوكسجين ومحل هذه الخياشيم تحت الغشاء وهي ذات طبقتين فيهما شعوب شعرية رقيقة اشبه باسنان المشط ولتجرد هذا الحيوان عن الراس لا يوجد له مخ كما في غيره من الحيوان وانما يكون لاول عصبه بقرب الفم فيرى هناك عصب غليظ يتفرع منه فرعان احدهما يتجه الى المعدة والاخر الى الكبد وينتهيان بعصب واحد يكون خلف الكبد فالفرع الاول يوجه الاحساس الى الفم وما فيه والثاني الى الخياشيم

ويظهر ان لهذا الحيوان حاسة اللمس ومستقرها الفم وليس له سمع ولا بصر

ومن غريب خواص هذا الحيوان انه يجتمع في الواحد منه اعضاء التناسل الذكورية والانوثية فيكون الواحد لنسله ابًا وامًّا معًا ونسله في اول اطواره بيض مصفر اللون كثير العدد الى الغاية حتى ان اهل الفن توصلوا بكثرة البحث ودقة التحقيق الى ان قدروا للحيوان الواحد منه نحو الفي الف بيضة ومدة تربية هذا الحيوان

في البيضة كتربية الدجاج في البيض الى ان يتم تخلق الحيوان ويستقل بنفسه ثلاثة اشهر من بوُنه الى اخر مسري وفي هذه المدة يكون البيض في طيات الغشاء المتقدم ذكره مغموراً بمادة لزجة تفرزها الام فيتغذى منها ويكون في طيات هذا الغشاء بمنزلة البيض تحت الدجاجة حين ترقد عليه وتحضنه وحينئذٍ يكون كل من البيض وهذه المادة في قوام القشطة ولا ترى افراده اذ ذاك بالعين لفرط صغره ودقته وكثرة تراكمه على بعضه ويكون في اول اطواره مصفراً كما مر ثم يتغير بعد ذلك فيسمر ثم يكون اخر الامر بنفسجي اللون وعند ذلك يتخلق فيه الحيوان ويخرج منه وهو في طيات الغشاء المذكور كما ذكر وعند ذلك تقذفه الام في الماء متتابعاً متعاقباً على صورة خيط ابيض يشاهد بالبصر فيخرج من كل محارة خيط ويتكون من المجموع طبقة عظيمة الاتساع بالنسبة لاتساع الصخور الموجود عليها المحار يتميز لونها عن لون الماء وحينئذٍ يكون لها منظر عجيب ولكن لا يلتفت اليها الاّ المشتغلون بامرها المعانون لتربيتها ومن الغريب ان هذا الحيوان الذي تنقضي مدة حياته في حالة السكون وعدم الحركة يكون عند ولادته وانفصاله عن اصله محاطاً بمادة تتكون منها محارته التي جعلها الله سبحانه وقاية له ويكون اذ ذاك في غاية الصغر والدقة بحيث لا يتميز افراده الاّ بالنظارة المعظمة ويكون له حينئذٍ شعور بها يسبح في الماء ويسرح حول اصله ويفزع اليه متى

دهمته اي حادثة تهوله فاذا كبر الحيوان زالت عنه هذه الشعور التي هي له كالارجل فيتعلق ببعض الصخور والاحجار فيستقر بمكانه ويثبت فيه ولا يتحول عنه وحجمه اذ ذاك لا يكون الاّ قدر خمس ميلي متر واحد اي بقدر جزء واحد من خمسة الاف جزء من المتر وبعد ثمانية اشهر يصل طوله الى نحو ثمانية ميلي مترات او عشرة وبعد سنة يكون قدر خمسة سنتيمترات ولا يتم صلاحه ويكمل الانتفاع به ويباع في الاسواق الاّ اذا بلغ ثلاث سنين وهذا هو المعتبر بين ارباب المعامل فانهم لا يخرجونه منها الاّ اذا بلغ هذا السن

وعالم المحار عالم كبير وعدده كثير حتى قيل انه اكثر المملكه الحيوانية عدداً وقد اختلفت اقوال الناس في ظاهره وباطنه فزعم بعضهم ان هذه المحارة او الصدفة الظاهرية التي تشاهد من الخارج هي عظم الحيوان والذي في داخله لحمه يعني ان هذا الحيوان يكون عظمه خارجاً وقد جعل وقاية للحمه ولحمه من الداخل على خلاف باقي الحيوان وقال اخرون وهو المرجح عند الاكثرين ان الحيوان انما هو اللحم وليس هذا المحار جزءًا من جسمه وانما يتكون من فضلات يبرزها الحيوان فتتراكم على بعضها وتختلف في الكبر والصغر بحسب كبره وصغره ومن النعم الالهية والاحسانات الربانية. عموم وجوده في بحار الدنيا وانهارها ولمحار كل جهة اوصاف وخصائص يتميز بها تخالف صفات ما يوجد في غيرها من الجهات

كما ان الذي ينشاء منه في البحار يخالف ما ينشأ منه في المياه العذبة والانهار وقد صار هذا الحيوان مما يستدل به على عمر الارض وما مضى عليها من الزمن بحسبما يوجد في طباقها واعماقها من اثاره



المسامرة الحادية والاربعون

الودع

فقال الشيخ كم لله في الكون من اسرار عظيمة وبدائع غريبة لا يفقهها كثير من العالم فهذا المحار يراه كثير من الناس من غير ان يتأملوا فيما فيه من عظيم صنع الصانع الحكيم وحسن تدبيره وعجيب حكمته وانما يشتغلون بما يقع تحت نظرهم من شكله ولونه وهيئته من غير ان يعرفوا أفيه حيوان ام لا وان كان فيه حيوان فما حاله وما كيفية معيشته فعادة عامة الناس أن لا يوجهوا افكارهم

الاّ لما يظهر لهم فيه فائدة خصوصية او تضطرهم اليه حاجة وقتية ولا يلتفتون الى ما ذكر ومن ذلك مسئلة الودع مثلاً فان كثيرًا من العالم يتخذونه زينة ويضعونه على روؤس اولادهم زعمًا منهم ان في ذلك حفظًا لهم من بعض الامراض فتراهم يميزون بعض انواعه على بعض وبهذا التميز تعلو القيمة وترخص من غير ان يلتفت البائع ولا الشاري لحاله وخلقته وكيفية معيشته وما فيه من عظيم الخلقة وعجيب الصنع وبعض الناس يزعم ان فيه سرًا وان به يمكن ان يطلع على ما في الغيب بواسطة جمعه بين الكفين ونثره والتامل في اوضاعه عند وقوعه على الارض ويستنبطون من ذلك بزعمهم امورًا من المغيبات يعتقدون صحتها ويصدق العامة بعضهم بعضًا في ذلك بل كثير من ضعفاء مَن يدعي العلم وبعض اصحاب المظاهر يتوهمون صدق ذلك وهذا كله مما لا يعلم له اصل ولا يعرف له وجه فان الله سبحانه وتعالى كما خلق عالم البر وجعله انواعًا كذلك خلق عالم البحر وجعله انواعًا ومن عالم البحر نوع هذا المحار ومن هذا النوع الودع كل ذلك لحكم ازلية واسرار على عوام الخلق خفية فحق على كل ذي نظر سليم وعقل مستقيم ان يتعمق نظره ويمعن فكره فيما يراه من مصنوعات الله ليعرف مزيته وسره ويطلب من خالقه الهداية الى الوقوف على سر ما اودع فيه من الحكمة الباهرة والصنعة الزاهرة ليزيد علمه ومعرفته ويكمل به منفعته ولا يغتر بما علمه وحصله لانه كالعدم بالنسبة

لما جهله ولا يقف عند علم الظواهر فانه حجاب يمنع من معرفة السرائر كغائص البحر لاخراج الدر يكتفي بمعرفة نفاسته وغلو ثمنه وعزته ويغفل عن معرفة اصل خلقته والاسباب التي نشأ عنها والمواد التي تولد منها مع ان معرفة ذلك ربما ادت الى معرفة امور يقوى بها ايماننا ويتسع بها معاشنا

المسامرة الثانية والاربعون

اللؤلؤ

فقال له يعقوب ان ما ذكرته حق ومعرفة الاصل في كل شي احق ولذلك لما وقف الهنود واهل الصين على كيفية تكوين اللؤلؤ في بطن المحار تحايلوا في تكثيره بكل حيلة حتى كثرت التجارة فيه عندهم وزادت عما كانت عليه في الازمان السابقة

فحصل لهم بسببه فوائد عظيمة حصلوا منها اموالاً جسيمة حتى كانت اعظم اسباب غناهم وكان السبب في ذلك انهم رأوا في داخل بعض اللآلئ اشياء دقيقة مثل رملة او بيضة سمكة فاستنبطوا من ذلك ان اللؤلؤ يتكون في داخل المحارة من حدوث عارض خارجي مثل ما ذكر فتحيلوا على ادخال شي من هذه الاجسام واشباهها بين فلقتي بعض محار لم يكن حدث فيه لؤلؤ ثم نظروا فيه بعد ذلك فراوه قد صار فيه لؤلؤا فعلموا صحة ما ذهبوا اليه واستعملوا ذلك في كثير من انواع المحار فنجحت اعمالهم وكثر اللؤلؤ عندهم وعظمت تجارتهم وزاد انتفاعهم وقد حقق اهل الفن ان اللؤلؤ يحدث في المحار من مرض يعرض لحيوانه عند دخول جسم غريب في جوفه فيضر بصحته ويتراكم حول هذا الجسم الغريب في كل سنة مواد صدفية يتكون منها اللؤلؤ فتارة يكون كبيرًا وتارةً صغيرًا ومنه ما يوجد ملتصقًا بالمحارة وما يوجد في داخل غشاء الحيوان نفسه

فقال الشيخ رأيت في بعض الكتب ان هذا اللؤلؤ يتكون من مطر ينزل في شهر نيسان فتتلقى بعض قطراته الحيات ويقع بعضها في الاصداف فما وقع في افواه الحيات صار سمًا ناقعًا وما وقع في الاصداف تبلور وصار لؤلؤا وعلى هذا قول الشاعر

ارى المعروف عند الحرّ دينًا * وعند النذل منقصة ونما

كقطر الماء في الاصداف در * وفي جوف الافاعي صار سمّاً

وقيل غير ذلك

فقال يعقوب الصحيح المحقق الان هو ما ذكرته لحضرتكم ويوجد محاره في عدة بحار في جهات مختلفة مثل البحر الاحمر في سواحل العرب وفي سواحل مملكة بابونيه ببحر الهند وفي سواحل الكاليفورنيه بامريكا ومعرفة كيفية استخراجه من الامور المهمة في جهات وجوده

وهذا الصدف في العادة يوجد على الصخور في المحلات العميقة من البحر بعيداً عن الشاطئ والعادة في استخراجه بجهة سيلان ان تجتمع المراكب المعدة لذلك وتسير الى ان تقرب من موضعه ويكون في كل مركب عشرون رجلاً عشرة لخدمة المركب وعشرة يتناوبون في الغوص عليه خمسة فخمسة وكيفية ذلك ان يشد كل منهم في احدى رجليه حبلاً فيه حجر لسهولة نزوله الى قاع البحر بسرعة ويجعل في رجله الاخرى حبلاً اخر فيه شبكة كالمخلاة وياخذ بيده اليمنى حبلاً ثالثاً قد شد طرفه الاخر بالمركب ليصعد به بعد انتهاء عمله ويسد انفه بيده اليسرى حين يلقي نفسه في البحر فاذا وصل الى قاع البحر حوّل المخلاة التي في احدى رجليه الى عنقه ثم يجمع ما يجده من المحار ويضعه في تلك المخلاة فاذا ضاق نفس الواحد منهم في اثناء الغوص هزّ الحبل الذي بيده فيشدونه الى سطح الماء وغاية ما يمكن للغطاس ان يمكث تحت الماء

نصف دقيقة فيغطس الواحد منهم بهذه الكيفية ثلاث مرات متوالية وان كان الجو موافقًا ربما غطس الواحد منهم نحو خمسة عشر مرة على التوالي وكثيرًا ما يخرج من انوف الغطاسين وافواههم واذانهم بعد خروجهم من البحر ماء مخلط بدم وربما تغتالهم حيوانات الماء خصوصًا الحيوان المسمى بكلب البحر فانه يترقب نزولهم ليفترسهم

فانظر كيف يجعل الانسان نفسه عرضة للتهلكة لاجل الحصول علي معيشته ويرى النساء والبنات يتجملن بهذا اللؤلؤ ويتحلين به ولا يبالين بان الحبة الواحدة منه ربما فقد بسببها واحد من الناس فهذه كيفية استخراج المحار من البحر

فقال الشيخ ذكرت بما حكيته من صفة استخراج هذا المحار قصيدة للاعشى ميمون مدح بها قيس بن معدي كرب الكندي تغزل في اولها بمحبوبته الى ان شبهها بالدرة ثم استطرد فوصف الدرة وحسنها ومن استخرجها من محلها وكيف عانى الشدائد في تحصيلها فقال وقد ذكر محبوبته

كجمانة البحريّ جاء بها * غواصها من لجة البحرِ
صلب الفؤاد رئيس اربعة * متخالفي الالوان والنجرِ
فتنازعوا حتى اذا اجتمعوا * القوا اليه مقالد الامرِ
وعلت بهم سجحاء خادمة * تهوي بهم في لجة البحر
حتى اذا ما ساء ظنهمُ * ومضى بهم شهر الى شهر

القى مراسيه بتهلكة * ثبتت مراسيها فما تجري
فانصب اسقف راسه لبد * نزعت ربا عيناه للصبرِ
اشفى يمج الزيت ملتمس * ظمأن ملتهب من القفر
قتلت اباه فقال اتبعه * او استفيد رغيبة الدهر
نصف النهار الماء غامره * وشريكه بالغيب ما يدري
فاصاب منيته فجاء بها * صدفية كمضيئة الجمر
يعطى بها ثمنًا ويمنعها * ويقول صاحبها الا تشري
وترى الصواري يسجدون لها * ويضمها بيديه للنحر
فلتلك شبه الماء لكنها * طلعت ببهجتها من الخدر

قال يعقوب لقد اجاد هذا الشاعر في حسن اسلوبه ولكني قد استعجم عليّ فهم بعض هذه الابيات فارجوان تم فضلك عليّ بشرح ما يحتاج الى الشرح منها

قال الشيخ نعم قوله كجمانة البحري الخ اراد به تشبيه محبوبته بالجمانة التي استطرد في صفتها والجمانة بضم الجيم واحدة الجمان وهو اللؤلؤ وقيل حبات تصاغ على شكله من الفضة والمراد هنا الاول وقوله جاء بها غواصها من لجة البحر يوافق ما مر في كلامكم من ان صدف الدر يوجد في المحلات العميقة من البحر بعيدًا عن الشاطىء وصلب الفواد بضم الصاد اي قويهُ وشديده وهو صفة الغوّاص وقوله رئيس اربعة يوافق ما ذكرته في صفة الغواصين من انهم يتناوبون الغوص خمسة فخمسة وقوله متخالفي الالوان

صفة الاربعة والاضافة لفظية والنجر بفتح النون وسكون الجيم الاصل يعني ان هولاء الاربعة اصلهم مختلف والوانهم مختلفة وقوله القوا اليه مقالد الامر اي ملكوه زمام امرهم والمقالد جمع مقلد وهو المفتاح وكذلك يجمع على مقاليد والاقليد المفتاح ايضاً معرب كليد الفارسي وجمعه مقاليد على غير قياس والاقليد ايضاً برة الناقة وهي حلقة تجعل في انفها والسجحاء بتقديم الجيم على الحاء هي الطويلة الظهر واراد بها السفينة وقوله فانصب اسقف الخ اراد به انه القى نفسه في البحر غائصاً ليستخرج الدر والاسقف بفتح الالف والقاف من السقف بفتحتين وهي طول في انحناء ولبد بكسر الباء اي متلبد وقوله اشفى فعل ماض يقال اشفى على الشي اذا اشرف عليه ويمج الزيت يقذفه من فيه كما هي عادة الغائص قال المسعودي غاصة هذا البحر (يعني البحر الذي فيه صدف الدر) يكون معهم دهن له في الماء بريق فاذا راوا حيوانًا موذيًا ارسلوا منه شيئًا فارتج في البحر صاعداً فتراه تلك الحيوانات فتفزع منه وتنفر عنه وكل من قوله اشفى وقوله يمج فاعلها ضمير اسقف وملتمس وما بعده من الوصفين نعوت لاسقف وقوله قتلت اباه الخ اي ان اباه هلك في حب هذه الدرة او في تحصيلها فقال هذا الغائص اتبعه في الهلاك او استفيد مالاً كثيراً والرغبة ما يرغب فيه وقوله نصف النهار روي بفتح النون والصاد والفاء ونصب النهار من قولهم نصفت الشي اذا بلغت نصفه وهو بهذه الرواية يذكر في النحوت

هذا على مجيء ضمير صاحب الحال في اخر الجملة الحالية فان الماء مبتدا وغامره خبره والجملة حال من ضمير نصف العائد الى الغائص وهذا ضعيف قليل وروي برفع النهار والجملة حال منه ولا رابط فتقدر الواو وقوله وشريكه بالغيب ما يدري وفي رواية رفيقه اي لا يعرف رفيق هذا الغائص حاله لكونه يغيب تحت الماء ومنيته هي ما يتمناه وصدفية حال من الضمير في قوله بها وقوله الا تشري اي الا تبيعها والصواري الملاحون وسجودهم لها لعزتها ونفاستها والتجر مصدر تجر يتجر تجرًا وتجارة من باب نصر فهذا بعض ما يتعلق بهذه الابيات من الشرح اما ما ذكرت من كيفية استخراج الصدف من البحر فقد رايت في بعض الكتب العربية ككتاب التيفاشي في الاحجار نحوًا منه ولكني لم اجد فيما رأيت منها كيفية استخراج اللؤلؤ من ذلك الصدف بعد اخراجه من البحر

قال يعقوب العادة في ذلك ان يفرز ما استخرجه كل واحد منهم على حدته ويترك حتى يموت الحيوان ويتعفن فيفتحون الصدف ويخرجون اللؤلؤ من جوفه وبعد ذلك يضعون اللحم في قدر ويوقدون عليه بالنار لتذوب مواده فيخرجون ما يجدونه في داخله من اللولو وجميع ما يوءخذ قبل الغلي له اناس ينظمونه في سمط او اكثر ثم يجلونه بترابه او بتراب الصدف ولاجل ترتيب اللولو على حسب تفاوت درجاته ينزلونه من غرابيل من نحاس

عيونها متفاوتة في القلة والكثرة والضيق والسعة وقد جعل لكل واحد من هذه الغرابيل نمرة على حسب ما فيه من العيون فما كانت عيونه عشرين كانت نمرته عشرين وما كانت عيونه ثلاثين كانت نمرته ثلاثين وهكذا

فاللولو الكبير الحبات الذي لا يمر من شي من هذه الغرابيل يقال له من الدرجة الاولى والذي يمر من غربال نمرته مائة فاكثر الى ثمانمائة يطلق عليه اسم الدرجة الثانية والذي يمر من نمرة الف يطلق عليه اسم الدرجة الثالثة

واما الصدف الذي يخرج من محار اللولو فهو الطبقة الباطنة للمحارة لا الظاهرة وهو ثلاثة انواع فضي وابيض واسود فالاول يجلب من الهند والصين والبيرو والثاني يكون من صخور مخضرة او حمراء والثالث من صخور زرقاء مشوبة بسواد ويكون فيه عروق حمر او زرق او خضر

واوان استخراجه من البحر في جهة سيلان شهر فبراير او شهر مارث ومدة استخراجه شهر واحد والمشتغلون باستخراجه بهذه الجهة قريب من مائتي مركب وقد تحصل منه في سنة ١٧٩٧ من الميلاد وهي سنة ١٢١٢ من الهجرة ثلاثة الاف الف وستمائة الف من الفرنكات وزاد في السنة التي بعدها نحو ثمانمائة الف فرنك ثم في ابتداء سنة ١٨٠٢ للميلاد الموافقة لسنة ١٢١٧ من الهجرة اعطي من قبل الحكومة الانكليزية لمن تعهد به في مقابلة ثلاثة

الاف الف فرنك التزاما

وليس هذا النوع مختصاً بجزيرة سيلان بل يستخرج ايضاً في جهات متعددة مثل جهة بنجال وبحر الصين والهند والبابونيا وغيرها وبلغ مقدار ما يتحصل في الجهات الهندية في السنة الواحدة من اللولو والصدف نحو العشرين الف الف فرنك

وممن يتجر في اللولو والصدف اهل السواحل المقابلة للعجم اعني سواحل بلاد العرب قال بعضهم ان الذي يتحصل من جهة البحرين خاصة في كل سنة يقرب من ستة الاف الف فرنك وان اخراجه في هذه الجهات في شهر يوليه وشهر اغسطس وما زال اللولو في جميع الازمان عند جميع الامم مستعملاً في حليّ النساء وزينتهن وكان الرومانيون يكللون به بعض ملابسهم وتيجانهم وبعض فرشهم ويقال ان كلوباتره وضعت مرة في قدح الشراب لولوة قيمتها الف الف فرنك وخمسمائة الف فرنك

ثم سرى اتخاذه والافتخار به من الرومانيين الى المشرقيين ثم الى الاوروباويين وفي كتب التاريخ انه في سنة ١٥٧٢ للميلاد وسنة ٩٨٧ للهجرة اهدي الى فيليب ملك اسبانيا لولوة في حجم الكمثرى وانه وجد سنة ١٦٠٥ من الميلاد وهي سنة ١٠١٤ من الهجرة عند امرأة من اسبانيا لولوة بلغت قيمتها احدى وثلاثين الف بندقي وان البابا ليون العاشر اشترى من بعض جوهرية البنادقة لولوة بلغ ثمنها ثلاثمائة الف وخمسين الف فرنك وفي

القرن السابع عشر للميلاد والحادي عشر للهجرة اشترى ملك العجم لولوة بالفي الف وسبعمائة الف فرنك ويوجد عند ملك العجم الان سبحة كل حبة منها قدر حبة الجوز لا يقدر لها قيمة وكذلك عند امير مسقط لولوة لا نظير لها على وجه الارض والذي يوجب للولو ارتفاع قيمته وزيادة ثمنه كبر حجمه وحسن لونه وقد كنت سمعت في ما يسمى به الكبير والصغير منه تفصيلاً لا يحضرني الان

قال الشيخ يطلق على الكبير والصغير منه اسم الجوهر ويخص الكبير باسم الدر والصغير باسم اللؤلؤ ويسمى ايضًا الحب واللولو الدق ولولو النظم

قال يعقوب فهل للكبر والصغر فيه حد معين

قال الشيخ نعم قال التيفاشي في كتاب الاحجار كل ما زاد عن وزن درهمين ولو حبة واحدة في الجوهرة المفردة سمي في اصطلاح الجوهريين درًا فاذا نقصت في الوزن عن درهمين ولو حبة ايضًا سميت في اصطلاحهم حبًا بشرط اجتماع سائر الاوصاف الجيدة في الدرة فان كانت زنتها اكثر من درهمين ولو ثلاثة مثلاً او اكثر الاّ ان فيها عيبًا من عيوب الجوهر فانها تسمى ايضًا في اصطلاحهم حبًا ولا يعتبر وزنها مع عدم اجتماع الاوصاف الجيدة فيها والجودة في الجوهر تكون استكمال خواصه المطلوبة فيه اما من حيث الكمية فبالعِظم وكثرة الوزن واما من حيث الكيفية فبشدة

البياض وكثرة الماء والاشراق واستواء اللون واستواء استدارته وشكله واكتنازه وما لم يكن كذلك فالآفات افسدته منها انه ربما كانت الدرة لم تتم تربيتها وربما لصق بها شي من لحم الحيوان فصار كالصدى والوسخ فافسد لونها وربما كانت كدرة او كان فيها ماء او دودة او كانت مجوفة غير مصمتة وكل هذا من آفات دخلت على الدرة في مقر التربية لها واما فساد شكلها فمن قبل ان الحبة تقع في موضع من اللحم الذي في الصدفة غير مستو فتتجسد الدرة على صورة الموضع الذي ضمها فجيد الجوهر في الجملة هو المدحرج اي المستدير من جميع جهاته الصافي الشفاف الكبير الجرم الكثير الوزن النقه اللون الضيق الثقب وجيد اللولو الدق هو الابيض النقي من الوسخ ثم ذكر تفصيل اثمانه على حسب ما كان قبل فقال اذا كان وزن الجوهرة مثقالاً وهي مستوفية لشرائط الجودة كانت قيمتها ثلاثمائة دينار فاذا كانت جوهرتين كل واحدة منها زنتها مثقال وهما بهذه الصفة وبشكل واحد لا يفرق بينهما في الشكل والصورة كانت قيمتها اكثر من سبعمائة دينار لاجتماعهما وتناسبهما في النظم واذا كان وزن الاثنتين مثقالاً وهما بهذه الصفة كانت قيمتها مائة دينار واذا كان وزنها ثلثي مثقال كانت قيمتها خمسين دينارا ورأيت في بعض النسخ نيفًا وعشرين دينارا واذا كان وزنها نصف مثقال كانت قيمتها عشرين دينارا فاذا كان وزنها ثلث مثقال كانت قيمتها خمسة دنانير والدرة وهي التي

وزنها درهمان وحبة مثلا او حبتان كما مرانذا اجتمع فيها شرائط الجودة كانت قيمتها سبعمائة دينار فان كانتا اثنتين على الصفة المذكورة كانت قيمتهما الفي دينار كل واحدة منهما بالف دينار بشرط اجتماعها بالاخرى والعقد المتعارف عند اهل بغداد خمس وثلاثون حبة اقل ما يكون وزنه سدس مثقال وهي اربعة قراريط قيمة عشرة عقود من هذا العقد ثلاثة ارباع دينار عقد ربع مثقال عشرة عقود بدينار عقد ثلث مثقال عشرة عقود بدينار وربع عقد نصف مثقال عشرة عقود بدينارين عقد ثلاثة ارباع مثقال عشرة عقود باربعة دنانير عقد مثقال عشرة عقود بعشرة دنانير عقد مثقال وربع بخمسة عشر العشرة عقد مثقال ونصف بعشرين العشرة عقد مثقال ونصف وربع بخمسة وعشرين العشرة عقد مثقالين بخمسة وثلاثين العشرة عقد مثقالين وربع باربعين دينارا العشرة عقد مثقالين ونصف بخمسين العشرة عقد مثقالين ونصف وربع بسبعين العشرة عقد ثلاثة مثاقيل بثمانين العشرة عقد ثلاثة وربع بتسعين العشرة عقد ثلاثة ونصف بمائة وعشرة العشرة عقد ثلاثة ونصف وربع بمائة وخمسين العشرة عقد اربعة مثاقيل بمائتي دينار العشرة فان كان نهاية في الجودة والصفاء والمائية كانت قيمة العقد الذي زنته اربعة مثاقيل كل عشرة عقود ثلاثمائة دينار لكل عقد ثلاثون دينارا ويخرج بعقوده حينئذٍ من باب العشرات الى باب الاحاد فتكون قيمة العقد الواحد الذي

زنته أربعة مثاقيل ونصف اربعين دينارا وعقد اربعة ونصف وربع بخمسة وخمسين دينارا وعقد خمسة مثاقيل بخمسة وستين دينارا وعقد خمسة وربع بخمسة وسبعين دينارا وعقد خمسة ونصف وربع بتسعين دينارا وعقد ستة بمائة دينار وعقد سبعة بمائة وخمسين دينارا

ويتضاعف بهذه النسبة الى اعظم ما يوجد منه في الوزن والغبطة فيه بحسب جودة اوصافه التي تقدم ذكرها وخلوه من العيوب وعيوبه التصديف وعدم الاستقرار (اي عدم الاستدارة) والصفرة والانبراص وهو فتح البياض وحصبته وعدم رونقه وسعة الثقب وصغر الجرم وقلة الوزن (اه مع تصرف واختصار)

وقد سمعنا بكثير من هذه الاحجار الثمينة كانت للملوك في الازمان الخالية قومت باموال كثيرة على نحو ما ذكرت وقد اورد الشيخ محمد بن ابي طالب الانصاري الصوفي اشياء من ذلك في كتابه نخبة الدهر في عجائب البر والبحر فمنها درة حملها مسلم بن عبد الله العراقي الى الرشيد فابتاعها منه بتسعين الف دينار وعرفت بالدرة اليتيمة لانها لم يوجد لها اذ ذاك في الدنيا نظير وكان للمتوكل سبحة فيها مائة حبة اشتريت كل حبة منها بالف مثقال قال وكان فيما اهدى ملك الهند الى كسرى جام ياقوت احمر فتحه شبر مملوء دراً قيمة كل درة الف وخمسمائة مثقال وكان لانوشروان بساط الشتاء مرصع بازرق الجوهر واحمره واصفره

وابيضه واخضره وانواع الجوهر فلما اخذ في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في وقعة الفارسية حمل اليه في الفيء فلما رآه قال ان امة ادت هذا الى اميرها لامناء ثم فرقه فوقع منه لعلي بن ابي طالب رضي الله عنه قطعة في قسمة مقدارها شبر في شبر باعها بخمسة عشر الف دينار

المسامرة الثالثة والاربعون

الدينار

فقال يعقوب الحديث شجون ارجوك ايها الاستاذ ان تمنّ بشرح لفظ الدينار ومعناه فكثيراً ما اسمعه في العربية ولا اعرفه

قال الشيخ لفظ الدينار قال صاحب القاموس وغيره انه معرب اصله دنار بتشديد النون فابدل من احدى النونين ياء

لئلا يلتبس بالمصادر ككذاب وها هنا مباحث

الاول قد ذكروا انه معرب ولم يذكروا من اي لغة عرب وقد وقع في البرهان وغيره من كتب اللغة الفارسية بالياء كما هو في العربية فيظهر كما في الاوقيانوس انه مركب من لفظتين احداهما (دين) والثانية (آر) الاولى بمعنى الطاعة والحشمة والاسلوب والدولة والسلطنة والثانية بمعنى المحضر والمحصل بصيغة اسم الفاعل من احضر وحصل فيكون معنى دينار محصل ما ذكر لانه سبب تحصل ذلك

الثاني قالوا ان اصله دنار ثم قلبت النون ياء والذي في الكتب الفارسية دينار بالياء كما مر على انه فارسي وقد وجد في كتب العربية بالياء ايضًا فالظاهر انهم توهموا فيه أنه عرّب على دنار بابدال الياء نونًا ثم استعملوه بقلب نونه ياء للتخفيف او اصله عربي برأسه اصله دنار ثم خفف بالابدال المذكور

الثالث الدينار قطعة مضروبة من الذهب للتعامل بها والمعتبر في مقداره شرعًا مثقال من الذهب كما هو مذكور في الكتب الفقهية في باب الزكاة وغيره وترى الفقهاء تارة يقولون في نصاب زكاة المال انه عشرون مثقالاً وتارة يعبرون بالدينار ومرادهم بالدينار والمثقال شي واحد والمثقال المعتبر شرعًا درهم وثلاثة اسباع درهم قال الطحطاوي في حاشية على شرح الدر اعلم ان الدراهم كانت في عهد عمر رضي الله تعالى عنه مختلفة

فمنها عشرة دراهم على وزن عشرة مثاقيل وعشرة على ستة مثاقيل وعشرة على خمسة مثاقيل فاخذ عمر رضي الله عنه ثلثًا كيلا تظهر الخصومة في الاخذ والاعطاء فثلث عشرة ثلاث وثلث ستة اثنان وثلث خمسة واحد وثلثان فالمجموع سبعة وان شئت فاجمع المجموع فيكون واحداً وعشرين فثلث المجموع سبعة ولذا كانت الدراهم العشرة وزن سبعة وهذا يجري في كل شي حتى في الزكاة ونصاب السرقة والمهر وتقدير الديات (انتهى)

ورأيت للشيخ مصطفى الذهبي الشافعي المصري رسالة في تحرير الدرهم والمثقال حررها سنة ١٢٧٣ من الهجرة قال فيها اما الدرهم والمثقال فقد نصوا على انهما لم يختلفا جاهلية واسلامًا يعني ان مقدارهما في الاسلام لم يتغير عما كان في الجاهلية مما حرره اليونان فقد تعامل الناس به حين ورود الاسلام مع سكوت الشارع على ذلك فالدراهم والمثاقيل الواردة في الزكاة وغيره محمولة على ذلك وليست مبهمة خلافًا لما توهمه بعضهم ونقل ابن الرفعة في التبيان والسروجي في شرح الهداية والسيوطي في قطع المجادلة والمقريزي وعبد القادر الصوفي وغيرهم ان اليونان قدّروا الدرهم باربعة الاف ومائتي حبة من حب الخردل البري وقدروا المثقال بستة الاف حبة من ذلك فالدرهم سبعة اعشار المثقال اي نصفه وخمسه والمثقال درهم وثلاثة اسباع درهم فالعشرة دراهم سبعة مثاقيل وذلك على قياس نسبة الذهب الصافي لمثل مساحته

من الفضة الصافية فان الذهب حينئذٍ يكون اثقل من الفضة بثلاثة اسباعها كما هو معلوم . هذا كلامه والذي اعلمه من كلام ما قدمنا ذكره ان الثقل النوعي للذهب الصافي بالنسبة للماء المقطر تسعة عشر وربع وثقل الفضة الصافية ايضًا عشرة ونصف وعلى هذا يزيد وزن الذهب عن مثل مساحته من الفضة ثلثي مرة وثمن مرة تقريبًا لا ثلاثة اسباع فلو اخذنا كرة من الفضة الصافية ووجدنا وزنها مثقالاً مثلاً ثم اخذنا كرة من الذهب الصافي مثل مساحتها ووزنها لوجدنا وزنها مثقالاً وثلثي مثقال وثمن مثقال تقريبًا لا مثقالاً وثلثة اسباع فلينظر

ثم قال الذهبي وانما قاسوا على هذه النسبة لغلبة استعمال الدرهم والمثقال في النقدين مع اشتهار المثقال في الذهب والدرهم في الفضة وانما قدروا بالخردل البري لكونه نوعًا واحدًا لا يختلف خفة ورزانة كما نقله المقريزي وغيره فالتقدير به منسق مطرد بخلاف باقي الحبوب فانه مختلف فلا يصح التقدير به نعم اذا كان الحب متوسطًا في نوعه خفة ورزانة صح التقدير به كما صنع المتاخرون رومًا لقلة العدد حيث قدروا الدرهم من الخردل البستاني الاحمر المعتدل المتساوي بالف حبة ومن الشثم الهندي الاسود البالغ المعتدل المتساوي بمائة واربع واربعين حبة ومن الشعير الاعزل الملآن المعتدل بخمسين شعيرة وخمسين ومن حب الخرنوب الاصم المعتدل المتساوي بستة عشر حبة واربعة

اخماس وقاسوا المثقال على الدرهم بالنسبة السابقة وجعلوا ذلك على وزان ما قدر به اليونان لكن لا يخفى ان المتوسط في الخفة والرزانة انما يعلم بمراعاة اوقات الاستنبات من الفصول الاربعة الزمنية واماكنه كما افاده ابن ابي الفتح الصوفي في رسالته تحفة النظار في انشاء العيار وذلك قد لا يتيسر فالاقرب بل العمدة على التحرير بالخردل البري فيوءخذ منه خمسون خردلة ويحرر بها صنجة لخمس حبة الخرنوب ويحرر بالمجموع صنجة للخمسين وبالمجموع صنجة لاربعة اخماس وبالصنجة الاولى والثالثة صنجة للحبة وتسمى قيراطًا فمجموع الصنج الاربع قيراطان وخمسان وذلك سبع درهم وعشر مثقال فيركبان على هذه النسبة كما مر فالمثقال اربعة وعشرون قيراطًا والدرهم ستة عشر قيراطًا واربعة اخماس قيراط والقيراط مقدار مائتين وخمسين خردلة وجعله السادة الحنفية مقدار ثلثمائة خردلة حيث قالوا المثقال عشرون قيراطًا والدرهم اربعة عشر قيراطًا وهو اصطلاح روعي فيه النسبة بدون كسر فتدبر وقد حدث في عرف مصر جعل الدرهم الشرعي ستة عشر قيراطًا والمثقال درهما ونصف درهم فيكون القيراط المصري مقدار مائتين واثنتين وستين خردلة ونصف خردلة ويكون المثقال مقدار ستة آلاف خردلة وثلثمائة فيزيد عن المثقال الشرعي قيراطًا مصريًا وسبع قيراط فالمثقال الشرعي من القراريط المصرية اثنان وعشرون قيراطًا وستة اسباع قيراط كما هو مقتضى النسبة الشرعية

ويوجد في بعض البنادقة ما هو بهذا المقدار ويسمى المشخص وقالوا انه معيار للمثقال الشرعي كما افاده الشيخ الصوفي فالمثقال المصري مثقال شرعي وربع خمسه فالعشرون من المثاقيل المصرية واحد وعشرون بالمثقال الشرعي واما الدرهم فقد علمت انه شرعي وقد حُررناه على درهم الملك الاشرف المختوم بختمه المحرر على الدرهم الشرعي فوجدناه مثله (اه المراد منه)

واما عيار الدينار وقيمته فقد كنت تكلمت في ذلك مع رجل من نبهاء الصيارفة وكان يعرف باتقان لغة الفرنسيس وكثرة الاطلاع على كتبهم فقال لي نقلاً عن بعض مؤلفيهم كان عيار الدينار في الاصل عند جميع الامم عاليًا جدًا يكاد يكون ذهبًا خالصًا فقد عثر على دينار مضروب في مدينة دمشق سنة ٩٧ من الهجرة وحرر عياره في دار الضرب بمدينة باريس فوجد في عيار ٩٩٧ بالنسبة للالف يعني ٣٢/٢٣ قيراط ٢٣ ويقرب منه الدينار الذي ضرب في زمن ابن طولون فانه كان عياره ٩٩٦ وكان يعرف بالاحمدي فبين هذا العيار وعيار صنف المحبوب الذي كان يضرب بمصر مدة استيلاء الفرنسيس عليها تفاوت كبير وفرق ظاهر لانه كان عياره ٣٢/٢٤ قيراط ١٦ يعني ٦٩٨ بالنسبة للالف وقيمة الدينار الذي كان التعامل جاريًا به الى القرن الثالث من الهجرة اربعة عشرفرنكًا وواحد وخمسون سنتيمًا وذلك يساوي بالعملة الديوانية الميرية المعروفة بالصاغ (وهذا باعتبار

عياره في تلك الاوقات وهو ٩٨٧ بالنسبة للالف ووزنه بالجرام ٤٫٢٨٢ جرامًا وهو اصغر من المثقال الشرعي بجزء من سبعة وثلاثين تقريبًا فان وزن المثقال الشرعي الذي هو درهم وثلاثة اسباع درهم يساوي علي حسب ذلك ١٦ باره و٥٧ غرشًا بالعملة الديوانية المذكورة (اه)

وقد وجدت هذه القيمة قريبة مما يستنبط من رسالة الشيخ الذهبي المتقدم ذكرها فانه بين فيها مقدار نصاب الزكاة من كل نوع من انواع النقود المتداولة في مصر فقدر النصاب من الجنيهات المصرية باحد عشر ونصف وربع وهي بمبلغ ١١٧٥ غرشًا والنصاب عشرون مثقالاً من الذهب فيخص كل مثقال باره ٣٠ وغروش ٥٨ وكذلك من العملة الفرنساوية المعروفة (بالبنتو) فان النصاب منها بمقتضى الرسالة المذكورة خمسة عشر وثلث فالمثقال فيها يساوي نحو ٨٩ غرشًا وكلاهما قريب مما مر ذكره وقس عليهما غيرهما قال وقيمة المثقال من ذهب البنتو بما فيه من الاضافة تساوي الان في مدينة باريس خمسة عشر مثقالاً ونصف مثقال من فضة الريال المعروف بالشنكو بما فيها من الاضافة ايضًا والاضافة عندهم في كل من الذهب والفضة تكون بقدر العشر

وقد صدر منشور من جانب الحكومة المصرية في اوائل شهر ربيع الاخر سنة ١٢٧٥ في تعيين مقدار الدية الشرعية فقدر فيه للدينار وهو المثقال اربعون غرشًا وثلاثون فضة وخمسة جدد

وللدرهم قرش وتسع وعشرون فضة باعتبار الدرهم وهو قيراط ١٦ يزيد قيراطين عن الدرهم الشرعي وذكر فيه ان حضرات العلماء المنوطين بالافتاء في مجلس الاحكام المصرية قرروا بعد المخابرة مع ناظر دار الضرب وتحقيق الاسعار والاوزان بحسب اسعار الذهب والفضة الغالبين على المضاف ان الواجب في الدية الشرعية باعتبار الاسعار الجارية وقتئذٍ بالنظر لقيمة الغالب في الفضة اي باعتبار الثلثين من الفضة والثلث من المضاف خمسة عشر الف قرش وثلاثة وتسعون غرشًا وثلاثون فضة بالعملة المعروفة بالصاغ الديواني وذلك قيمة عشرة الاف درهم شرعي واذا اعتبرت الدية من الذهب الغالب على غيره بالمعنى المذكور في الفضة تبلغ اربعين الف قرش وسبعمائة واثنين وستين غرشًا وعشرين فضة بالعملة المذكورة وذلك قيمة الف دينار والدينار هو المثقال كما مر (اه المراد منه)

وذكر المقريزي ان قيمة النقود في السبعة القرون الاول من الهجرة اعترتها تغيرات كثيرة ومنها الدينار فكان في سنة ٣٦٣ من الهجرة يساوي خمسة عشر درهما ونصف درهم وفي زمن الحاكم بامر الله ابي علي المنصور بن العزيز كثرت الدراهم كثرة عظيمة وكثر فيها الغش فصار الدينار يبادل باربعة وثلاثين درهما وعلت اسعار الاشياء وضجر الناس من ذلك فامر بجمع الدراهم الموجودة فجمعت وضربت جديدًا بعيار اعلى ما كانت عليه ونقل من دار

الضرب ٣٠ صندوقًا مملوءة دراهم جديدة ومنعت المعاملة بالقديمة وامر بردها في ثلاثة ايام فكان الناس يستبدلون الدرهم الجديد باربعة قديمة وجعلت قديمة الدينار ١٨ درهما من الدراهم الجديدة قال ولم يزل التعامل بالدينار مستمرًا بمصر وسائر البلاد الاسلامية الى مدة السلطان صلاح الدين فكانت اجرة الاجير وثمن البضائع وخراج الارض تقدر بالدنانير وكانت الدنانير المتداولة بمصر مختلفة فمنها ما كان من ضرب مصر ومنها ما كان واردًا من بلاد الروم وكانت الدنانير الواردة من الروم تعرف بالهرقلية

وكان يتعامل الناس ايضًا بالعملة المعروفة بالبندقي نسبة الى مدينة البنادقة (ونديك) من بلاد ايطاليا

وقد وجدت دنانير مضروبة في مصر باسم احمد بن طولون سنة ٢٥٤ من الهجرة وضرب القائد ابو الحسن جوهر الصقلي بمصر في زمن المعز لدين الله سنة ٢٥٨ دنانير كانت تسمى المعزية نسبة الى المعز

وضرب السلطان الناصر فرج بن برقوق سنة ٨٠٨ من الهجرة دنانير بعيار أقل مما قبله كانت تعرف بالناصرية

وكانت العرب في الاصل تتعامل بقطع من الذهب والفضة غير منتظمة الشكل بين مربع ومستدير وغيرهما ثم اختصت بالشكل المستدير في زمن عبد الله بن الزبير ايام خلافته بمكة وذلك سنة ٦٤ من الهجرة

وكان قطر الدينار القديم قدر ١٩ من الميللي متر وهو مساوٍ لقطر البندقي القديم الوارد من بلاد البنادقة والروم وبلاد الفلمنك ويساوي ايضاً قطر الفندقلي والزر محبوب

وكان يوجد على النقود من قديم الزمان صور مرسومة عليها وقيل انها بقيت كذلك في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وابي بكر وعمر ثم الى سنة ١٨ من الهجرة بدون ان يحصل فيها تغيير ما وكانت تشابه النقود الكسروية على ما ذكره المقريزي ثم اضاف اليها عمر لفظ الحمد لله في بعضها ولا اله الاّ الله في البعض ومحمد رسول الله في البعض واثبت اسمه في بعضها ايضاً

وضرب في زمن معاوية دنانير فيها رسم انسان متقلد سيفاً وكذلك ضرب في زمن عبد الملك بن مروان دنانير مؤرخة في سنة ٧٦ عليها صورة ورسم عليها في مدة الظاهر ركن الدين بيبرس في سنة ٦٥٨ من الهجرة صورة سبع وكانت تعرف بالظاهرية

ويقال ان اول من استحدث المعاملة الخالية عن الصور عبد الملك بن مروان وان الذي اشار عليه بذلك خالد بن يزيد ابن معاوية وقال له ان الملوك الذين عظموا اسم الله جل ذكره على النقود متعهم الله بطول الحياة وقال بعضهم كان السبب في ذلك ان عبد الملك المذكور كتب اسم رسول الله صلى الله عليه وسلم في كتاب ارسله الى ملك الروم فاغتاظ ملك الروم من ذلك

وارسل بلومه ويقول له ان لم ترجع عن مثل هذا كتبت اسم نبيكم على النقود بصورة تغتاظ منها فغضب لذلك عبد الملك واستشار خالد ابن يزيد فاشار عليه باستحداث نقود اسلامية للتعامل بها بدل نقود الروم (اه)

وقال في حياة الحيوان في ترجمة عبد الملك بن مروان وهو اول من ضرب الدراهم والدنانير بسكة الاسلام وكان على الدينار نقش بالرومية وعلى الدراهم نقش بالفارسية قال ولهذا سبب وهو اني رأيت في كتاب المحاسن والمساوي للامام ابرهيم بن محمد البيهقي ما نصه قال الكسائي دخلت على الرشيد ذات يوم وهو في ايوانه وبين يديه مال كثير قد شق عنه البدر شقًا وامر بتفريقه في خدمه الخاصة وبيده درهم تلوح كتابته وهو يامله وكان كثيرًا ما يحدثني فقال هل علمت اول من سن هذه الكتابة في الذهب والفضة قلت ياسيدي هو عبد الملك بن مروان قال فما كان السبب في ذلك قلت لا علم لي غير انه اول من احدث هذه الكتابة فقال سأخبرك كانت القراطيس للروم وكان اكثر من بمصر نصرانيًا على دين ملك الروم وكانت تطرز بالرومية وكان طرازها أبًا وابنًا وروحًا فلم يزل ذلك كذلك صدر الاسلام كله يمضي على ما كان عليه الى ان ملك عبد الملك بن مروان فتنبه له وكان فطنًا فبينما هو ذات يوم اذ مر به قرطاس فنظر الى طرازه فامر ان يترجم بالعربية ففعل ذلك فانكره وامر بالكتاب الى عبد

العزيز بن مروان وكان عامله بمصر بابطال ذلك الطراز على ما كان يطرز به من ثوب وقرطاس وستر وغير ذلك وان يامر صناع القراطيس ان يطرزوها بصورة التوحيد شهد الله انه لا اله الاّ هو قال وهذا طراز القراطيس خاصة الى وقتنا هذا لم ينقص ولم يزد ولم يتغير وكتب الى عمال الافاق جميعاً بابطال ما في اعمالهم من القراطيس المطرزة بطراز الروم ومعاقبة من وجد عنده بعد هذا النهي شي منها بالضرب الوجيع والحبس الطويل فلما ثبتت القراطيس بالطراز المحدث بالتوحيد وحمل الى بلاد الروم منها انتشر خبرها ووصل الى ملكهم وترجم له ذلك الطراز فانكره وغلظ عليه واستشاط غيظاً فكتب الى عبد الملك ان عمل القراطيس بمصر وسائر ما يطرز هناك للروم ولم يزل يطرز بطراز الروم الى ان ابطلته فان كان من تقدمك من الخلفاء اصاب فقد اخطأت وان كنت قد اصبت فقد اخطاؤا فاختر من هاتين الحالتين ايتهما شئت واحببت وقد بعثت اليك بهدية تشبه محلك واحببت ان تجعل رد ذلك الطراز الى ما كان عليه في جميع ما كان يطرز من اصناف الاعلاق حاجة اشكرك عليها وتأمر بقبض الهدية وكانت عظيمة القدر فلما قرأ عبد الملك كتابه رد الرسول واعلمه انه لا جواب له ورد الهدية فانصرف بها الى صاحبه فلما وافاه ضعّف الهدية ورد الرسول الى عبد الملك وقال اني ظننتك استقللت الهدية فلم تقبلها ولم تجبني على كتابي فاضعفت الهدية واني

ارغب اليك الى مثل ما رغبت فيه من رد الطراز الى ما كان عليه اولاً فقراء عبد الملك الكتاب ولم يجبه ورد الهدية فكتب اليه ملك الروم يقتضي اجوبة كتبه ويقول انك قد استخففت بجوابي وهديتي ولم تسعفني بحاجتي فتوهمتك استقللت الهدية فاضعفتها فجريت على سبيلك الاول وقد اضعفتها ثالثة وانا احلف بالمسيح لتأمرنّ برد الطراز الى ما كان عليه او لآمرن بنقش الدنانير والدراهم فانك تعلم انه لا ينقش شي منها الا ما ينقش في بلادي ولم تكن الدراهم والدنانير نقشت في الاسلام فينقش عليها شتم نبيّك فاذا قرأته ارفض جبينك عرقاً فاحب ان تقبل هديتي وترد الطراز الى ما كان عليه ويكون فعل ذلك هدية تودني بها وتبقى على الحال بيني وبينك فلما قرأ عبد الملك الكتاب صعب عليه الامر وغلظ وضاقت به الارض وقال احسبني اشأم مولود ولد في الاسلام لاني جنيت على رسول الله صلى الله عليه وسلم من شتم هذا الكافر ما يبقى غابر الدهر ولا يمكن محوه من جميع مملكة العرب اذ كانت المعاملة تدور بين الناس بدنانير الروم ودراهم فجمع اهل الاسلام واستشارهم فلم يجد عند احد منهم رأياً يعمل به فقال له روح بن زنباع انك لتعلم المخرج من هذا الامر ولكنك تتعمد تركه فقال ويحك من فقال عليك بالباقر من اهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم قال صدقت ولكن ارتج عليّ الرأي فيه فكتب الى عامله بالمدينة ان اشخص اليّ محمد بن علي ابن الحسين

مكرمًا ومتعه بمائة الف درهم لجهازه وبثلثمائة الف درهم لنفقته وحبس الرسول عنده الى موافاة محمد بن علي فلما وافاه اخبره الخبر فقال له محمد رضي الله عنه لا يعظم هذا عليك فانه ليس بشي من جهتين احداهما ان الله عز وجل لم يكن ليطلق ما تهدد به صاحب الروم في رسول الله صلى الله عليه وسلم والاخرى وجود الحيلة فيه قال وما هي قال تدعو في هذه الساعة بصناع فيضربون بين يديك سككًا للدراهم والدنانير وتجعل النقش عليها صورة التوحيد وذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم احدها في وجه الدرهم والدينار والاخر في الوجه الثاني وتجعل في مدار الدرهم والدينار ذكر البلد الذي يضرب فيه والسنة التي تضرب فيها تلك الدراهم والدنانير وتعمد الى وزن ثلاثين درهمًا عددًا من الاصناف الثلاثة التي العشرة منها وزن عشرة مثاقيل وعشرة منها وزن ستة مثاقيل وعشرة منها وزن خمسة مثاقيل فتكون اوزانها جميعًا واحدًا وعشرين مثقالاً فتجزئها من الثلاثين فتصير العدة من الجميع وزن سبعة مثاقيل وتصب صنجات من قوارير لا تستحيل الى زيادة ولا نقصان فتضرب الدرهم على وزن عشرة والدنانير على وزن سبعة مثاقيل وكانت الدراهم في ذلك الوقت انما هي الكسروية التي يقال لها اليوم البغلية لان راس البغل ضربها لعمر رضي الله عنه بسكة كسروية في الاسلام مكتوب عليها صورة الملك وتحت الكرسي مكتوب بالفارسية (نوس خور) اي كل

واشرب وكان وزن الدرهم منها قبل الاسلام مثقالاً والدراهم التي كان وزن العشرة منها ستة مثاقيل والعشرة وزن خمسة مثاقيل هي السمرة الخفاف والثقال ونقشها نقش فارس ففعل ذلك عبد الملك وامره محمد بن علي بن الحسين رضي الله عنه ان يكتب السكك في جميع بلدان الاسلام وان يتقدم الى الناس في التعامل بها وان يتهدد بقتل من يتعامل بغير هذه السكة من الدراهم والدنانير وغيرها وان تبطل وترد الى مواضع العمل حتى تعاد الى السكك الاسلامية ففعل عبد الملك ورد رسول ملك الروم اليه بذلك يقول انه عز وجل مانعك مما اردت ان تفعله وقد تقدمت الى اعمالي في اقطار البلاد بكذا وكذا وبابطال السكك والطروز الرومية فقيل لملك الروم افعل ما كنت تهددت به ملك العرب فقال لا انما اردت ان اغيظه بما كتبت اليه لاني كنت قادرًا عليه والمال وغيره برسوم الروم فاما الان فلا افعل لان ذلك لا يتعامل به اهل الاسلام وامتنع من الذي قال وثبت ما اشار به محمد بن علي بن الحسين رضي الله عنه الى اليوم ثم رمى يعني الرشيد الدرهم الى بعض الخدم (اه مع يسير تصرف)

قال وفي مراة الزمان وجد عبد الملك بن مروان في سنة ٧٥ من الهجرة دنانير مضروبة من مدة اربعمائة سنة من قبله مكتوب عليها اسم الاب والابن والروح فضربها دنانير جديدة ضرب عليها اسم الله ورسوله وبعض ايات من القران ومن ذلك

الوقت صار الذي يكتب على النقود عبارات من القران او الحديث او غيرها من العبارات الاسلامية وقد وجد دينار اسلامي قديم فوجد في احد وجهيه ثلاثة اسطر تحت بعضها هذه صورتها



وعلى الوجه الاخر هكذا



ولم يذكر اسم البلدة التي ضرب فيها ولا الملك الذي ضرب

في مدته وذلك التاريخ يوافق مدة سليمان بن عبد الملك ابن مروان وهكذا كانت الدنانير المضروبة في مصر الى القرن الثالث من الهجرة ولم يزل ينقش على الدنانير اسم الله ورسوله صلى الله عليه وسلم الى القرن السابع من الهجرة ثم بطل ذلك وصار لا يرسم الاّ اسماء الملوك والقابهم واسماء البلاد ويقال ان ذلك كان في زمن السلطان مراد بن اورخان سنة ٧٦١ من الهجرة ولعل هذا كان بالنظر الى ان الدينار او الدرهم ربما يقع على الارض او يقع في يد من يتهاون بصيانة ما عليه من الاسماء الشريفة والآيات القرآنية فاخير تنزيهها عن نقشها على النقود ويقال ان اول من وضع اسمه على النقود هو ابو جعفر المنصور العباسي في سنة ١٥٣ من الهجرة

فهذا ما حضرني الان مما يتعلق بالدينار الذي جرنا اليه مبحث اللؤلؤ والمحار وهو مبحث ظريف قطعنا به معظم الطريق من غير سآمة ولا ملل فان كان عندك فيه مزيد فاتحفنا به لنقطع فيه ما بقي من مسافة الطريق

المسامرة الرابعة والاربعون

دود الخشب وغيره

فقال يعقوب الكلام على المحار طويل حتى انه افرد بالتأليف وانواعه كثيرة جداً وقد رأيت ذات يوم بساحل البحر شيئاً مغروزاً في الرمل على هيئة المثبر الذي تضع فيه النساء الابر فسالت عنه رجلاً من اهل تلك الجهة فاخبرني انه نوع من المحار من عادته ان يحفر جحره في الرمل ويعمقه بقدر مترين فاكثر وله رجل مخروطية غليظة في اخرها استطالة يتيسر له بواسطتها ان يرتفع الى فم جحره مع كمال السهولة فاذا احس بادنى شي رجع في الحال وكمن في جحره بحيث لا يظهر منه شي البتة

ومن غريب امره انه عند جزر البحر (اي انحساره) عن الشاطئ يعرف جحره بخروق صغيرة في الرمل يخرج منها فقاقيع من الماء فاذا نزل في البحر واراد العود الى جحره اهتدى اليه بها واذا اراد الصيادون ان يخرجوه من جحره ليصطادوه وضعوا فوق

فم الجحر قبضة من الملح فيخرق ذلك الحيوان الرمل ويخرج من محل اخر فيسارعون الى القبض عليه فانه ان افلت منهم وفاتهم لا يقدرون عليه بهذه الحيلة مرة ثانية وشكل هذا الحيوان كشكل محار اصطواني وله في نهاية غشائه فتحتان احداهما يمتص بها الماء اللازم لاستخراج ما فيه من اكسجين الهواء المتخلل بين جواهره والثانية يقذف بها ذلك الماء بعد استخلاص الاكسجين منه ومن هذا الجنس من المحار نوع يحفر جحره في الارض في اي موضع اراد منها سواء كان في الطين او الحجر او الصوان او الرخام لا يبالي بصلابة الارض مهما كانت ولهذا يسمونه لغمي الاحجار تشبيهاً له بمن يقطع الاحجار بالبارود بالكيفية المعروفة باللغم وهذا الحيوان يمكث طول حياته في ظلمة جحره ولم يعلم احد كيفية حفره ولا رضاه بهذا الحبس مدة حياته

وفي هذا النوع بعض طول وغلظ وله في غشائه فتحتان ايضاً احداهما دقيقة يخرج منها قضيب ذو شعبتين احداهما يمتص بها الماء اللازم لاستخراج اكسجين الهواء المتخلل بين جواهره وهي مادة غذائه والثانية يقذف بها هذا الماء بعد اخذ خواصه كالذي قبله واما الفتحة الثانية وهي اغلظ من الاولى فيخرج منها رجله وهي قصيرة غليظة واهل تلك الجهات ياكلونه نيئاً من غير كراهية ويعدونه من مستلذات ماكلهم ولهذا النوع في الظلمة لمعان وضوء كهربائي يشاهد في الليل حتى اذا اكله احد من الناس ليلاً شوهد

على فمه هذا الضوء الكهربائي وبالجملة فحيوانات البحر تجل عن الحصر فمنها نوع يعرف عند البحارة بدود الخشب لانه يالف الخشب الذي يكون في الماء فياكله كما ياكل دود البر خشب البر وقد شوهد هذا الحيوان يخرق الخشب المغطى بالماء ايا كان لا يبالي بصلابته بالغة ما بلغت ويسلك في داخل هذه الاخشاب في طرق مختلفة فتارة تكون تابعة لاتجاه الياف الخشب وتارة تكون مقاطعة لها على انحاء مختلفة ومع كل ذلك لا يرى على ظاهر الخشب ادنى تلف ولا تغيير

وقد شوهد ان الواحد من هذا الحيوان متى عارضه في طريقه مانع يمنعه من التمادي والاستمرار فيه عدل الى غيره بحيث لا يختلط طريقه بطريق غيره وبهذه الكيفية يتلف باطن الخشب ويفرغ جوفه بالكلية مع بقاء سطحه الظاهري سليما لا يرى فيه اثر فان كان ذلك الخشب حاملاً لشيء من الاثقال كالعمد والخوازيق التي توضع في اس المباني المائية كالقناطر والارصفة ضعف بحكم الضرورة عن حملها ومقاومة ثقلها فيندق ويسقط بما عليه وقد شوهد تلف كثير من السفن بسبب هذا الحيوان

وفي القرن العاشر من الميلاد كادت مملكة الفلمنك تتلف بسبب فعل هذا الدود فانه اكل الخشب الموضوع في الجسور المعمولة لمنع ماء البحر الملح عن ارض الزراعة حتى كادت تضمحل وتزول بالكلية ويحل بالبلاد واهلها الحرَب والويل والعطب

فترتب على ذلك صرف اموال كثيرة في تقوية الجسور وتجديد الخشب

وقد راوْا في هذا النوع كراهة طبيعية لصداء المعادن كالحديد والنحاس فمتى كان في الخشب شي ما ذكر لم يوْثر فيه فلما علم الناس ذلك منه صاروا يضعون في الخشب الذي يكون في الماء مسامير غليظة ويكسون السفن بالنحاس احتراسًا منه وهذا الحيوان ايضًا من جملة انواع المحار وهو كدودة طويلة في داخل محارة ذات فلقتين تكسو جميع بدنه ويتناسل هذا النوع بالبيض كباقي المحار وبيضه كروي الشكل ولونه اصفر يضرب الى الخضرة ويكون في اول امره كديدان صغيرة وبعد قليل من الزمن يظهر له شعر دقيق يسبح به في الماء فاذا عثر بخشبة تعلق بها وثقبها ودخل في جوفها فيكبر فيها شيئًا فشيئًا ويكسى بالمحار فبلوغه الى غايته واستكمال آلاته يكون في داخل الخشب لا خارجه ولهذا النوع كغيره خصائص وكيفيات يطول شرحها ويتسع القول في عدها وهناك نوع من الحيوان المائي غريب له عادة عجيبة وذلك انه يتحايل على المحار بكل حيلة حتى ياكل ما في جوف المحارة من الحيوان ثم يسكن فيها ويسير بها الى حيث يشاء ويتقي بها شر عدوه كما يتقي المقاتل بدرعه ويتحصن بحصنه وهناك نوع اخر كالدود ايضًا لطيف الطبع ذو احساس ومن شانه ان يجعل لنفسه وقاية تقيه عوارض الجو فيعمد الى الاقمشة فيجعل له في

سمكها مسكنًا يحيط به مع كمال الاحكام والضبط وكلما كبر وسع في مسكنه وستر جسمه من غير ان يشعر احد به فاذا اراد احد كشفها وازال عنها ما صنعته من بيتها صنعت غيره في الحال مع كمال السرعة

ومن عجيب امر هذا النوع انه لو وضع على قطعة من القماش ذات الوان مختلفة عمل بيته بلونها فيكون مركبًا من قطع ذات الوان كالوان اصله وهذه الدودة هي المعروفة بارضة الجوخ واذا ماتت خرج منها حيوان ظريف الشكل بهيج المنظر ذو جناحين يطير بهما وهو من انواع الحيوان الذي يقال له عند العامة ابو دقيق وهنالك ديدان مائية لا تكتفي بثوب رقيق كما اكتفت الارضة بل تعمل لها مسكنًا من مواد صلبة كالرمل والخزف وتبنيه بمواد معروفة لها وقد تبنيه من صغير المحار او من بعض حشائش تقطع اطرافها وتلفها على نفسها لفًا محكمًا وتسير بها في قاع مجاري المياه العذبة

واغرب من هذا كله دودة الرصاص وهي دودة صغيرة تثقب الرصاص حتى اذا وصلت من عمقه الى ما يكفي لسكناها سكنت وسكنت وكثيرًا ما وجدت هذه الدودة ساكنة في الرصاص الموضوع في خراطيش البارود العسكرية وقد تاكل الصفائح المعدنية التي توضع على السقف في البلاد الباردة

وبالجملة فانواع الحشرات الصغيرة واوصافها وطبائعها

واشكالها شي كثير وشرحه يطول

وكان قد وصلا الى محلها فقال يعقوب وها نحن قد وصلنا واظنك تريد ان تستريح فان شئت اخرنا الكلام في هذا المقام الى وقت اخر فقام الشيخ الى محله فراى ان الانكليزي وولده لم يحضرا بعد فجلس برهة ثم قال ليعقوب لقد قطعنـــا المسافة في عجائب درسناها وغرائب سردناها وهو اولى من التكلم في ما لا يعني من امر زيد وعمرو وقد اتحفتني بما شرح خاطري وسرني كثير السرور فاني اميل بمجامع قلبي الى النظر في مخلوقات الله سبحانه وبدائع قدرته الباهرة وعجائب صنعته الزاهرة اذ بذلك يعيش الانسان عارفًا بربه مفوضًا اليه جميع اموره بقالبه وقلبه فيرضى عنه ربه ويعطف عليه قلب كل من رآه فيحبه وقد تذكرت بما ذكرت لي من دود الخشب دابة الارض التي آكلت منساة نبي الله سليمان عليه السلام فانه حين توفاه الله كان متوكئًا عليها فبقي كذلك حتى آكلت هذه الدابة منساته فسقط على الارض فعلم موته

فقال يعقوب ما معنى المنساة وما هذه الدابة وما فعلها

فقال الشيخ المنساة العصا والدابة في الاصل كل ما دب على الارض ولكن لما كان فعل هذه كله في الارض اضيف اليها فقيل دابة الارض والمراد بها الارضة وهي دويبة صغيرة قدر نصف العدسة تاكل الخشب والورق فاذا مضى لها من العمر سنة نبت لها جناحان تطير بهما والنمل عدوها وهو اصغر منها فياتيهـــا من

خلفها فيحملها ويمشي بها الى جحره واذا اتاها مستقبلاً لا يقاومها لانها تغلبه ومن شان هذه الدابة انها تبني لنفسها بيتًا حسنًا من عيدان تجمعها مثل بيت العنكبوت مخروطًا من اسفله الى اعلاه وله في احدى جهاته باب مربع ومنه تعلمت الاوائل وضع النواويس لموتاهم

المسامرة الخامسة والاربعون

دود القز

ومن عجيب هذه الحيوانات الصغيرة دودة القز وهي ايضًا في اخر عمرها تصير طائرًا ذا جناحين على نحو ما ذكرت في ارضة الجوخ ويقال لدودة القز المذكورة الدودة الهندية ايضًا ومن بديع امرها انها تكون اولاً مثل بزر التين ثم تكون دودًا والظاهر ان هذا البزر بيض في داخله هذا الحيوان فاذا جاء ابانه تحرك وخرج

من البيض ودب على الارض وذلك في اوائل فصل الربيع ويكون هذا الدود عند خروجه شبيه الذر في قدره ولونه ويخرج في الاماكن الدفيئة اذا كان مصرورًا في حق بغير حضن وربما تاخر خروجه فتجعله النساء تحت ثديهن فيخرج فاذا اخرج اطعم ورق التوت ويقال انه احسن غذاء له واحسنه ورق التوت الابيض وقد عرف بالتجربة ان مقدار عشرة دراهم من البزر يحتوي على اربعين الف دودة وعند اول خروجه من البزر يكفيه من ورق التوت من ١٦ درهما الى ٣٠٠ درهم ثم انه ينمو جسمه ويعظم بالتدريج حتى يصير قدر الاصبع وكلما كبرت الدودة وازداد حجمها زاد اكلها حتى يصل ما ياكله في اخر الامر الى نحو مائة وسبعين اقة في اليوم الواحد وفي اثناء ذلك يغير هذا الحيوان جلده اربع مرات في نحو اربعين يومًا وعند تغيير جلده في كل مرة منها يمرض ويقل اكله ويكون في حالة خدر وضنك وضجر وكانما ضاق عليه جلده وصار لا يسعه فاذا اراد نزعه اخرج من جوفه طرف خيط من الحرير يثبته في شي ما بجانبه ويتمسك به فينزع جلده ويخرج منه كما يخرج الانسان من ثوب ضيق عليه وحينئذٍ يفيق ويستريح ويعود لحالة النماء والاستكثار من الغذاء حتى ياتي وقت نزع الجلد الثاني بعد نحو اربعة ايام فيعاوده الضعف ويفعل فعله السابق حتى ينزعه ويخرج منه وهكذا حتى ينزع جلده الرابع وحينئذٍ يكون قد بلغ اشده وامتلا جوفه من

مادة الحرير فياخذ في النسج على نفسه بما يخرجه من فيه وفي هذا الوقت يكون لونه ابيض وجسمه عبارة عن عدة حلقات يرى في الاخيرة منها شي يشبه القرون ولا يزال يلف خيطه على نفسه في نحو ثلاثة ايام او اربعة الى ان ينفذ ما في جوفه. ويكمل عليه ما يبنيه حتى يصير كهيئة الجوزة ويبقى فيه محبوسًا قريبًا من عشرة ايام ثم يثقب عن نفسه تلك الجوزة بواسطة مائع يخرجه ويصيب به طرف الخيط من الداخل فيلين ويسهل عليه قطعه فيقطعه ويخرج من الجوزة في صورة فراش ابيض او ازرق له جناحان لا يسكنان من الاضطراب وقد يكون ما ينسجه على نفسه نحو ثلثمائة متر وعند خروجه يهيج الى السفاد فيبحث الذكر على الانثى ويسافدها فيلصق موخره بموخرها ويلتحمان مدة ثم يفترقان وعند ذلك يكون قد فرش له خرقة بيضاء فتنشر الانثى عليها البزر الذي تقدم ذكره وهو بيضهـــا وتبيض منه الواحدة نحو خمسمائة بيضة وفي عقب ذلك يموت كل من الذكر والانثى ويفعل بالبزر كما تقدم وهكذا

هذا اذا اريد البزر فان اريد الحرير ترك في الشمس يومًا او بعض يوم وذلك بعد فراغه من النسج بعشرة ايام فيموت وهو سريع العطب ويقال انه يخشى عليه من الفار والعصفور والنمل والوزغ وكثرة الحر والبرد وقد الغز فيه بعض الشعراء فقال

وبيضة تحضن في يومينِ * حتى اذا دبت على رجلينِ

واستبدلت بلونها لونين * حاكت لها خبا بلا نيرين
بلا سماء وبلا بابين * تنقبه من بعد ليلتين
فخرجت مكحولة العينين * قد صبغت بالنقش حاجبين
قصيرة ضئيلة الجنبين * كانها قد قطعت نصفين
لها جناح سابغ البردين * ما نبتا الاّ لقرب الحين
ان الردى كحل لكل عين

قال ابو طالب المكي في كتابه قوت القلوب وقد مثل بعض الحكماء ابن آدم بدود القز لا يزال ينسج على نفسه من جهله حتى لا يكون له مخلص فيقتل نفسه ويصير القز لغيره وربما قتلوه اذا فرغ من نسجه لان القز يلتف عليه فيريد الخروج منه فيشمس وربما غمز بالايدي حتى يموت لئلا يقطع القز ليخرج القز صحيحًا فهذه صورة المكتسب الجاهل الذي اهلكه اهله وماله وتنعم ورثته بما شقي هو به وقد أشار الى ذلك ابو الفتح البستي بقوله

ألم ترَ ان المرء طول حياته
معنًّى بامر لا يزال يعالجه
كدودٌ كدودِ القز ينسج دائمًا
ويهلك غمًا وسط ما هو ناسجه

وقال اخر

يفني الحريص بجمع المال مدته
وللحوادث ما يبقي وما تدعُ

كدودة القز ما بنيه يهلكها
وغيرها بالذي تبنيه ينتفعُ

قال ناقل الحديث فاظهر يعقوب علامة الاستحسان لما سمعه ثم قال قد انتشر في اقطار الارض مادة تربية هذه الدودة وصارت متداولة عند كثير من الامم وان كانت كيفياتها مختلفة وقد اشتهرت صناعة الحرير في بلاد اوروبا اشتهاراً كبيراً واتسعت اتساعاً وصل الى غاية عظيمة وتنوعت كيفية عمله تنوعاً كثيراً وصار يصنع خالصاً ومخلوطاً بغيره من القطن والصوف وغيرها ومطرزاً بالقصب والفضة والذهب في انواع من التحسين والنقش والتزيين وكثرت الانوال لعمله كثرة مفرطة حتى انه يوجد في مملكة فرانسة من الانوال مقدار مائتين وخمسين الفًا ويبلغ قيمة المتحصل فيها من الحرير منسوجًا وغير منسوجٍ نحو (٦٤٠) مليون من الفرنكات ويبلغ في بلاد الانكليز نحو مائتين وخمسين مليونًا فاذا اضيف الى متحصل بلاد الانكليز ما يتحصل في غيرها من ممالك اوروبا كان مجموع ذلك قريبًا مما يتحصل في مملكة فرانسا من هذا الصنف فهي اعظم الممالك في صناعته وان كانت لوندرة اكثر منها في تجارته

واول تربية هذه الدودة كان عند اهل الصين قبل ميلاد المسيح بنحو الفي سنة وعنهم اخذ غيرهم من سائر الناس واول من اخذ عنهم اهل الهند ومنهم انتشر ولعل هذا هو السبب فيما ذكرت من تسميتها بالدودة الهندية ثم اخذها العجم عن اهل الهند فحسنوها

واتقنوا صناعتها ووسعوا دائرتها ثم تعلمها اهل القسطنطينية وذلك في اواسط القرن السادس من الميلاد ثم اهل ايطاليا في القرن الثاني عشر منه ولم تعلم كيفيتها لاهل فرنسا الاَّ في القرن الثالث عشر

المسامرة السادسة والاربعون

ابو دقيق

قال الشيخ قد بلغني ان في حشرات الارض غير ما خضنا في حديثه من دودة القز وارضة الجوخ حيوانات اخر تنتقل من صورة الى صورة وبودي لو عرفت كيفية ذلك فان كان عندك في هذا المعنى مزيد شرح فهاته غير مامور فاني كثير الشغف بمعرفة امثال هذه الامور

فقال يعقوب اني مثل حضرتكم اميل بكليتي لمعرفة احوال افراد المخلوقات ولذلك قضيت اكثر عمري في قراة كتب التاريخ الطبيعي ورسائل كثيرة من هذا القبيل لاستفيد نتائج مشاهداتهم واجني من ثمرات معلوماتهم فوجدت في ذلك فوائد كثيرة وتخلصت به من ضياع الوقت في الكسل والبطالة والقيل والقال والنزاع والجدال

وغاية العلم في هذه المادة ان الحيوان يخلق اولاً في صورة ثم يتغير وينقلب الى صورة ثانية ثم الى ثالثة وليس التغير خاصًا بالصورة بل يعتري الطباع والاحوال ايضًا حتى لا يبقى فيه شي من احواله وطباعه الاولى فتراه يكون في اول مرة كدودة قذرة قبيحة المنظر راسية في قاع البحر مستورة بما في قراره من الوحل والطين فاذا انقضى الوقت المعين لهذه الحالة واراد الانخراط في سلك الحيوانات الهوائية علا على سطح الماء وتعلق بغصن من نباته فعند ذلك يتخلى عن ثوب الديدان ويتحلى بكسوة ظريفة الشكل وصورة بهية المنظر كثيرة الالوان ذات اجنحة كاللؤلؤ والمرجان فيطير بها في الهواء الى حيث يشاء فانظر كيف خرجت هذه الدودة المائية عن ذاتها الاولية الى صفة الحيوانات الهوائية وبتغير صورتها كما ذكر تتغير جميع طباعها واحوال معيشتها واحتياجاتها وسائر حالاتها وبعد ان كان غذاؤها مما في قاع البحر من الحشيش ترعاه دائمًا ولا تمله ولا تستغني عنه صارت لا تهواه

ولا تقربه كما انها بعد ان قضت مدة حياتها الاولية تحت الماء في الطين صارت لا تحب الاّ فضاء الجو ونسيم الهواء تمرج فيه وتعيش به ولا تالف المكث تحت الماء بل لا تطيقه ولا تقدر عليه حتى لو كلفت ان تقيم تحته لحظة لهلكت في الحال فلا مناسبة بين حالتها الثانية وحالتها الاولية وكذلك امثالها من الحيوانات التي تتغير طباعها واشكالها فان الحيوان ذا الاجنحة الزمرذية الذي تسميه العوام بالجعران وكان المصريون يعظمونه اصله من دودة تدب في بطن الارض لا نسبة بينه وبينها بوجه من الوجوه

وكان الاقدمون يجهلون ذلك الى زمن ارسطو وهو اول من فتح باب البحث في هذه المسالة الاّ انه تكلم فيها بالظن والحدس واستمر الامر على ذلك الى هذه القرون الاخيرة فنظر فيها كثير من الحكماء ومشاهير الطبيعيين فظهر ان الحيوان من هذا القبيل حين تخلقه يكون مجردًا عن الاجنحة في هيئة دودة صغيرة ثم ياخذ في الكبر وازدياد الحجم ياكل بعض الحشيش وغيره من المواد الارضية حتى اذا بلغ درجة معلومة من العمر لبس غير ثوبه وعدم الحركة بالكلية وصار في مقره كانه قد مات ودفن في قبره فيبقى كذلك مدة تنعدم فيها جميع الاحوال الدودية بتدبير الهي لا علم لاحد به ثم يظهر بعد ذلك في صورة اخرى ذات جناحين كالحيوان المعروف عند العامة بفرقع لوز وقد شوهد ان الدودة في حال انقطاع حركتها ولبثها بمقرها تكون كقطعة عجين ملتفة

في مادة زرقاء تكون لها كالكفن لرم الموتى التي ترى في قبور الاقدمين من المصريين فاذا جاء الوقت المعين خرقت هذا الكفن وخرجت منه وصارت في الصورة الجديدة ومن الغريب ان هذا الحيوان يخرج من بيته الضيق الذي صار قبراً له من غير ان يحصل لاعضائه الدقيقة ادنى خلل

وكثيرا ما يكون هذا القبر مركبًا من ثلاث طبقات الاولى مركبة من مواد موضوعة بحيث ينزلق المطر من فوقها والثانية من مواد الطف من الاولى شديدة الامتزاج ببعضها وهي لوقاية الجسم من العوارض الجوية والثالثة هي الثوب او الكفن الذي تقدم ذكره

ومن نظر في الحيوان المعروف بالبي دقيق وتتبع احواله واشكاله وجده يتغير ثلاث مرات ينقلب فيها الى ثلاث حالات ليس بين واحدة منها وبين الاخرى مشابهة البتة حتى يظن انه يموت ويحيي ثلاث مرات مع انه في الواقع ونفس الامر ليس كذلك وانما يعتريه سكون تام يتعطل فيه عن الحركة الظاهرة مدة من الزمن تشتغل فيها القوة الحيوانية بواسطة آلاتها الخفية بالانتقال من الصورة الحالية الى الصورة الجديدة فالدودة من اصل خلقتها مشتملة على جميع ما يلزم للصور التي تحول لها وتنقلب اليها فكأنما هي في ثلاثة اثواب مختلفة الهيئات بعضها فوق بعض فتنشق الواحد منها وتخرج منه فتظهر بهيئة ما تجنه فتبقى فيه ما شاء الله ثم

تخرج منه وهكذا حتى تظهر في الهيئة الاخيرة فتبقى عليها الى ان تموت بها وبعض الحشرات لا يظهر عليه عند تغيير صورته ما قدمنا ذكره من السكون وترك الحركة ولا تعتريه كل هذه التغييرات والتبديلات وانما ينتقل من صورة الى غيرها بتمدد اعضائه وكبرها مع التقدم في السن وبعضها يتنقل الى عدة صور يدخل فيها على التوالي من غير ان تظهر عليه حالة السكون المذكورة وانما تعلم صورته الدودية بعدم وجود الاجنحة وذلك كالحيوان المعروف بالبق

ومن الديدان المائية ما يبقى سنين عديدة على حالة واحدة ويتغذى بما في مستقر المياه من القاذورات ورم الاسماك فاذا تحول الى الصورة الاخيرة وظهر في تلك الهيئة اللطيفة لا يعيش الاَّ زمنًا قليلاً لا يزيد عن نصف ساعة ثم يموت بعد أن تبيض الانثى منه بيضها

فمن تامل في هذه الحيوانات وهي في مستقرها او راها وهي مستورة بكفنها في قبرها ونظر تعدد اشكالها والوانها وصورها واختلافها في كبرها وصغرها وانعم النظر فيما تظهر به وتجلي فيه من المنظر البهج والكسوة الفاخرة المطرزة بما يفوق وصف الواصف ويستوقف نظر الناظر ويزدري برونق الدرر والجواهر من النقوش الغريبة بالالوان العجيبة اذعن بالربوبية لخالقها ومبدعها القادر العظيم المدبر الحكيم وخضع لجلال عزه وعظمته وتبرأ من علمه

وحوله وقوته فما معلومات الانسان ولو امتد به الزمان بالنسبة لمعلومات الله سبحانه الآ كنسبة المعدوم الى الموجود فكيف يطلع علي كنه هذه الاسرار او يستخرج جوهر هاتيك البحار الا ان امده الله باعانته وشمله بحسن عنايته

المسامرة السابعة والاربعون

النحل

ومن قبيل ما نحن بصدده من الحيوانات المذكورة النحل الذي نشاهده ونجني منه الشهد فانه كذلك في اول مرة يكون دودة صغيرة ثم يكبر وبعد ذلك ينقلب الى الصورة المعلومة وله في ترتيب بيته وتدبير معيشته ونظام اموره ما يقضي بالعجب العجاب وهو انواع منها ما يالف الاجتماع على بعضه فيتالف منه جموع

كثيرة تشترك في المأوى والمعيشة وقد يجتمع في الخلية الواحدة نحو ثلاثين او اربعين الفًا ولا يزيد عن ذلك الاَّ نادرًا ومنها ما يالف الانفراد والاعتزال فيكون متفرقًا منعزلاً بعضه عن بعض ونحلة العسل يكون جسمها ازرق اللون كانه مركب من ست حلقات او عقد في الاخيرة منها حمتها (وهي الابرة التي تلسع بها المعروفة في لسان العامة بالزبان) وفي فمها خرطوم طويل تمتص به من الازهار ما تحتاجه لعمل العسل وعند سكونها تغطيه براسها وفي رجليها شي يشبه الفرشة تاخذ به من نبات الارض ما يلزم لبناء بيت العسل وهو الشمع

واذا نظرت الى النحل في تدبير احواله المنزلية واحكامه السياسية تراه كرعية سلطنة تامة النظام كاملة السياسة نافذة الاحكام

فمنها واحدة من الاناث هي اكبر الجميع واعظمها جثة وهي لها كالملكة الحاكمة ويقال لها اليعسوب وعليها مدار عمارة الخلية واكثار النسل بكثرة بيضها وبقية الاناث لا تطلب السفاد ولا تبيض وانما هي عمَلَة عليها العمل والخدمة والمدافعة عن الوطن والمسكن وسلاحها حمتها المركبة في ذنبها تناضل وتقاتل بها وليس للام ولا للذكور حمة كما سيذكر وطائفة الذكور عليها تلقيح الام ووطؤها

فوجود هذه الاصناف الثلاثة اي الام الملكة والاناث العمَلَة

والذكور لازم ضرورة في بقاء هذا النوع وتناسله وتربيته فلو فقد احد هذه الثلاثة لخربت الخلية وفني ما فيها بخلاف غيره من انواع الحيوان فانه يكفي فيه ذكر وانثى

وسبب لزوم هذه الثلاثة في هذا النوع ان الام التي هي كالملكة لا يتاتى لها تحصيل قوتها وقوت ما يتناسل منها من الذرية الكثيرة ولا يمكن لها عمل ما ياويها جميعًا من المساكن ولا شغل لها سوى انها تبيض بيضها وتلزم خليتها مدة عمرها وهي نحو خمس سنين فاحتاجت الى عمال وخدم تحصل لها رزقها ورزق ذريتها وتبني المساكن لها ولذريتها وكذلك ليس لها حمة تدافع بها عن نفسها فهي كثيرة الخوف قليلة الجرأة بحيث لو وقع بها نحلة غريبة لجبنت عن ملاقاتها وهربت منها داخل الخلية فرارًا من سطوتها فلا يقيها ويدافع عنها سوى بقية الاناث فهي لها من جهة بمنزلة الخدم والعمال ومن جهة بمنزلة الجنود والابطال ومع كونها مع الغريب الاجنبي بتلك المثابة تراها بين قومها في غاية العظم والمهابة واما احتياجها للذكور فهو من اجل السفاد لحصول النسل وتكثير الاولاد فهذا وجه الضرورة في وجود الاصناف الثلاثة المذكورة

ويتميز الذكر عن الانثى من هذا النوع بكبر عينيه وتقاربهما وليس له فرشة في رجليه لجمع الشمع ولا له حمة يلسع بها ولهذا يكون لين العريكة حسن الاخلاق كحال غيره من ضعاف الخلق ومن شأن النحل انه اذا كان الوقت غير موافق والهواء غير معتدل

لشدة البرد في الشتاء مثلاً فلا يخرج من خليته بل يلزمها ويقيم فيها ويأكل من العسل الذي بها فاذا اتى فصل الربيع واكتسى وجه الارض بالخضرة والزهور خرج للمرعى واكثر من الدوي والطنين حول خليته وقد قالوا ان الذكر منه لا يعيش زيادة عن ثلاثة اشهر وان الانثى قد تعيش الى ثمانية عشر شهرًا وهي اصغر من الذكر وقد اعتبرت بالوزن فوجد ان كل عشرة الآف منها تزن اربعة اخماس اقة مصرية وطائفة الاناث هي العمَلَة والخدام كما مر وعملها كثير فمنه جمع العسل والشمع من النبات والازهار وجلبه الى الخلية وتوزيعه على عيون الاقراص وادخاره فيها وتعهد البيض الذي تبيضه الام وتوزيعه على تلك العيون ووضع كل واحدة منه في محل يليق بها وتربية ما يخرج من ذلك البيض من صغار النحل حين تخرج في هيئة الدود الصغير فتغذيها وتتعهدها حتى تكبر وتقوى على الخروج من الخلية للرعي بنفسها فاذا وجدت درجة الحرارة قد تغيرت واشتدت بحيث صارت ربما تضر بهذه الصغار اقبلت عليها ترفرف باجنحتها حواليها وتروح لها بها لتعديل درجة الهواء بتحريكه في الخلية وتجديده ومن هذه العمال طائفة تقوم بامر الحراسة والخفارة وقت سكون باقي الجماعة في الخلية فان رأت ما لا قبل لها به من العدو نبهت الجماعة فيستعد الجميع لقتاله وصده ورده ومنها طائفة تلتزم بعمل الاقراص وما فيها من العيون وهي البيوت من مادة لزجة هي مادة الشمع

تستحضرها لذلك فانها حين تخرج للمرعى تحضر معها من تلك المادة ما يلزم لعمل الاقراص والبيوت ومن مادة العسل ما يلزم للغذاء والقوت فتضع اولاً الشمع وتصنع البيوت منه لتكون كالوعا للعسل وتجعل بعض تلك البيوت كبيرًا ومعظمها صغيرًا وجميعها مبنية علي الشكل المسدس وهو انفع الاشكال في عدم ضياع شي من الفضاء الذي يتخذ فيه اذا انضم الى امثاله فألهم الله سبحانه وتعالى النحل ان يختاره لبناء بيته فلا يبنيه مستديرًا ولا مربعًا ولا مخمسًا بل مسدسًا لخاصية في هذا الشكل لا توجد في غيره وذلك ان اوسع الاشياء واحواها المستدير وما يقرب منه فان المربع تخرج منه زوايا ضائعة وشكل النحل مستدير مستطيل فترك المربع حتى لا تبقى الزوايا فارغة ثم لو بناها مستديرة لبقيت خارج البيوت فرج ضائعة فان الاشكال المستديرة اذا اجتمعت لم تجتمع متراصة وليس في الاشكال ذوات الزوايا شكل سوى المسدس يقرب من المستدير في الاحتواء ثم تتراص الجملة منه بحيث لا يبقى بعد اجتماعها فرجة وهذه خاصية هذا الشكل الذي ألهم النحل ان يختاره فهو يبني بيوته عليه ويضعه تامًا محكمًا لا ينحرف كانما استنبط بقياس هندسي

ويوجد في كل قرص طبقتان متلاصقتان من البيوت وبعض هذه البيوت مخازن للعسل يدخر فيها الى وقت الحاجة ويسد عليه بسدادة من الشمع وباقيها لتربية البيض فيجعل في

كل بيت منها بيضة على انفرادها تضعها فيه طائفة العمال من النحل كما مر وتكون البيوت التي يوضع فيها البيض المشتمل على الذكور اكبر من التي يوضع فيها المشتمل على الاناث لما علمت من ان ذكران النحل اكبر من اناثه ويوجد في اطراف الاقراص بعض عيون كبيرة تسع الواحدة منها من العسل قدر ما يسع غيرها مائة وخمسين مرة الا انها قليلة وهي التي اعدت للبيض الذي يخرج منها اليعسوب .

ومن اللطائف ان العمال تعلم عدد البيض وكيفية توزيعه بقوة ادراك غريزية اودعها الله فيها فتبني البيوت على حسبه من قبل ان تراه وعمل العمال يختلف باختلاف الاوقات قوة وضعفاً فيضعف في الصيف ويقل فاذا جاء فصل الخريف ازداد شغلها وكثر اجتهادها فتملأ البيوت بيضاً وتتعهده الى ان يخرج كما مر وتخرج منه ذكور كثيرة في وقت معين فان ظهر فيه أم جديدة اجتهدت الام الاصلية في قتلها والا خرجت وتبعها كثير من العمال حتى اذا وجدت غصناً او خامة زرع تعلقت به واحتف بها ما خرج معها من جماعتها فان اخذت حينئذٍ ووضعت في خلية استوطنتها وعمرتها والا ذهبت الى فجوة في شجرة او حائط او جبل فاقامت بها مع توابعها

واما الام التي بقيت في الخلية الاصلية فبعد ثمانية ايام من ظهورها تخرج وتدور حول الخلية كانها تكشف امرها وتنظر ما

حولها ثم تعلو فوق طبقات الجو ذاهبة وعائدة في الهواء برهة من الزمن وبعد ذلك تعود الى الخلية وتمكث فيها طول عمرها الى ان تطردها منها احدى اولادها كما طردت هي امها وتبتدي في البيض من ثاني يوم من ظهورها فيخرج من بعضه ذكور ومن بعضه اناث ولكنه في وقت الشتاء اذا كان الهواء لطيفًا لا يخرج منه الاّ اناث

وفي مدة البيض يحف العمال بالام فيلحسونها بالسنتهم ويجعلون في فمها ما يلزم لغذائها من العسل ويرتبون البيض ويوزعونه على البيوت في كل طاقة بيضة ويخرجون ما زاد او فسد ويرمونه خارج البيوت وكلما وضعوا بيضة في طاقة سدوا عليها بمادة لزجة فاذا مضى عليها ثلاثة ايام صارت دودة فيفتح لها حينئذٍ العمال السدادة ويغذونها مدة ستة ايام في كل يوم عدة مرات ومادة الغذاء وان كانت عسلية الاَّ ان درجة حلاوتها تدبر بالنقص والزيادة على حسب تقدم الدودة في العمر وما يناسبها في كل سن وبعد تلك المدة يسد على كل دودة بغطاء فيه تحديب ليس كغطاء العيون المعدة لادخار العسل فانه مستوٍ وعند ذلك تقوم الدودة في بيتها وتعمل لنفسها ثوبًا كالحرير تحيط به حروف البيت وقاية لجسمها من خشونة مادته ويتم هذا العمل في يوم ونصف ثم بعد ثلاثة ايام تنقلب الدودة ذبابة صغيرة ملتفة في ثوب ابيض شفاف يرى منه ارجلها واجنحتها وباقي اعضائها فتبقي في هذه الصورة

سبعة ايام في هدء وسكون بلا حركة ثم تمزق ثوبها وتخرج منه فعند ذلك تحتاط بها العمال وتمسح جسدها وتمد جناحيها وتاخذها معها الى حيث شاءت من اعمالها تمرنها على العمل معها والمساعدة لها في اشغالها

ولكثرة مادة الغذاء في الصيف يكون بين الذكور والاناث صلح فيغدون ويروحون سواء فاذا قرب الشتاء وقلت المراعي تحرك من العمال عرق الغضب على الذكور لعدم الفائدة فيهم فيتفقون على قتلهم فعند ذلك تقف طائفة من العمال امام الخلية تقتل كل من مر بهم من الذكور وليس لذكور هذه الطائفة حمة تلسع بها وتدافع عن نفسها فتبطش بها العمال كما شاءت فتتلفها وتفني عدادها وهكذا تفعل بالذكور التي تحدث فتقتلها وترميها خارج الخلية وعند حلول فصل الشتاء يقل البيض وينقطع المرعى فياكلون مما في الخلية فاذا حل فصل الربيع وتفتحت الازهار ابتدأ البيض والتناسل كما مر والعادة في البيض الذي يخرج منه الذكور ان يكون فقسه وتفريخه في مدة ثلاثة ايام ثم بعد ذلك يكون دودة فتغذيها العمال ستة ايام بمثل ما مر وتضع الغطاء عليها وبعد وضع الغطاء تنسج ثوبها في ثلاثة ايام اخر وتنقلب ذبابة وتقيم على ذلك اثنا عشر يوماً ثم تخرج فيكون خروج الذكر في اربعة وعشرين يوماً بخلاف الانثى فانها يكون خروجها في اثنين وعشرين يوماً والبيض الذي يخرج منه اليعسوب يكون

فقسه وتفريخه بعد ثلاثة ايام فيخرج من الواحدة منه دودة كسائر الاناث التي هي العمال الاَّ ان لها في الغذاء كيفية مخصوصة تعرفها العمال فيكون غذاوها في اول الامر حامضاً ثم يزاد في حلاوته بالتدريج ويجعل بقربها منه في بيتها اكثر مما يعطى لغيرها فتعظم وتكبر عن غيرها ويوجد فيها خاصة التناسل وتكون امًّا ويعسوبًا ولا تمكث في عمل ثوبها الاَّ يومًا واحداً وذلك لما اكتسبته من القوة بسبب جودة غذائها وكثرته وخاصية مادته ثم تقيم بعد ذلك في الراحة والهدء والسكون مدة يومين ونصف يوم ثم تكون ذبابة وتقيم على تلك الحالة خمسة ايام فقط وتخرج من ثوبها بعد ستة عشر يومًا فقط هذا اذا اراد العمال ذلك والاَّ زادوا في سمك الغطاء وحبسوها مدة من اربعة ايام الى ثمانية على حسب مقتضيات الاحوال وفي هذه المدة يرسل لها الغذاء من ثقب يجعل في الغطاء المذكور فاذا انفتح الغطاء خرجت يعسوبًا وامًّا تتميز عن غيرها بخاصية البيض والنسل وعظم الجسم وذلك بخاصية هذا الغذا المخصوص بالام وهذه الخاصية في ذلك الغذاء ثابتة محققة حتى انه اذا وقع منه في بعض الاحيان جزء في بيت واحدة من العمَلة واطعمت منه نما جسمها وزاد حجمها وحصل لها خاصية البيض والنسل وحصل منها البيض بالفعل وربما وصلت الى نصف درجة الام وحينئذٍ تكون معرضة لاذى الام الاصلية وطائفة العمال تعلم ما في ذلك الغذاء من هذه الخاصية ولذا

اذا ماتت الام اختاروا في الحال دودة من الدود الذي يكون منه العمال فيغدقون عليها بالغذاء المذكور حتى تصير امًا ويعسوبًا وذلك لما ثبت عندهم من ان الخلية لا تعمر بدونها وانهم ان خرجوا من الخلية قبل ان يتخذوا لهم امًا بدلها بدد الدهر شملهم واحتاط بهم نحل الخليات الاخر وقتلهم

وقد قدمنا ان انواع النحل كثيرة لكن ليس منه في بلاد الاوروباويين الاّ نوعان احدهما ازرق البطون وهو ما يوجد بالبلاد المركزية والثاني تميل بطونه الى الصفرة وهو ما يوجد بجهات سيسليا وايتاليا وجزيرتي كريد والروم ويوجد منه في باقي بلاد الدنيا القديمة اثنا عشر نوعا واما الدنيا الجديدة وهي الامريكا فلم يوجد بها الاّ في زمن قريب واصله من نحل اوروبا نقل اليها فكثر بها الاّ انه توحش وصار يهوى الجبال والغابات مع ان ذلك لا يحصل باوروبا وقد شوهد هذا التوحش كذلك في غير النحل من سائر الحيوانات التي نقلت الى تلك الجهة

وقد كان العسل معلومًا عند سكان الامريكا من قبل ورود الاوروباويين عليهم الاّ انه كان اقل حلاوة وازكى نكهة واصفى لونًا واكثر ميوعة ولما دخل الاسبانيول هذه الارض وجدوا فيها نحلاً صغير الجثة قد اتخذ له بيوتًا في فجوات الاشجار ومغارات يصنع فيها اقراصه ويجمع بها عسله وكله ليس له حمة يلسع بها سواء في ذلك ذكره واناثه ويعسوبه ولذلك يمضي اليه الناس

ويجمعون عسله من محاله بالسهولة وبغير احتراس وبيوته مسدسة كغيره من النحل ومغطاة بطبقات من الشمع وبعضها للذكور وبعضها للاناث وحول هذه البيوت بيوت اخر اكبر منها قد اعدت للعسل شكلها غير شكل بيوت الذرية وديدان هذا النوع من النحل تصنع ثوبها بالطريقة التي قدمنا ذكرها ومن المحتمل ان يتحد ذكوره واناثه في العمل ولا مانع من ذلك حيث كانت كلها مجردة عن الذبان والحمة كما ذكر فبهذا السبب يكون الجميع بعضها مع بعض في التئام وراحة واطمئنان ويحتمل ان يكون العمل على حسب راي الامهات

وتكثير هذا النوع سهل لا صعوبة به اذ يكفي فيه ان يوخذ قرص او بعض قرص من اقراصه ويوضع في فجوة من شجرة او نحوها فعند ذلك يتولد منه عدد كثير ويتزايد على طول الايام وفي كثير من جهات الامريكا امكن للاهالي تأليف هذا النحل وجعله في حقاق من فخار وصناديق من خشب وقطع مجوفة من جذوع الاشجار فنجح الاَّ ان ما نقل منه الى بلاد اوروبا لم ينجح في تلك البلاد لانه في فصل الشتاء يمتنع عن الزاد

وهناك نوع منه لا يعيش الاَّ سنة واحدة ثم يموت ولا يبقى منه الاّ بعض اناث تخمد في فصل الشتاء فاذا انتهى البرد وانتشرت حرارة الشمس في طبقات الجو تنبهت من سكرتها وقامت من رقدتها ودارت في الغيطان والفلوات لترى محلاً لائقاً لبناء

بيتها فاذا عثرت به ذهبت من عروق النبات ومواد الارض الطينية بما تحتاج اليه وبنت لها بيتًا وفرشته بحرير تخرجه من جوفها ثم تسكنه ووضعت فيه من الشمع والعسل ما يلزم لحاجتها وغذائها وغذاء اولادها ثم تجعل فيه ثقوبًا صغيرة لتبيض فيها فتجعل في كل ثقب بيضة ومن هذا البيض يخرج دود صغير يتغذى بما ادخرته الام في تلك الثقوب من المادة الغذائية ولا تزال الام تستكثر من تلك المادة وتزيد فيها وتجلب لاولادها ما يلزم للغذاء منها ثم تنسج كل واحدة من هذا الدود لنفسها ثوبًا كالذي مر ذكره تقيم به المدة المعينة وتخرج منه لمساعدة امها في جمع المؤنة وتوسيع القرص باستحداث بيوت جديدة فيه وتوزيع ما يلزم من العسل في البيوت للمؤنة واكثر بيض الام يخرج منه اناث وقليل منه يخرج منه الذكور ويوجد في قليل من الاناث خاصية البيض والنسل كالام ولكن لا بقدر الام بل على قدر النصف منها وانما تخرج في الاخر ثمانية مثلها تشابهها في الكيفية والجسم والخاصية وفي اخر السنة يخرجن ولا يقمن مع الام بل يتفرقن في سائر الجهات ومنهن يحصل البيض والنسل كما حصل من الام الاولى ثم تموت تلك الام الاولى والذكور وباقي الاناث

قال ناقل الحديث فلما انتهى يعقوب من الكلام الى هذا الموضع قال الشيخ كانه يريد ان يريح يعقوب ويستخرج ما عنده كما هو عادة المسامرة اذكر اني كنت مرة افاوض بعض الاخوان

الحديث في امر النحل واحواله وبحضرتنا رجل من الحبشة يسمع فلما انتهينا الى ذكر انواعه وحكينا ما اطلعنا عليه قال ذلك الحبشي ان انواع النحل في بلادنا كثيرة والطفها نوع في حجم الذباب يسكن في الارض المنبسطة من الصحاري يصنع له بيتاً اجوف على هيئة الكرة املس كالنحاس قد فتح منه ثقبة صغيرة يدخل منها ويخرج فاذا خرج خرج متتابعاً واحدة اثر واحدة كانه حب نظم في خيط الاَّ ان الواحدة السابقة والواحدة الاخيرة اكبر حجماً من البقية فكانهما الام والاب فاذا حصل في الهواء تلوى ذلك الخيط حتى يرسم اشكالاً كثيرة فتارة يكون دائرة وتارة يكون قنطرة وتارة يكون عموداً منتصباً الى غير ذلك وعسل هذا النوع ليس له شمع بل يكون في ذلك البيت كالماء في الصهريج ولونه اصفر احمر وطعمه كطعم مربى الزنجبيل كانه لم يتخذ الاَّ حكاية له وذلك النوع قليل يخرج الناس في طلبه فربما غابوا في البحث عنه اياماً ولم يعثروا به ويعثرون به عند شروق الشمس حال خروجه فيقصدون الجهة التي راوه فيها فيفتشون حتى يعثروا بالثقب فيحتفرون منه فتارة يجدون العسل قدر نصف البيت او زاد وربما وجدوه قريب الامتلاء وذلك البيت قدر قعدة انسان صغير ثم اطرق الشيخ اطراق من اخذ الفكر بحواسه برهة وانتبه فرأى يعقوب كالمتعجب من حاله فقال كانك عجبت من اطراقي فاشار ان نعم فقال ذكرت اية من كتاب الله تعالى فقلت في

نفسي لا والله لا يقدر كتاب الله قدره الاَّ من اطال البحث بالنظر في اسرار مخلوقاته وعلمت ان الله جل ذكره قد ارشد عباده الى ذلك حيث جعل الكلام في بعض الحشرات قرآنا يتلى ويدرس فقال يعقوب اسالك تلاوة تلك الاية وتفسيرها وكان الشيخ مضطجعًا فاستوى جالسًا واخذ هيئة وقاره وتلا (واوحى ربك الى النحل ان اتخذي من الجبال بيوتًا ومن الشجر ومما يعرشون ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف الوانه فيه شفاء للناس) واتبع التلاوة بالتفسير فقال (اوحى ربك الى النحل) اعطاها الهداية لاعمالها المختلفة والهمها اسبابها واختار لفظة الرب من بين اسمائه واضافها لكل من يخاطب لان هداية النحل من وظائف التربية واشارة الى ان تربية الانسان بجهة تربيته لسائر الاشياء لا تفاوت في ذلك فلا فضل لشي على شي فيه ومنه يقول الله تعالى) ان الله لا يستحيي ان يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها) فنسبة العالم لما اشتمل عليه من صغير وكبير في فعله كنسبة البعوضة فالبعوضة وحدها عالم يعلم المتامل فيه عظمة قدرة صانعه سبحانه ما اعظم شانه ثم فسر تعالى الموحى بقوله (ان اتخذي من الجبال بيوتًا ومن الشجر ومما يعرشون ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللا) السبل الطرق الواحد سبيل والذلل جمع ذلول وهو السهل اللين الذي لا صعوبة فيه واراد بالطرق مسالكها التي تسرح فيها بابدانها

والوسائل المرتبة التي تحصل بها على مقاصدها ثم نبه على منافع العسل فقال (يخرج من بطونها شراب مختلف الوانه فيه شفاء للناس) وكأنه ارشد باختلاف الالوان الى اختلاف الخواص فعلى من اراد استعماله في الادوية أن يدقق النظر في طلب خاصة كل منها وقوله (فيه شفاء للناس) معناه نوع من الشفا فعلى العقلا ان ينتبهوا لذلك ايضاً

المسامرة الثامنة والاربعون

الحشرات

وكل خلق الله سبحانه عجائب وغرائب شاهدة بعظمته وكمال قدرته وحكمته ونحن لو نظرنا الى اصغر ما خلق الله كالنمل مثلاً كيف احكم خلقه واتقن تركيبه ويسر له رزقه وشق له السمع والبصر وسوّى له العظم والبشر وكيف دب على الارض وسعى في مناكبها لطلب رزقه وكيف ينقل الحبة الى جحره ويجمع في حره لبرده وفي ورده لصدره او فكرنا في مجاري اكله في علوه وسفله وما في الجوف من شراسيف بطنه وما في الراس من عينه واذنه لقضينا من خلقه عجبًا وللقينا من وصفه نصبًا فتعالى الذي اقامها على قوائمها وبناها على دعائمها لم يشركه في فطرتها فاطر ولم يعنه على خلقها قادر لا اله الاّ هو ولا معبود سواه

وتراها اذا خافت علي حبها ان يعفن اخرجته من جحرها الى

ظهر الارض ليجف وتفلق الحبة نصفين خوفًا من أن تنبت فتفسد الاّ الكزبرة فانها تفلقها اربعًا لانها من دون سائر الحب ينبت نصفها وليس كل ارباب الفلاحة يعرف هذا فسبحان من الهمها ذلك وكذلك تراها تشم رائحة الشي من بعيد وان كان لو وضعته على انفك لم تجد له رائحة واذا عجزت عن حمل شي استعانت برفقتها الى باب جحرها ويقال انها في اول الامر تكون كالدودة ثم تصير الى حالتها المعهودة فاذا كبرت وكمل سنها وقرب حينها ظهر لها جناحان تطير بهما وفي ذلك يقول الشاعر

اذا ما اراد الله اهلاك نملـة

سمت بجناحيها الى الطيرانِ

قال ناقل الحديث ثم احس الشيخ فتور يعقوب فاذن له في الانصراف الى موضع نومه وقام هو ايضًا فادّى ما كتب عليه واخذ مضجعه وبرهان وصاحبه لم يحضرا بعد فغلب النوم حتى اصبح وصاحت الطيور فانتبه يسبح مولاه ويشكره على ما اولاه وقضى وظائف صباحه راجيًا من الله تمام نجاحه وقبيل طلوع الشمس انتبه برهان فاوجز صَلاته وحضر عند والده وعليه اثار النوم فانبسط اليه واجلسه عن يمينه واخذ يساله عما راى في تلك الدعوة ومتى حضر وطفق برهان يخبره عن ذلك شيئًا فشيئًا الى ان حضر الانكليزي فدار الكلام بينهما يصف كل ما شاهد حال غيبته عن صاحبه فكان من كلام الشيخ ان قال ان مما قصه ذلك

الرجل ما وقع للماليك الذين هاجروا من مصرمع الجيش الفرنساوي وإن ذلك الوقت كان وقت فتن وإنتقام ومحن فقد هدمت قصور وخلت من سكانها قرى ودور وكم تشتت فيها عيال واسرت رجال ونهبت اموال وكم هتكت اعراض واستبيحت نساء وازهقت نفوس واريقت دماء وكم الفت في ذلك مولفات لو تليت على حجر لتصدع او على جبل لتزعزع وانحلت اذ ذاك عروة الحكومة واختل نظامها وتضعضعت احكامها وضعفت حكامها فكان الخلق كالبحر وقت هيجانه او القدر عند غليانه الاقوياء منهم كالاسود والذئاب والضعفاء كالفريسة بين الانياب ولم يكن للعقل حينئذٍ سطوة بل غلب على عقلهم جميعًا حظ النفس والشهوة فكان ينال الناس في اليوم الواحد ما لو وزع على سنين لكفاها فنعوذ بالله من تلك الاوقات واهوالها ومن احزاب السوء واعمالها ولم يكن هذا التعدي قاصرًا على المماليك بل عم الامة جميعًا خصوصًا جماعة الامراء والفضلاء وارباب الوظائف والعلماء فمنهم من قتل ومحي اثره ومنهم من فر بنفسه وانقطع خبره فاصبحوا لا ترى الاَّ مساكنهم وصار البلد خرابًا وتفرق من بقي به احزابًا كل يدبر ولاية يتوهمها ويلفق لها قوانين لا يفهمها ولم يتفقوا على طريق يسلكونها ولا قوانين يتمسكون بها فبقيت الحكومة من ذلك في اضطراب ومدت حوادث الزمن عليها يد الانقلاب فداخلني من استماع ذلك بمقتضى الطبيعة ما يعلم الله من الغم وعجبت من هذا

النوع بينا هو على اتم استقامة الاحوال التآنسية المدنية اذ طرأ عليه طارىء فخرج الى احوال لا يصدر مثلها عن الحيوانات العجم غير ان يعقوب ازال ذلك عني باحاديث تعجب الالباء في وصف بعض الحيوانات الصغار بما اعطيته من محاسن الاشكال ولطف الاهتداء الى غرائب الاعمال وسبب ذكره لذلك انه قدم لنا على السفرة إناء فيه محار فلم تقبله نفسي فسألته عن كيفية صيده وتسويته فشرح لي حاله واطنب وزادني من اخبار بعض الحشرات ما اعجب واطرب

فقال الانكليزي من لم يتامل في خلق الحشرات او يحتقرها ويتهاون بامرها فقد جهل واخطاء فان الله سبحانه خلقها لحكم واسرار علمها وان جهلها الانسان او فهمها وقد خصها الله سبحانه كما خص غيرها بامور كلفها بها وسخرها لها في هذا العالم لا قدرة لغيره على ادائها ولو وقف الانسان على ما فيها من النفع له ولغيره لما احتقرها وانزلها من دركات الدنآءة والخسة الى حيث انزلها بل لو عرف حقيقة ما اعدت له وما تؤدي عمله لكان ذلك داعيًا له ان يتنازل عن العظمة والسلطان ويخلع رداء الكبرياء والعدوان ويخضع لمولاه جل شانه ويشكره على ما جعل له من الخير والنفع وما دبر له من عجائب الصنع اذ لم تكن هذه الحشرات مجرد اجسام ممتعة بالحيوة الى الممات عارية عن الادراك بالكلية كما يزعمه كثير من الناس بل لها ادراك كغيرها ومن وُفق للنظر في احوالها

وتقلباتها في اعمالها وجد لها ادراكًا غريبًا واحساسًا بما يضرها وينفعها عجيبًا وافعالاً محكمة واعمالاً مرتبة منتظمة تدل على انها جارية على قانون منظوم ساعية في مقصود معلوم وامر محتوم وذلك من غير ان تقتدي بمثال تحاكيه وتعمل على شكله الا ترى الى الفراش المعروف بابي دقيق حين يخرج من قبره في فصل الخريف في هيئته التي تراه بها فانه حينئذٍ لم يكن سبق له روية غيره من جنسه حتى يقتدي به ومع ذلك تراه مقبلاً على عمله جادًا في تحصيل امله فاذا جاء فصل الربيع رأيته يجتهد في الاستعداد لتناسل غيره منه ويموت من غير ان يرى ذريته البتة

وهكذا الدودة التي تعيش في قرار الماء زمنًا طويلاً من مدة حياتها مغمورة بما فيه من الطين والحمأة متغذية بما فيه من الاغذية حتى اذا جاء الوقت المعين لخروجها من الما الى الهوا القت ثوبها الرث الدودي ولبست الثوب المزخرف الطيري وبقيت كذلك مدة حياتها فمن ذا الذي علمها ذلك ولقنها وهي في الما والطين كيفية معاشها في الفضا والهوا ولم تكن فارقت قرار الما من قبل ولا تعود لسكناها من بعد ولا شبه بين حالتها الاولى والثانية ولا مناسبة بينهما

فكل ذلك دليل على ان الله قد خص كلاً من هذه الحيوانات من الادراك بما تحتاج اليه في معيشتها وتهتدي به في امورها لتسعى فيما اعدت له بتدبير خالقها

قال الشيخ نعم هو كما تقول وهذه هي الهداية العامة المذكورة في قوله تعالى (الذي اعطى كل شي خلقه ثم هدى) اي اعطى كل شي من الاشيا صورته وشكله اللائق بما ينيط به من الخواص والمنافع ثم هداه الى طريق الارتقا والانتفاع بما اعطاه وعرّفه كيف يتوصل الى بقائه وكماله

فلكل نوع منها حظ من الادراك ينتفع به في امور معيشته قل او كثر كما لا ينكر

قال الانكليزي قد اعتنى علماء الطبيعـــة بمعرفة ما في الحيوانات من هذا فوجدوه يختلف بحسب عظم المخ واتساع الزاوية الوجهية فلو نسبت جباه الديدان والحشرات وروؤسها الى بقية جسمها بالقياس على جبهة غيرها من الحيوانات لوجد راسها كبيرًا ومجموعها العصبي عظيمًا وذلك بالنسبة لباقي جسمها وبالقياس علي غيرها من الحيوان كما ذكر حتى ان بعضهم امتحن ذلك فوجد في النملة والعنكبوت ادراكا اضعاف ادراك غيرها من الحشرات

وقد فعل بعض المشاهير من الطبيعيين تجاريب كثيرة على عدة عديدة من الحيوانات الفقارية من الانسان الى الاوزّ فظهر له ان زاوية الجبهة اذا كانت حادة جدًا كانت قوة الادراك قليلة جدًا وبالعكس اذا كانت منفردة جدًا كانت قوة الادراك حادة جدًا فزيادة الادراك بقدر زيادة الانفراج وعكسه بعكسه كما مر وعلم ان الاوز اقل ادراكا من غيره لصغر راسه بالنسبة لجسمه

وكثيرًا ما يوجد عند بعض الحشرات من قوة الادراك ما يعينها على طرق الحيلة والتدبير والمكر والخداع وامثلة ذلك اكثر من ان تحصر فمن ذلك ان بعض الحيوانات لا ياكل الاّ ما كان حيا ويعاف ما وجده ميتًا فتراه في قرار الماء دائمًا يسعى في تحصيل ما يتصيده ليتغذى منه فمتى عثر بدودة مما يطلبه اسرع اليها وانقض عليها وفي الدود ما يعرف ذلك ويحتال له فترى الدودة اذا رات عدوها هذا تركت الحركة بالكلية وتماوتت وصارت كانها لا حياة بها فتدخل هذه الحيلة على غريمها فيتركها ويمضي لسبيله فمتى راته ابتعد عنها نهضت بغاية ما يمكنها من السرعة وهربت وجدّت في الفرار وذهبت

ومن الحشرات ما تعوّدت الاطفال على صيده واللعب به فاذا حل في ايديهم تماوت وتهافت حتى يرونه كالميت فيطرحونه لقزارته فاذا طرحوه فر ونجا بنفسه

وبعض الحشرات يتحيل على التخلص من التعرض له والرغبة فيه بان يكسو جسمه بثوب رث قذر كريه الرائحة قبيح المنظر تمجه العين وتعافه النفس فيبقى فيه فاذا امن على نفسه خرج منه في هيئة لطيفة وصورة بهجة

وبعضها تخرج من بطونها مادة قذرة فتجعلها على ظهورها لتعافها الطيور التي تحب اصطيادها واكلها فاذا كبرت القت تلك المادة فتعلق بما يليها من فروع الاشجار فتسيل على الاوراق وتكسبها

لونًا احمر يضرب الى الخضرة

وبعضها اذا وقعت في يد احد اخرجت من بطنها بخارًا ابيض ذا رائحة كريهة مع دوي مفزع وصوت مزعج فيرميها من يده فتنجو بنفسها وكذلك اذا احست بطالب يقتفي اثرها فعلت ذلك مرارًا لترهب به طالبها وترده عنها وهي مولية على عقبها مسرعة في هربها ومن الغريب ان بقية بنات جنسها متى سمعت صوتها فعلت مثلها كانها تساعدها على عدوها فيجتمع من اصواتها المرتفعة ودويها الهائل ما يرد طالبها عنها فتنجو منه

ومن هذا القبيل الحشرات التي تاكل العنكبوت فانها تحايل حتى تجعل لها ثوبًا من بيت العنكبوت وتعفر جسدها بالتراب حتى لا تتميز منه فياتي العنكبوت فتاخذه وهو لا يشعر بها ثم تخلع ذلك الثوب وتعود الى حالتها الاولى

ومن ذلك النحل فانه اذا دخل بيته بعض اعدائه انقض عليه بعض العمال في الحال فيلدغه ويقتله ثم يرمي به خارج الخلية ويعود لعمله وما كان فيه بغاية السرعة والنشاط فان كان العدو كبير الجثة شديد البطش والقوة بحيث لا تقدر عليه التي تصادفه من النحل تراها في الحال أسرعت بائذان بقية اخواتها من العمَلة بامره واستدعائها لقتاله فتنثال عليها من كل جانب وتنسل اليها من كل حدب وتحدر عليه انحدار السيل فتهجم عليه وتقاتله مع غاية الاقدام والبسالة والجرأة فتلدغه كل واحدة منها بحمتها

وتفرغ فيه سمها حتى يموت لوقته وحينئذٍ تشتغل بمواراته لعجزها عن حمله ونقله الى خارج الخلية بسبب كبر جثته فينحط رأي الجميع على دفنه خوفًا من افساد الخلية بنتنه فتنطلق الى الخلاء وتاتي ببعض مواد صمغية تستخرجها من النبات بما اودعها الله سبحانه من الآلات فتكسو به تلك الجثة الميتة وتغطيها بطبقة سميكة تقيها من التعفن وتلفها لفًا محكمًا كما كان قدماء المصريين يفعلون بموتاهم ثم تودعها في حفرة مخصوصة تواريها بها في داخل الخلية فتتخلص بذلك من اذى هذا العدو في الحيوة وضرر نتنه بعد الممات

فهل مع ذلك يقال انها مجردة عن الادراك والتمييز حاشى لله ما هكذا خلقت بل جميع اعمالها مرتبطة بحسن التقدير والاحكام والتدبير لوقاية نفسها وبقاء جنسها ألا ترى ما يفعله النحل بالحيوان المعروف بسرنجوس وهو نوع من المحار يعيش في البر ويتغذى من نبات الارض واغصان الاشجار فانه يدخل الخلية في بعض الاحيان فاذا احس بالنحل ورأى هجومها عليه انكمش في محارته وتترس بها وتحصن فيها فلا ياتي اليها التوصل الى لدغه والفتك به ولكنها مع ذلك لا تدعه حتى تجعل جلده لحده ومحاره قبره فتاتي بمواد صمغية تسد بها عليه محارته فلا يمكنه خرقها ولا النفوذ منها فيموت بمكانه أفلا يثبت للنحل بهذه الحيلة شي من الادراك والتفكر ام يقال ان هذا الفعل منه اتفاقي من غير تبصر ولا تدبر

ومن لطائف بعض الحيوانات انها عند سيرها تكون منتظمة

انتظام العسكر سواء كانت سائرة للانتقال او لتحصيل القوت او للقتال فتراها سائرة سير فرق منتظمة وجيوش مرتبة يقودها رئيس يسوسها وقد جعلت امامها وخلفها افرادًا تكشف لها طريقها وتخبرها بما يعرض من حادث تحذره او عدو يخاف ضرره

ولا شي اعجب من عمل النحل في اتخاذ يعسوب لها اذا اقتضى الحال ذلك فقد علمت ان جميع الاعمال على الاناث التي هي العمال وانه لا شي على الذكور سوى تلقيح الام التي هي اليعسوب وانه لا يبيض ولا يميل للسفاد من الاناث الموجودة سواها واما بقية الاناث في داخل الخلية فكالمترهبّة لا تميل الى ما تميل اليه نفس الانثى من سائر الحيوانات وانما تؤدي ما يلزم من الاعمال وتجتهد في تربية ما وكلت به من العيال ولا تعطى الاناث من حال تربيته الا غذاء قليلاً جدًا على قدر الاحتياج الضروري كما كانت تربيتهن في الاصل بهذه الصفة ولذلك يضمر جسمهن ولا يعظم حجمهن ولا يكون فيهن ما في اليعسوب من خاصية الميل الى النسل

فاذا فقد اليعسوب من الخلية اخترنَ من بينهن واحدة يؤهلنها لان تكون يعسوبًا وذلك لعلمهن بما فيهن من اصل الجنسية والقبول لتلك الصفة والخاصية فيخترن بيتًا من البيوت يكبرنه ويزدن في سعته حتى يصير في قدر الواحد من البيوت المعتادة خمس مرات ثم يذهبن الى تلك التي اخترنها فياتين بها من

نحلها فينزلنها بذلك البيت الفسيح فمتى استقرت به احاطت بها جميع العملة يخدمنها ويغذينها باحسن ما يستخرجنه من الشهد العظيم الذكي الرائحة فتكبر سريعًا لحسن المواد الغذائية التي يغدقن بها عليها وتحرك عليها شهوة النسل والميل الى النحل والرغبة في اكثار جنس النحل وتكون اليعسوب لهم والاميرة عليهم فتامر وتنهى وتتصرف على حسب ما تقتضيه قوانين السلطنة ويعظم عندها حب اولادها الى حد لا غاية فوقه

وشفقة الحشرات على اولادها تفوق شفقة غيرها من الحيوان بمراتب كثيرة كما يعلمه من عني بتتبع امورها ومقارنتها بغيرها فان كان في غيرها من الحيوان ما ينتف شعر بطنه ليجعله فرشًا لاولاده كالارنب مثلاً ففي الحشرات ما يفعل اعظم من ذلك بدرجات كثيرةٍ فانها تنتف جميع شعرها لاولادها ولا تكتفي بجزء منه دون جزء ومتى باضت الحشرة لفت بيضها في عدة اثواب تصنعها لوقايته من العوارض الجوية ثم تموت هي

وهناك حشرات اذا باضت ضمت بيضها الى بعضه وغطته بنفسها واحاطته من كل جهة بجسمها فتكون له كالكيس والوقاية ثم تموت فاذا خرجت الاولاد من البيض وكبرت فعلت ببيضها ما فعله بها اصلها وهكذا

وهناك نوع قد تؤديه شفقته على اولاده الى استعمال طريقة هي خير له من قتل نفسه من اجل اولاده وذلك انه يعدو على

غيره من الحشرات فيقتله ويأتي به لحاجة ذريته

ثم ان اغذية الحشرات كغيرها من الحيوانات مختلفة باختلاف انواعها فمنها ما لا يتغذى الاّ من حيوان حي ولا يذوق شيئًا من الحيوانات بعد خروج روحها ومفارقتها الحياة وذلك دأبه وطبعه من حين ظهوره في حيز الوجود وابتدائه في تناول الغذاء وحيث كان في وقت صغره وزمن طفوليته لا يتاتى له صيد ما يتغذى به من الحيوانات الحية ولا يمكن للام صيدها وقيدها بقربه لياخذ منها ما اراد في اوقات الحاجة فلهذا تحتال الام لذلك بان تعدو على بعض الحيوان فتلقي على جسمه جزءًا من السم يخدره ويعدمه الحركة مع بقاء اصل الحياة فيه وتاتي به على هذه الحالة لتجده ذريتها عند خروجها من البيض حاضرًا عندها فتنهشه وتغتذي منه متى ارادت وهذه حالة بعض الذباب فانه يحفر لبيضه جحرًا في الارض يضعه فيه ثم يذهب الى عنكبوت او دودة يمج فيها جزءًا من السم فتسكن حركتها ثم يحملها الى جحره ويلقيها عند البيض ويسد عليه فاذا خرجت الاولاد من البيض وجدتها بجانبها فتغذت بها ومن اضطرار الذباب الى الغذاء من لحم الحيّ كان عده جراة على الحيوان فتراه يعمد الى الدودة الكبيرة مثلاً فيخرق جلدها بخرطومه ثم يضع بيضه على كثرته ووفرته موضع الخرطوم وتحت الجلد فاذا حصل الفقس وخرجت الاولاد تغذت مما في ذلك الخرق من اللحم والدهن ولا تقرب الاعصاب المهمة للحياة الاّ عند تهيئها للخروج

فترى حب هذا الذباب للاكل من الحي حمله على حسن التدبير في الاخذ من الجثة مع استبقاء حياة الحيوان وعدم ازهاق روحه بالكلية ومتى حان الاوان لخروج تلك الذرية من تحت الجلد الى الفضاء ولم يبق لها حاجة الى استبقاء حياته فعند ذلك تاتي على ما فيه من الاعضاء المهمة وتبادر الخروج من خروق تثقبها في جلده ومتى خرجت عملت كل واحدة منها لنفسها خيطاً محكماً تلتف فيه وتتراكم فوق سطح الجثة فتغطيها بكثرتها بحيث لا ترى العين منها شيئاً

ومن الحشرات التي لها مزيد اعتناء بحفظ نسلها الجُعل (وهو ابو جعران) الذي كان يعظمه المتقدمون من المصريين وان كان لا يحتفل الاَّ بواحدة من بيضه في المرة الواحدة وذلك انه اذا باض عمد الى روث دابة من الحيوانات الآكلة للنبات كالبقر والغنم مثلاً فياخذ منه قطعة يضع بيضته في وسطها ثم يلفها ويدحرجها الى جهات مختلفة حتى يجعلها كروية الشكل فاذا صارت بهذه الصورة لف عليها رجليه الخلفيتين لان فيهما انحناء وقابلية لهذا العمل ثم يدحرجها ويجرها معه الى اي جهة ذهب فتكتسب صلابة وملاسة بكثرة دحرجتها ومرورها على التراب والرمل الناعم ولا يفارقها لعروض مانع يمنع وقاطع يقطع بل يغالب بها الموانع والقواطع ولا يزال يجرها حتى يبلغ بها حيث شاء فاذا صادف ارضاً ذات ميل وانحدار كسفح جبل او نحوه بذل ما عنده

من الجهد ودفعها بالقوة والباس فان تفلتت منه بحث عنها بغاية الجد والاعتناء والهمة وهو في حال من الكآبة والحزن تلوح عليه اثارها وتظهر سماتها ولا يزال كذلك حتى يجدها ويعود بها لما كان عليه فان اضلها او اخذها انسان ويئس هو من العثور بها باض غيرها وصنع بها كما صنع بالاولى فاذا تمت صلاحيتها واستدارتها حفر لها حفرة في الارض ودفنها فيها وتركها

وبما له من هذا العمل والجد ومزيد الكد والجهد احترمه المصريون وجعلوه علمًا ودليلاً على الخصب والبركة وحسن السعي والحركة

فقال الشيخ هذا كله من جملة ما انعم الله به على انواع مخلوقاته حيث خلق في كل نوع ادراكًا لتحصيل ضرورياته والتحيل على قضاء حاجاته والسعي في وقاية نفسه وبقاء نوعه وجنسه فرأفته سبحانه عمت سائر المخلوقات لا يستبد بها قوي على ضعيف ولا يفرق فيها بين وضيع وشريف بل الكل مغمور في بحار احساناته ورحمته العامة لجميع مخلوقاته ومن تامل احوال عالم الحشرات والهوام وجد فيها من الادراك والالهام ما لا تحيط به العبارة ولا تصل اليه الاوهام فمنها نوع لا يتعيش الاّ باكل الصيد. فيستعمل طرقًا تكاد تجعله لاختلافها انواعًا فمنها ما ينقض خلف ما يصطاده فلا يتركه الاّ اذا ظفر به ويقبض عليه ومنها ما ينصب شباكًا ليقع عدوه في حبالها وقد صادفت ذات يوم حشرة

صغيرة تعرف عندكم باسد النمل رايتها تحفر جحرًا في الرمل ووجدت على البعد من جحرها نملاً كثيرًا ميتًا يظنه من لم يتامله انه اثر دم فاحببت ان اعرف كيف تفعل فقعدت اتفقد احوالها فوجدتها تحفر جحرًا كامل الانتظام في رمل جاف ناعم جدًا ورايتها تحفره براسها فتضع راسها في المركز ثم ترفعه فيرتفع التراب معه فتلقيه بعيدًا عن الجحر بسرعة وقوة ثم ترفع غيره براسها وتقذفه كما فعلت اولاً وهكذا على التوالي والاتصال بحيث ترى التراب يمر مر السحاب على التعاقب والتتابع حتى اكملت تعميق حفرتها كما ارادت وجعلت في سطوحها وحوافيها من الميل والانحدار ما شاءت ثم رايتها دخلت فيه واختفت به بحيث لم يكن ظاهرًا منها سوى رجليها فعجبت لذلك ومكثت اترقب ماذا تفعل واذا بنملة قد اتت حتى اذا وصلت الى حافته انزلقت رجلاها فوقعت من اعلاه الى اسفله فاطبقت عليها تلك الحشرة برجليها وقتلتها ولم تتمكن النملة من الصعود ثانيًا لما في حوافي الجحر المذكور من الميل والانحدار مع تهايل الرمل

ثم وجدت ايضًا دودة كبيرة اتت على حافة الجحر فوقعت فيه كذلك فاجتهدت في التخلص منه بكل قوتها فلم تمكنها تلك الحشرة من غرضها بل صارت تلقي التراب عليها لتعوقها وتعطل حركتها حتى كلت وضعفت قوتها لكثرة صعودها وسقوطها وما كابدته من التعب والعناء فوقعت في مركز الجحر ساقطة لاحراك بها

فتلقفتها الحشرة وهي لها بالمرصاد فقتلتها ومصت دمها ثم انها رات ان بقاء الجثث في الجحر يضربها ويخشى عليه من نتنها وخبث رائحتها وان رويتها منفرة لما عساه ياتي من الحيوانات الطارئة داعية للاحتراس والتحرز من الوقوع في مثل ما وقعت فيه هذه الاجساد من العطب فرايتها بعد ان امتصت دمها الذي هو غذاؤها وبغيتها وتم غرضها منها ولم يبق لها ارب في بقائها احتملتها على راسها بنشاط وسرعة وطرحت بها بعيدًا عن الجحر بحماس وقوة ثم عادت الى حالتها الاولى ترتقب ما ينساق اليها من رزق جديد يقع في حبالها فقضيت العجب من حالها

وقد سمعت ان في بلاد امريكا حيوانا كبيرًا يعرف بآكل النمل منه ما يبلغ طوله نحو سبع اقدام فاكثر وارتفاعه نحو قدمين وله فيما سمعت انواع كثيرة كلها متشابهة في ان لها فما صغيرًا ولسانًا طويلا يسد مسد الاسنان قد يبلغ طوله نحو ثلاثين اصبعًا وهو حريص على اكل النمل واهلاكه وليس في اعداء جنس النمل ما هو اشد فتكًا به واكثر اساءة اليه ونكاية فيه من هذا الحيوان ومما علم من احواله ان مقدار منقاره يكون غالبًا ربع طول جثته وطرفه غليظ ولسانه في الغالب ذو طاقين وهو وسيلته الوحيدة التي يتعيش بها ومن طبعه ان يجعل مأواه في الغياض والجبال الخالية ويختفي احيانًا تحت الاوراق اليابسة وذلك لعجزه عن المحاماة عن نفسه بالقوة والحيلة حين يدهمه ما هو اشد منه باسًا ولذا تراه لا

يكاد يخرج من مأواه الاَّ اذا دعاه داعي الجوع والسغب واذا خرج فكد ساعة واحدة كفته المؤنة ايامًا اذا كان النمل في تلك البلاد كبيرا وفي غاية الكثرة وحين يشعر بمحل فيه نمل يبادر اليه رويدا ساكنًا حتى اذا استقر في موضع ملائم مد لسانه على الارض وتلقف به ما شاء وكلما نال به قدرا بلعه واعاد ما بدا به حتى يتخم فيرجع الى ماواه ثم انهُ وان يكن يحذر اعداءه من ذوات الاربع ويتقي بأسها غير انه اذا اقتحم ووقع في المعمعة دافع عن نفسه بمخاليبه باشد عداوة فيغالب الكلب بل النمر الامريكاني

وهذا الحيوان وان لم يكن من الحشرات الصغيرة الاَّ انا ذكرناه بالذي قبله والشي بالشي يذكر

قال الانكليزي من حذاق الحشرات في الاصطياد والتحيل على بلوغ الغرض حيوان العنكبوت فمنه ما يمد حباله في الغيطان بين اغصان الاشجار ومنه ما يمدها في زوايا الاماكن واركانها فيجعله كالشبكة المصنوعة والحبالة المنصوبة وفيها طبقة سفلية عليها شي من التراب والغبار بحيث تشتبه بالارض فاذا وقعت فيها الغنيمة من ذبابة او نحوها مما يغتذي به ويصطاده علقت بها حبال متصلة بتلك الطبقة من شبكة فوقها تلتف عليها فترتبك في امرها ولا تجد للخلاص سبيلا ولا للنجاة حيلة وحيوان العنكبوت مختبيء في مخدع له هناك اشبه بالقنطرة المعقودة اسطواني الشكل له بابان احدهما افقي والاخر عمودي على فوهته من اسفل الشبكة

ولكل منهما غرض مخصوص قد اعد له فمن الاول ينفض العنكبوت على قنيصته فيفترسها والثاني يلقي منه ما فضل عنه بعد مص دمه حتى لا يستقر في بيته شي مما يقع فيه فيقذره ويكون منبهاً لما عساه يقع فيه فيحذره فلو تأمل الانسان في اسفل المكان الذي فيه العنكبوت لوجد به كثيرا من الذباب مقتولا ولا قاتل له غيره

ومن العنكبوت نوع مضر لدغه شديد الاثر لكثرة سمه وهذا لا يوجد الاّ في البلاد الحارة واما الذي في البلاد الباردة فلا يضر لقلة سمه ولا يخفى ان السم كما يكون في نوع الثعبان والافعى كذلك يكون في هوام الارض وحشراتها ولا يختلف الحال الاّ بالقلة والكثرة فان لكل منها اسنانًا في فوهات سمية فاذا عضت احدا قذفت السم من تلك الفوهات في الجراح التي تحدثها باسنانها

ومن هذا القبيل الشبت اعني الحيوان الذي يقال له عند العوام ابو شبت فان سمه يكون في الجهات الحارة قاتلاً حتى انهم راوا تاثيره في الحيوان الكبير في الزمن اليسير ومنها ما يعدو على الدجاج والحمام فيقتلها ويشرب من دمها ولذا يسمى في بعض الجهات بخناق الفراخ

ومن يتامل الحشرات يجد عند بعضها شدة شهوة وشره فيكون شديد العدوان والغضب كثير الحب للغنيمة والتكسب ولذا تراها لاجل الحصول على شهواتها واغراضها دائمة النزاع والمقاتلة

مع بعضها فيكون بينها حروب تسيل فيها الدماء ويزهق كثير من الارواح وقد تغير على غيرها وتحتال على سلب ما صادفته عنده من دخائره وموجوداته



المسامرة التاسعة والاربعون

النمل

ومن هذا القبيل النمل فانه يكون بينه حروب كبيرة ومناوشات كثيرة غير ان طوائف النمل عند تجهزها للحرب ومسيرها للقتال لا تستعمل ما يستعمله الانسان لحروبه من العدد والالات والادوات بل تسير للقتال بانفسها غير مستصحبة شيئا من ذلك معها وتستعمل في قتالها ما قد يعجز الانسان عنه من

المكر والحيل والمكائد

ومن النمل نوع ياسر غيره ويستعبده ويستخدمه طول حياته ويتخلص بواسطته من الكد والكدح والعمل لنفسه وقد شاهد بعض علماء الطبيعيين نوعًا من النمل يحمل نوعا اخر في فمه ولكن لم يكن يعلم حكمة ذلك ولا سببه الى ان ظهر الان ان بعض النمل قد يحتاج الى خدم فيهجم على غيره فيسترقه ويستخدمه في اعماله وسائر احوال مسكنه ومعيشته ومن يراقب النمل ايام الصيف في بعض الجهات يجده يغير على بعضه فياخذ الغالب منه اولاد المغلوب ويسترقها ولا يكون ذلك غالبًا الاَّ في الليل فيخرج ويصطف صفوفًا متقاربة ويقصد الجهة التي يريد غزوها فلا يرجع الاَّ وقد بلغ مقصوده فيخرب المساكن ويفرق المكامن وياخذ ما احب من الذرية ولا ياخذ الكبار لعلمه انها لا تنقاد لحكمه فاذا رجع بالذرية حملها بافواهه واذا خاب احد من الحزب الغالب ولم يجد اسيرًا يسترقه اخذ معه من رمم القتلى ما قدر عليه لينتفع به في غذائه وترى هذه الفئة الغالبة في عودتها ومنصرفها الى مساكنها تسير خلف بعضها واحدة خلف واحدة حتى انها قد تشغل مسافة من الارض يبلغ طولها نحو اربعين مترًا وبهذه الصورة تعود الى مساكنها بالظفر والغنيمة في حال مسرة وطرب فاذا وصلت الى منازلها بهذه الاسارى الحديثة السن تفرد لها محلات مخصوصة وتربيها مع الصدق والامانة والحذق وتحفظها من كل

ما يضر بجسمها ويخل بصحتها حتى تبلغ اشدها

وهذا النوع المحارب المحب للسلب والنهب لا يحب ان يشتغل بشي سوى الحرب فلذلك يكل بناء بيته وتربية ذريته الى ما عنده من الارقاء والخدم حتى انه اذا احتاج للانتقال من مسكن الى اخر تكفلت خدمه بنقله وقامت بحمله فتراها تحمله بافواهها كما تفعل الهرة باولادها

وقد امتحن بعض المشتغلين بالبحث عن احوال الحيوانات بعض النمل الذي تخيل فيه الترأس والامارة والرفاهية والاحتياج الى خدمة الغير له فاخذ جماعة منه وافردها عن خدمها ثم احضر لها شيئًا مما يتغذى النمل به ويتهالك في طلبه فوجدها غير طالبة لما احضر لها حتى مات اكثرها جوعًا ثم انه نقل اليها واحدًا من النمل الذي توهم فيه العبودية والخدمة فاشتغل بخدمتها وتغذيتها فاكلت ما احضره اليها مما كان بمراى منها ولم تكن تحركت اليه من قبل فاكلت وشبعت وانتعشت فعلم من ذلك ان هذا الصنف الغالب المحارب بعد ان يبلغ في حروبه ما شاء من النصر والظفر والغنيمة ويحصل على ما اراده من العز والثروة والسعة قد تستولي عليه حب الراحة والرفاهية واللذة فياخذ في الكسل والبطالة ويكل جميع اموره الى ما عنده من الخدم والحشم والاتباع ولا يشتغل هو بشي من الاشياء فيختل عنده نظام الجمهور وتدور عليه صروف المقدور بالويل والثبور وتفسد الامور

وطباع هذا النوع مختلفة باختلاف الاماكن وبالنسبة للزوم الخدم وعدم لزومها فترى الارقاء في بلاد السويس هي التي تبني المساكن وتقف على ابوابها بمنزلة البوابين فتفتحها في اول النهار وتغلقها عند دخول المساء او ظهور علامات تدل على المطر وقد شوهد في بلاد الانكليز ان الاتباع والارقاء عليها جميع الخدم المنزلية الداخلية فقط وفي بلاد السويس عليها بعض الخدم الخارجية ايضًا بسبب كثرتها

وليس جميع النمل قابلاً للاستعباد والاسترقاق فان هناك نوعا صغير الجثة لا يقبل الضيم والذل بل يدافع عن نفسه بحماس ويقاتل اعداءه بشدة باس وشهامة فتخشاه وتهابه وتجنبه حتى انها لا تقرب عائلته ولا تتسلط على اولاده بل يرى بعضه ساكنًا بالقرب من مساكن جيوش النمل المحاربة مع الامن والاطمئنان من غير ان تناله بمكروه لعلمها بشجاعته وباسه

ومن النمل المحارب ما لا يقتصر في محاربته على استرقاقه لغيره من النمل بل يزيد على ذلك ان يتخلل النبات فيجد في خلاله حشرات صغيرة كالبعوض لها ثديان في ظهرها من الجهة الخلفية يخرج منها مادة سكرية يحبها النمل حبًا شديدًا فيمتصها فتكون تلك الحشرات بالنسبة له كالبقر الحلوب بالنسبة للانسان فيصعد اليها فوق أطراف النبات والاعشاب ويركب كل واحد واحدة وفي بعض الاوقات قد يجتمع النمل وعبيده ويتحزب الكل ويسطو

عليها دفعة واحدة وياخذها ويحبسها في منازله كما يحتبس الادمي البقر والغنم فيمتص لبنها كما شاء ومتى شاء ويتعهدها بالطعام والغذاء كما يفعل صاحب الغنم والشاة

واغرب شي ان هذا النمل يعمل حول بيته جسورًا منيعة اولها عند بيته واخرها بعيد عنه محاط بالحشائش التي ترعى فيها الحشرات المذكورة وقد يتخذ لها اماكن مخصوصة لا يمكنها التخلص منها فتبقى فيها كالمحبوسة ترعى فيما اعد لها من المرعى وتعطي لبنها للنمل متى اراد وفي بعض الاحيان يقع بين النمل وبعضه محاربات عظيمة ومناوشات شديدة كالحروب التي تقع بين قبائل البشر منشاؤها عداوة طبيعية او حوادث وقتية وقد وصف بعض المشاهير من علماء هذا الفن وقعة رآها بين قبيلتين من جنس واحد من النمل فقال كنت بين قبيلتين عظيمتين كثيرتي العدد وكان ما بين محطتيهما قدر مائة خطوة ولم اعلم السبب الذي اوجب ثوران الفتنة وهيجان الشر بينهما وانما رايت عدد المحاربين من الفريقين بلغ في الكثرة مبلغًا عظيمًا جدًا بحيث يتعذر على دولتين من الدول الكبيرة جمع عدد مثله من العسكر قال ثم رايت الفريقين اخذا في الزحف على بعضهما الى ان التقى الجمعان في قدر قدمين من الارض في منتصف المسافة التي بينهما ورايت خلف كل جيش عددًا معدا للمدد والاعانة كما تفعل الجيوش من اتخاذ المدد في الحروب ثم حميت الحرب والتحمت الصفوف والتقت

الالوف بالالوف والتفت الساق بالساق وصار كل من الفئتين
ينتفع بما صادفه امامه في الارض من حجر ومدر وغير ذلك فيتترس
به ويتحصن خلفه من عدوه وكان البعض يقاتل ويضرب
والبعض يحوز الغنيمة ويضبط الاسرى وكان يرى على الاسارى
علامة الحزن والكآبة لاسيما عند مقاربة المحل المعد لاعتقالها عند
العدو قال ورايت محل المعركة قد تغطى برمم القتلى ودماء الجرحى
وصار يشم منه روائح كريهة لكثرة ما اجتمع فيه من الجيف وكان
ابتداء القتال بين الفريقين باثنين برز كل منهما للاخر فتماسكا
بالارجل وصارا يتصارعان ويتغالبان ويجذب كل منهما قرينه
الى جهته ثم اتى لكل واحد منهما مدد من قبيلته يجذبه الى ناحيته
حتى صار الاولان مع ما انضم اليهما من المدد اشبه شي بحبل
طويل يشد احد طرفيه الى جهة والطرف الاخر الى الجهة
المقابلة لها حتى يغلب احد الطرفين فياخذ غريمه الى جهته او
يحصل الانفصال من غير ان يغلب احد ثم يعود القتال فاذا
دخل الليل انفصل الفريقان وانقطعت الحرب الى الصباح ثم يعود
كل الى ما كان عليه وهكذا وكانت سعة ميدان الحرب قدر ست
اقدام طولاً وقدمين عرضاً

فقال الشيخ كنت فيما سلف اجتمعت برجل من اهل السودان
فاخبرني ان ببلادهم نوعًا من النمل ابيض اللون يتجمع جموعا
كثيرة ويكون منه طائفة كالجند والعسكر وطائفة كالعمال

وللذكران منه اجنحة وليس لما عداها من العمال والعسكر والاناث اجنحة وتختص العمال منه ببناء المساكن والعسكر بالحفظ والضبط والحراسة واما الاناث فعليها البيض واكثار النسل وتربية الذرية والقيام بامرها وهي كثيرة البيض الى الغاية حتى كانها كيس مملوءٌ بيضاً فان حجمها مملؤة بالبيض قدر حجمها فارغة الفي مرة ومتى ابتدأت البيض باضت في الدقيقة الواحدة قدر ستين بيضة وقد يبلغ مقدار ما تبيضه في اليوم الواحد نحو ثمانين الف بيضة كذا قال والعهدة عليه

فقال الانكليزي هذا صحيح كما قاله وقد شوهد هذا النوع من النمل في جهة راس الرجاء الصالح وحجم مساكنه بالنسبة لحجمه مما يقضي منه بالعجب فان ارتفاع المسكن عن الارض قد يبلغ نحو عشرين قدماً وشكله هرمي شبيه بقمع من السكر عظيم الجرم واسع اسفله ضيق اعلاه فمن رأى هذه المساكن على بعد ظنها كفراً من الكفور او قرية من القرى الريفية وتكون في غاية من المتانة بحيث لا يمكن كسرها لشدة صلابتها ودخلها فسيح جداً حتى ان الواحد منها يسع اثني عشر رجلا يقيمون به وقد يتخذها صيادو الوحوش ماوى يكمنون فيه لاصطيادها ويوجد في داخلها مجاري مياه تشبه المدافع الكبيرة ممتدة في الارض الى عمق ثلاث اقدام او اربع

فلو نظرنا الى النسبة بين امتداد قامتنا وارتفاع ما نبنيه من المساكن مع النسبة بين قامة النمل وارتفاع مساكنه لوجدناه

يفوقنا بكثير فان ارتفاع مسكنه قدر قامته خمسمائة مرة فلو كان ارتفاع مسكن الانسان بالنسبة لقامته بهذه المثابة لكان ارتفاعه قدر اكبر هرم من اهرام الجيزة اربع مرات او اكثر

ومن النمل نوع يتسلط على منازل الناس فيجعل له تحتها سراديب يتوصل منها الى اكل ما فيها من الخشب ولا يزال حتى ياتي عليه ولا يبقي منه الاّ ظاهره فتسقط البيوت باقل حركة فيفقد الانسان بيته في زمن يسير وكثيرًا ما تسلط ذلك النمل بهذه الصورة على مدائن عظيمة وبلاد عامرة فاتلفها وخربها عن اخرها واضطر اهلها الى الرحيل عنها الى جهات بعيدة لتسكنها وتبني بها بلادها ومدائنها

والعجب ان ذلك النمل لايحتاج في مثل هذا العمل الى مدد طويلة بل يقضيه في مدة قصيرة وايام يسيرة وقد حكى بعضهم انه راه اكل سلمًا كبيرًا من الخشب في مدة خمسة عشر يومًا وياكل مثل الكرسي والمائدة والدولاب في اقل من ذلك فيرى الانسان هذه الاشياء واقفة بهيئتها على اصل صورتها ومتى مسها بيده صارت ترابًا مذرورًا وراحت هباء منثورا

قال الشيخ رايت في بعض الكتب ما هو اخف من ذلك فكنت استغربه فالان زال استغرابي حكى الجاحظ في كتاب الحيوان انه في بعض الايام كثر النمل في بعض ضروب بغداد حتى ارتحل عنه اصحابه وتركوا مساكنهم للنمل وان بعض الناس

قال لاحد الفارين من النمل كيف اخرجكم النمل من دياركم فاخذ بيده وقال هلم معي لاريك ذلك وحمل من طريقه راس جمل مشويًا فلما انتهيا الى بعض تلك الدور اكلا ذلك الراس وامر صاحب المنزل خادمه باحضار طست كبير منصف بالماء ووضع عظام الراس الى جانبه فسعى النمل اليها وصار ياخذ النمل وينفضه في الماء فبعد مدة يسيرة فاض الماء من الطست فقال له كيف تسكن تلك الديار على تلك الحال فسبحان من خلق الاشياء وعرف الانسان قدره بتلك الايات فهذا جيش من النمل اخرج قومًا من ديارهم وابطل حيلهم وقواهم واعجزهم ليفهموا قوله تعالى وخلق الانسان ضعيفًا ويقفوا بانفسهم على مواضع الاعتبار وتكون مساعيهم فيما له خلقوا وكل ميسر لما خلق لاجله على حد الادب مع الخلق وخالقه

قال الانكليزي ومن النمل نوع اذا بنى له بيتًا لا يجعله هرميا بل يجعله على شكل كروي في عظم البرميل يصنعه من مواد صمغية واجزاء خشبية وبعض حشائش ويجعل في داخله ضروبًا وطرقًا كثيرة تفوق الوصف ويكون في العادة بين فروع الشجر

وفي سنة ١٧٨٠ من الميلاد ظهر منه نوعان في المديريات الجنوبية من فرنسا فخرب بسببها بيوت كثيرة وسقطت اسقف وحيطان متعددة ولم يبقَ في (روشفور) شي من الكتب ولا

الخشب حتى انهم الان يضعون اوراقهم في علب من التوتيا خوفًا عليها

ومنه ما يسكن المزارع فيضر بالزرع ضررًا بينًا وربما حفر له فيها بيوتًا ومغارات وعمقها حتى يبلغ ارتفاع التراب الذي يخرج منها خمسة عشر او عشرين قدمًا فتتلف المزرعة ويتركها صاحبها وربما احرقت اماكن هذا النمل بالنار او ضربت بالمدافع لتخريبها ان امكن وقد يستعمل اللغم في تخريبها اذا كانت عميقة ممتدة في جوف الارض فقد تبلغ في العمق الى عشرين قدمًا في داخل الارض

والكلام في هذا المبحث طويل والذي ذكرته لحضرتكم اقل من القليل بالنسبة لما قيل في هذا القبيل وعما قريب ان شاء الله يتوسع الاستاذ في اللغة الافرنجية فيطلع بنفسه ان اراد على ما شرحه اهل التاريخ الطبيعي في هذا المعنى وغيره بالاطناب والتفصيل فان عجائب الخلقة ونفائس الحكمة لا تنحصر في هذه الحشرات بل هي منبثة في جميع افراد الخليقة فقد منح الصانع كل جنس ونوع وصنف من العالم بخواص عجيبة وامور غريبة تجدها في الاشياء الكبيرة كما تجدها في الصغيرة وتراها في حيوان البحر كما تبصرها في حيوان البر ومن اعجب العجب احوال حيوانات دقيقة جدًا امكن الاطلاع عليها بواسطة النظارات المعظمة وكانت لا ترى بدونها لفرط صغرها ودقتها ويقال لها عند ارباب الفن

الحيوانات النقعية والفطرية وتوجد في العصارات النباتية والحيوانية وفي الهواء والماء وغير ذلك وكانت مجهولة عند الامم السالفة ولم يطلع الانسان عليها ولا انكشف له الغطاء عنها وعلم بعض اسرارها الّا منذ عهد قريب بعد ظهور النظارات لانها لما فيها من خاصية تكبير الجرم وتعظيمه في نظر الناظر عظمت اعضاء هذه الحيوانات الدقيقة فتيسرت روٴيتها وامكن للانسان ان يمتحن احوالها ويعلم كيفياتها فان اردت اطلعتك على ذلك عند وصولنا الى باريز واريك النظارة واحضر لك بعض عصارات نباتية وغيرها لتختبرها بنفسك وترى ما فيها من الحيوانات بحسك



المسامرة الخمسون

الانسان والحيوان

قال الشيخ من نظر في افعال الحشرات وغيرها وقارن بينها وبين أفعال البشر وجد بينها قربًا ومناسبة ظاهرة تحمله على ان يقول ان احدها اخذ من الاخر فايها كان المعلم وايها المتعلم

الظاهر ان المتعلم هو الانسان وان المعلم هو الحيوان وان اكثر معلومات الانسان ومعارفه التي بنى عليها اعماله ماخوذة من الحيوانات صغيرها وكبيرها وهي اساتذته في ذلك فمن اطلع على احوال الحيوانات وما لها من لطائف الصناعات علم ان من حكمة صانع العالم سبحانه ان ضرب له المثل بها ليحذو حذوها ويسلك في تحصيل اغراضه الطرق التي سلكتها وقد حكى لنا الكتاب العزيز أن احد ابني آدم قتل اخاه فلم يعرف ما يصنع بجيفته فبعث

الله غرابًا يبحث في الارض ليريه كيف يواري سوأة اخيه وان ابن ادم قال ياويلتا اعجزت ان اكون مثل هذا الغراب فأواري سوأة اخي فاصبح من النادمين

قال الانكليزي لا شك في ان الانسان تعلم من الحيوانات واخذ عنها واقتدى بها فانها خلقت قبله وتقدمت عليه فانه لما كان محتاجًا اليها من جهة المساعدة والمؤنة اقتضت الحكمة الربانية ان تسبقه في الخلقة فلما جاء بعدها تعلم منها واخذ عنها فلم تكن اعمال الانسان كلها من مبتدعاته وانما نقلها من الحيوانات والحشرات وقلدها فيها بل ربما لم يتقن التقليد في بعضه وظهر عجزه فيه مع ما له من العقل والفطنة

ولقد عاش مدة في الادواح والاجام كما تعيش الظبي والمها وعاش قبل ذلك مدة في الجحر تحت الارض كما تعيش الجرذان ومضى على ذلك مدد طويلة واجيال كثيرة ثم قلد بعدها النمل في اتخاذ البيوت المنتظمة التقسيم والشكل

وتعلم عمل الجسور والقناطر من الحيوان المسمى بالكستور وهو المعروف بالجندبادستر الذي يبني بيته بالقرب من شاطئ نهر او بركة ويتخذ له من اغصان الاشجار جسرًا متينًا على هيئة سد يمنع عنه قوة السيل بان ينضد تلك الاغصان بعضها فوق بعض ويلصق احدها بالاخر الصاقًا محكمًا لا ينقصه شي مما يحتاج اليه من هندسة البناء

واخذ الانسان علم الملاحة عن الدب الذي يوجد في المنطقة الشمالية من الكرة الارضية فانه يسافر في البحر على قطع من الثلج الى حيث يقصد

وتعلم الصيد والقنص من الثعلب البحري البري ومن بعض الحشرات الصيادة

واخذ الاسلحة كالسيف والحربة والمنشار والبلطة وغيرها من تامله في السمك

واخذ صنعة الشباك من مشاهدته لبيت العنكبوت وقد تقدم

واخذ صناعة الدروع والكماشات والملاقيط عن السرطان

واخذ صناعة احقاق النشوق عن الاستريديا وام الخلول

واخذ علم الفلاحة عن الخنزير فانه اول حيوان شق الارض بخرطومه فاخذ عنه الانسان صنعة حراثة الارض ولعله كان ايضًا اول معلم للانسان في كيفية استخراج المعادن كالذهب والفضة من الارض

واخذ عن الهرة التوقي من الروائح الكريهة التي تتصاعد من الفحم

واخذ الطب عن الكلب حيث رأه يتعاطى المسهلات عند انحراف مزاجه

واخذ تجنيد الجنود وتعبيئة الجيوش من النحل

وتعلم تدوين الدواوين والمشاوِرة في المصالح من اللقلق واخذ التياتر والالعاب المضحكة عن القرَدَة

واخذ الحذر عن الغراب واتخاذ الجلساء للملوك عن الكلاب وكذا لثم اليد التي يخاف سطوتها

واخذ الجور والجرأة عن السبع والكبر والخيلاء عن النمر والجمهورية عن النمل

قال الشيخ الانسان وان قلد الحيوان في بعض احواله وبرع في كثير من اعماله لكنه الى الان لم يصل الى تقليد النمل في طريقة ادخاره لاقواته الازمان الطويلة من غير ان تتلف والظاهر انه اخذ عن الحشرات فن الرسم والنقش وهندسة العمارات وصب المعادن في قوالب مختلفة وعلم الطبيعة والكيمياء والعلوم الرياضية وللان لم يصل الى استيفاء جميع ما عندها من الاسرار ومن نظر في امور الانسان والحيوان وما لهما من الاحوال والاعمال علم ان الانسان لولا بحثه واستكشافه لاحوال جيرانه في الارض من الحشرات وغيرها لكان في العجز عن تحصيل منافعه واستكمال اسباب راحته اقل من كثير من الحيوان

المسامرة الحادية والخمسون

دعوة انس

قال ناقل الحديث وحين انتهى بهما الكلام الى هذه الغاية استأذن الانكليزي صاحبه الشيخ في المضي الى الوفاء بوعد بينه وبين رجل من اصحابه كان لقيه بالامس واخبره انه يريد لقاءه والتحدث معه ساعة فشكره الشيخ على ذلك وظهرت في وجهه بشائر المسرة وخلا حينئذٍ ببرهان ابنه فقال الان تخبرني بجميع ما شاهدت في الدعوة التي كنت بها امس

فقال له برهان حاصل القضية ان حضرة الخواجا عرفني ونحن في الطريق انه ذاهب الى بعض اصحابه ليذهب معه الى دعوة عند احد الاغنياء وان هذه الدعوة يحضرها اعيان البلد ووجوهها واننا ننتهز منها فرصاً جمة اقلها معرفة اخلاق هذه الامة

الى ان قال وليت الوالد كان معنا ليرى ما نراه فربما لا تفي العبارة اذا نحن عدنا واخبرناه الى ان انتهت بنا الطريق الى باب عال داخله ميدان واسع فاستقبلنا الخدم من الباب بغاية التعظيم والتكريم ومشوا معنا الى ان دخلوا مكانًا فسيحًا غاصًا بالناس فيه نحو خمسمائة نسمة من رجل وامرأة فاستقبلتنا صاحبة المنزل بغاية الترحب والتاهل ثم اتى بعلها وفعل مثل فعلها واخذ بيدي الى المجلس وذكر لهم اني من مصر فحيوني جميعًا ورحبوا بي وقدموا لنا كراسي جلسنا عليها وكان بالمجلس رجل تلوح عليه هيئة الهيبة والوقار يتكلم بالعربية كانه ليس من ابناء هذه الديار فسالني عن بلدي وعشيرتي ومحتدي وعن امور كثيرة منها ما اعلم ومنها ما لا اعلم حتى سالني عن الاهرام وبعض المعابد والهياكل التي بجهة الصعيد فكنت تارة اجاوبه مع الخجل وتارة اتستر بالصمت فيبادر صاحبنا برد الجواب وربما يزيده فوق ما يريده فما انقذني من ورطة هذا المجلس ومضايق تلك الاسئلة غيره ولولاه لكنت اضطررت الى الاعتراف بالجهل لما علمه الاغراب من امور بلادنا وما بها من الاثار العظيمة والمباني القديمة فقد وجدت ذلك الرجل يذكر امورًا ليست في علمنا ولا اطلعنا على نص لها في كتبنا وكان باقي اهل المجلس يتكلمون في انواع مختلفة من امور الدنيا فمنهم من يتكلم في اسباب كساد التجارة ورواجها ومنهم من يتكلم في محصول الارض وخراجها ومنهم من يتكلم في النوادر .

والغرائب ويصف ما في الارض من العجائب الى ان جاء وقت القيام الى الطعام وقام صاحب المنزل وزوجته ودعوا الناس الى القيام فكان اول من دعي رجل نحيف البنية متوسط القامة يظهر على وجهه اثر الحزن ورايت اهل المجلس جميعًا يعظمونه زيادة عن تعظيم بعضهم بعضًا فسالت صاحبنا عنه فقال لي انه من امراء ايتاليا المعتبرين

ولما ان وصلنا الى السفرة وقعد كل منا في المحل المخصص له كان ذلك التلياني في الصدر وعن يمينه صاحبة المنزل وعن يساره صاحب الخواجا وانا بجانبه فمكثنا على السفرة نحو ساعتين قضاها القوم في مدام وندام وشراب وطعام ثم قاموا وكان اول من قام صاحبة المنزل فمد التلياني يده اليها ليقوم معها ثم قام الناس جميعًا فمن كان له منهم حرم اخذ بيدها ومن لم يكن حرم قام منفردًا ثم مضوا جميعًا الى حجرة اعدت لشرب القهوة والدخان وتلك من عادات القوم حجرة للطعام وحجرة لجلوس الفرجة والنزهة والابتهاج بما يحضرونه من الالعاب وحجرة للاشربة وانواع المكيفات كل موضع لشي لا يفعل فيه غير ما له اعد فاخذ الناس مجالسهم وكنت الى جانب صاحبي واستقروا قدر ما شربوا القهوة ثم اضطرب المجلس فرايت رجالاً اخذوا بايدي نسائهم وجعلوا يترددون في محادثة وموانسة ورايت رجلاً كالمعتوه يقوم مرة ويقعد مرة ويمضي لهولاء وينعطف على اخرين ويتحدث بكلمات يضحك

بها من يكون عندهم فكانه سخرية المجلس يظهر ذلك في اقواله وافعاله ورايت رجلاً منتبذًا ناحية عليه سكينة ووقار في ملابس مخالفة لملابس الناس يظهر عليه انه قسيس وقد احاط به جملة من النساء وهو يحدثهن فيلتفت لهذه ثم يلتفت لهذه وكانه يقرا لهن درسًا او يبدي لهن نصائح فكنت باهتًا متعجبًا فالتفت اليّ صاحبي وقال مالك شاخص البصر كانك متعجب من هذه الاحوال فقلت اي وحياة مولاي وكيف لا اتعجب وهذه امور ما رايت مثلها في بلادنا فان حال الناس هنالك اذا كانوا في مثل هذه الدعوة انهم يحضرون اما فرادى وهو الغالب واما انسان وصاحبه فاذا دخلوا دار الوليمة جلسوا او سلم عليهم صاحب الدار وحياهم ودعا لهم بالقهوة فشربوا يفعل ذلك مع كل من حضر فاذا شرب احدهم القهوة اخرج كيس الدخان من جيبه وملاء شبكه وصرخ يطلب جمرة من رجل اعد لتفريق النار على شبكات الحاضرين وان كان لاحدهم خادم ملاء الشبك وناوله لسيده ثم لا يزالون على تلك الحال حتى اذا نصبت الموائد قاموا اليها فتناولوا جماعة جماعة ان كانوا كثيرًا لكون المدعوين يحضرون في اوقات مختلفة يعينها صاحب الوليمة في الاوراق التي يرسلها لهم قبل يوم الدعوة فاذا فرغوا من الطعام عادوا الى مجالسهم التي كانوا بها قبل الطعام ودارت عليهم القهوة الغينة بعد الغينة واخذوا شبكاتهم على الرسم السابق وتحدث كل مع من بليه لا يجاوزه الى غيره لانهم اما

متعارفون فغالبًا تكون بينهم عداوة للاشتراك في صناعة او التزاحم على وظيفة او غير متعارفين فهم لذلك السبب لا يتردد بعضهم لبعض لتعميم المسرة والتشارك في البهجة وتواصف محاسن ما هم فيه والمكالمة في امور يطلبون صلاحها ويدفعون فسادها الى غير ذلك من الاحوال التي تقتضيها صحبة الحياة في بيت واحد عند اجتماعهم سيما في اوقات السرور والبهجة والصفاء وانما يكون حديثهم اما في الانتقاد على صاحب الدعوة بتسفيه رايه ورميه بالاسراف ان كان بذل جهده وتقبيح امره ورميه بالنذالة ان اقتصد او قصَّر واما في اغتياب بعض الحاضرين واما في الشكاية والتالم من بعض المشاركين له في صناعته في اشياء صدرت بينهم قديمًا او حديثًا ذلك دابهم وحالهم حتى اذا انقضت ثلاث ساعات من الليل حضر ما اعده صاحب المنزل من الامور التي جرت عادتهم ان يتلهّوا بها ويجتلبوا بها انس الحاضرين وسرورهم فاذا كان كذلك تغير الوضع فبعض يسمع وبعض يتحدث في امور مختلطة واحوال غير منتظمة وربما وجدت الواحد منفردًا يتحدث مع نفسه او يستمع او ينظر الى الناس يمينًا وشمالاً كانه يتاملهم ويمتحن مقدار عقولهم حتى اذا مضى خمس ساعات من الليل اخذ الناس في الانصراف الى منازلهم شيئًا فشيئًا حتى لا يبقى الاَّ من حضر من الغوغاء وهولاء ربما اصبحوا ولم ينصرفوا حتى يبيض النهار فهذا وضع بلادنا قديمًا وان كان الان اخذ في التغير لان حب المودة والتالف والاقبال

على لطائف الاحوال قد دب فيهم وربما درج بين بعضهم وارجو ان يبلغ كماله وارى هولاء الناس على هذه الاحوال وذلك سبب فكرني في حال اهل بلدي حتى انا الان متاسف غير منبسط الخاطر لبعد ما بين الحالتين فهذا ما رايته من ذهولي وشخوص بصري واني لارجو ان تعرفني بما استخبرك عنه وسالته عن الرجل الذي احاطت به النساء فاخبرني أنه من طائفة القسيسين الذين وظيفتهم ان تجتمع اليهم النساء ويفضين اليهم باسرارهن فياخذون في تعريفهن حقوق الرجال على النساء وحقوق النساء على الرجال وازالة ضغائن النفوس والحث على استبقاء الصحبة والوصلة وطرح التحاسد بالتفاوت في الخلق بالجمال وعدمه والامن باتخاذ الزينة واستعارة الحسن وتفهيمهن ان المقصود الاصلي من اجتماع نوع الذكور والاناث انما هو النسل واستبقاء النوع وتقوية العائلات بالتكثير والتعاون في اصلاح الوطن خصوصاً وعموماً الى غير ذلك من الاشياء التي ياخذ بها الانتظام بين الرجال والنساء حد كماله وغاية تمامه وسالته عن الرجل الذي يقوم ويقعد ويجيء ويذهب فاخبرني انه احد الشعراء الذين حالهم ان يحضروا في الولائم ومواضع الانس لالقاء نوادر مضحكة حفظوها وانشاد اشعار في امور تخيلوها ترتاح اليها النفوس وتميل اليها الطباع في اوقات الفراغ ولهذا الرجل خصوصية بصاحبة هذا المنزل فانه كان صنع لها في ايام صغرها وفقرها تاريخاً يخبرها فيه باستقبال السعادة والغنا

حسبما تعطيه قيافة وجهها والفراسة فيه بعلم ادعى ان مهرة الشعراء مخصوصون بمعرفته فوافق ذلك ان استقبلتها الايام بالسعادة والغناء حتى آل امرها وامر زوجها الى ما ترى بعد ان كانا فقيرين ربما لا يدركان القوت وعهدي بموضع هذا المنزل مطرحاً للقمامات وملقىً للكناسات وكأن صاحبه كان ورثه عن اهله وكان لفقره خربًا لا يقدر على عمارته فما زال هو وزوجته يدأبان في طلب الغنى بمباشرة اسبابه والتردد في الطرق الموصلة له حتى اقام هذا المنزل من اساسه بعد سنين غير كثيرة فهل في بلادكم من يكون له مثل هذا فقلت له ربما ساعد البخت والحظ من امسى فقيرًا فاصبح غنيًا وغدا خاملاً فراح نبيهًا على حسب القسمة وتحول الاقدار ثم اخذ الرجل في مدح الثراء واطراء الغنى وذكر فوائد المال والثناء على المشتغلين بتحصيله والاجتهاد فيه وتنميته وحسن القيام عليه والتعهد له حتى غض من اهل الورع والزهد وازرى احوالهم وعاب افعالهم وقال ان كلامهم بين الناس هو الذي اوجب لهم الخمول والكسل وخشونة العيش وضيق الحال بما ارتكز في قلوبهم من الجهل وعداوة العلم وطلبه من حيث وجوه والنظر في اصلاح الحال والمآل حتى ادعى ان الارزاق غير مجهولة وبين ذلك ومثل له فقال

تعلم ان مطالب الناس منحصرة في اربعة اشياء الاغذية والادوية والاكسية والاخبية لحفظ الحياة والتحرز من ذهابها

والحصول على لذاتها والتصوّن عن آلامها المدة المعينة للحيوان حسبما اقتضته حكمة صانعه فلذلك توزع الناس الاشغال ما بين زارع وصانع وطبيب الى غير ذلك فلو فرضنا ان صناع النعال مثلاً عرفوا المقدار الذي يحتاجه اهل بلدهم في السنة ولا بد لهم من اخذه واتلافه في تلك المدة واستعواضه بعدها فهم لا شك جازمون بانه يطلب منهم في وقت الضرورة اليه ويأخذون مقابل اعمالهم فيه فهم واثقون بحصول رزقهم في وقته امر قضت به طبيعة الخلقة وفرغ منه القدر على هذا جميع الاعمال غاية الامر ان جهالة الرزق انما هي في زرع يزرع او حيوان يربى فتصيبه آفة سماوية قبل بدو صلاحه وابّان اخذ ثمرته هذا هو موضع جهالة الرزق على ان الناس ربما بحثوا عن اسباب تلك الافات فتحرزوا عن كثير منها ونحن مامورون بالتعرف والاستكشاف لحقائق الاشياء واسبابها وعللها وموجبات صلاحها وفسادها واجراء السنن الالاهية في مجاريها يرشد الى ذلك ما رايته في بعض كتب الاحاديث المنقولة عن نبيكم (صلعم) وهي في ايديكم تقراونها وتحاولون العمل بمقتضاها وهو انه مر يوماً على اصحاب نخل المدينة وهم يلقحونها فقال لو تركتم ذلك فتركوه فشاصت سنتها فقال لهم ما بال نخلكم في هذه السنة فقالوا الم تقل لو تركتم التلقيح فقال لم اقل لكم اتركوه وانتم ادرى بامور دنياكم فنبههم على وجوب مباشرة الاسباب والمحافظة على العادات الكونية وارشدهم الى ذلك باقوى المرشدات من ظهوراً

الخسارة واستحكام الفساد المؤدي لسرعة زوال حياتهم ومن كلامه الشريف الذي رايته في تلك الكتب ايضًا ان الله يحب من عبده اذا عمل عملاً ان يتقنه فتحيرت من كلامه وتغير خاطري من قدحه في اهل الورع والزهد وضمرت في نفسي ان اسالك عن هذا لتبين لي الحق فيه

فقال الشيخ يا بني انا مخبرك بذلك ومرشدك لحقيقته بعد ان تم الحديث في نعت ليلتكم وما انتهت عليه

قال برهان ثم قمنا الى موضع اللعب فرايت مكانًا يأسر الطرف ويملأ الصدر ويشغل اللب باحكام وضع وزينة وزخرفة قد اتخذ على شكل مواضع التياتر علقت فيه الواح مرسوم فيها غرائب اشكال على غاية ما يكون من الاتقان والملاحة وقد وضع في وسط المكان على دائرة عظيمة من الرخام الثقيل اللماع مرتفعة على كرسي اصناف الازهار والرياحين في اوان مختلفة الاشكال والالوان انبثت عليها اشعة الانوار فكان هناك منظر عجيب يكاد يخطف الابصار ثم اظهرت الالاعيب وكانت عبارة عن صور نساء على اتم ما يكون من الحسن والجمال فاخذت تلك الصور تتقلب من شكل الى اخر تتقارب وتتباعد وتنام واحدة وتقوم واحدة كانها ذوات ارواح لا يشك من راها ولم يعرف حقيقتها في انها نساء قواصد لتلك الحركات كل ذلك والناس اليها ناظرون ولمحاسن ما يصدر عنها متواصفون غير اني كنت في

حرج عظيم وضيق صدر لعلمي ان ذلك لا يحل نظري اليه وتاملي فيه فذهب سروري واسفت على حضوري غير اني انكره بقلبي وارجو مغفرة ربي وقلت هذه اشياء احكيها وان كنت لا اشتهيها ومما كان يخجلني هناك ان النساء كانت تحيط بي وتحدق النظر اليّ وتكرر الاسئلة عني وعن حالي ويتواصفن وجهي ويظهرن استحسانه وربما تمنت الواحدة ان تكون عينها مثل عيني والاخرى تقول ليت هذا الانف انفي فلم يكن لي فرج الاَّ ان قمنا وتحولنا الى موضع معد للفواكه والاشربة وانواع النقل فتناول كل حسب رغبته ثم انصرفنا ومضى كل الى سبيله واستنجز برهان اباه العدة بان يخبره بما ساله وهمَّ الشيخ ان يحدثه به واذا بيعقوب يخبره بحضور الانكليزي وصاحبه الذي كان ذهب اليه فقال يا بنيّ في غير هذا الوقت نتكلم ان شاء الله تعالى ثم دخل الانكليزي وصاحبه فتلاقوا تلاقي الاحبة وتهادوا تحية المحبة واخذ كل في السوال عن حال صاحبه وتناولوا اطراف الحديث فكان من كلام الضيف ان قال بمناسبة الحال ان مصراً في سالف الازمان كانت منبع العلوم ومنها انتشر التمدن في البلاد تشهد بذلك الاثار القائمة على مرور الدهر كالاهرام والبرابي ومصارف المياه ومواقع المدن والقرى فقال الشيخ هل سبق لحضرتكم سياحة في مصر فقال نعم واقمت بها ثلاث سنين وثمانية اشهر اتردد ما بين القاهرة واقصى الصعيد وقد ضمنت جميع ما رايت كتاباً اطلعك عليه عند التقائنا بباريز فهي دار اقامتي

ولي هنا شغل متى انقضى لحقتكم ثم توادعوا ومضى الشيخ وابنه وصاحبهما ويعقوب الى محطة البواخر متوجهين الى باريز



المسامرة الثانية والخمسون

ذم الدنيا ومدحها

(قال ناقل الحديث) فلما استقر الشيخ وابنه وصاحبهما الانكليزي في عربة سكة الحديد وسارت بهم العربة اخذ الشيخ يحدث ابنه فيما كان قد ساله عنه بعد ان اعلم صاحبه بما جرى بينهما من وصف تلك الليلة وحديث برهان مع صاحبه الذي بالغ في مدح الدنيا والثناء على طلابها وازراء من سواهم والطعن فيه

فقال اعلم يابني ارشدك الله ان الانسان وسائر الحيوان بحسب خلقته مضطر الى تحصيل ما يحفظ به حياته وقد مكنه الله من ذلك واراه طريق السعادة وطريق الشقاوة فقال عز ذكره (انا خلقنا الانسان من نطفة امشاج نبتليه فجعلناه سميعًا بصيرًا انا هديناه السبيل اما شاكرًا واما كفورًا) فدواعي الطلب قائمة في طبيعته ونفس خلقته من وقت خروجه للدنيا . سئل حكيم متى عقلت فقال حين ولدت فقيل له وكيف ذلك فقال جعت فطلبت واعطيت فسكت فهل ترى ان احدًا يذم هذا الطلب غير ان الانسان لا يقتصر على موضع الحاجة بل يحب الاستكثار من الخير وجمع المال والتبسط في الانفاق وحينئذٍ اما ان يسلك الطريقة المثلى التي نهجها الله واوضحها ونصب علاماتها على السنة رسله واهل الحكمة من خلقه واما ان يسلك غيرها وهذا موضع الحمد والذم والثواب والعقاب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تسبوا الدنيا فنعمت مطية المؤمن عليها يبلغ الخير وبها ينجو من الشر فانظر كيف نهى عن سبها واثنى عليها وعلى طلابها الذين صرفوها في وجوهها غير ان ادارة الاعمال الدنيوية محتاجة الى عملين عمل بالابدان وعمل بالارواح وقد فاوت الصنع الرباني بين الناس فجعل بعضهم اذكياء والبعض اغبياء وكفل بعضهم بعضًا فكان اشتغال اذكياء الناس بالفكر في مصالحهم وتدبير ما تحسن به احوالهم فلزم في مقابلة هذه الخدمة الروحانية ان يخدمهم بقية الناس

بابدانهم ويريحوهم من تجشم الكلف في تحصيل مؤنهم فظهر الفقر والغناء وبموجب ذلك نجم بينهم التحاسد والتباغض والتعادي نقل عن اميرالمؤمنين علي كرم الله وجهه انه قال عداوة الضعفاء للاقوياء والسفهاء للحكماء والاشرار للاخيار طبع لا يستطاع تغييره فعند ذلك وجب وضع القوانين وتجنيد الجنود ووضع القلاع والحصون وتصوير الات القتل لتحاجز الناس بعضهم عن بعض ولزوم كل عمله الذي استعد له ولو سلك الناس سبيل الانصاف لم يحتاجوا الى شي من ذلك كما قيل

لو انصف الناس استراح القاضي

وبات كل عن اخيه راضي

ولكن الحال على خلاف ذلك ولم تكن القوانين الحكمية كافية في حسن صحابة بعضهم بعضاً لكونها انما تتعلق بظواهر الاحوال ومشاهداتها فيتعين لذلك وجود طائفة من الناس يتكلمون بمثالب الدنيا وعيوبها ويزهدون فيها وينهون عن شدة التزاحم عليها ليثبت اهل القلة فيها على اشغالهم الشاقة التي لاجلها خلقوا ولا يبذلوا قواهم في معارضة المكثرين ومضاربتهم فتبين من ذلك ان اعمال الناس وظائف خدمة مقسمة على طوائفهم لا يصح ان يفاضل بين اهل وظيفة وغيرها وانما المفاضلة بين اشخاص كل وظيفة فمن قام بوظيفته حق القيام بها مقتصداً دون افراط وتفريط كان محموداً ومن مال الى احد

الطرفين كان مذموماً بقدر ميله كما قيل

فلا تغلُ في شي من الامر واقتصد
كلا طرفي كل الامور ذميم

وهو عقد لقوله صلى الله عليه وسلم خير الامور اوساطها فلا مساغ اذاً لاطلاق المدح والذم كيف وعقلاء الناس الذين لاسبيل الى تجهيلهم وتسفيه احلامهم قد توزعوا تلك الخدم قديماً وحديثاً لا تنكر طائفة على طائفة الاّ الخروج عن الحدود المتوسطة وها انا احكي لك حكايات تجلو لك الحال وتستاصل شافة الاشكال هذا نبي الله ايوب عليه السلام كان صاحب ثروة عظيمة من الزراعة وتربية الحيوانات فكان له خمسمائة حمار مصرفة في اشغاله

وامر داود وسليمان ابنه عليهما السلام مشهور وكان ابناء الخالة يحيي وعيسى على خلاف ذلك من الزهد في الدنيا والتقلل منها والاقتصار على موضع الحاجة هكذا كانت رسل الله كل سالك طريقة لا يعاب بها ولا يفضل احد منهم على احد من تلك الجهات حتى كانت النبوة الاخيرة الجامعة على صاحبها افضل الصلوة واتم التسليم فنهج المناهج كلها وبيّن الطرائق وحدودها ومشت علماء امته بعده في تلك الطرق فكان ابو بكر رضي الله عنه على سيرة يحيي وعيسى عليهما السلام وكان عمر رضي الله عنه على سيرة موسى عليه السلام من الشدة وايقاف الناس على الحدود وضبطهم عن الزيغ والميل حتى انه لما قدم الشام لاستكشاف

الحال ولقيه اميرها معاوية رضي الله عنه في المراكب المزينة والاسلحة المحلاة والملابس المتحيزة والموكب الحافل كله في ذلك فاعتذر بكونه لازمًا لسياسة ناحيته فسلم له وترك الاعتراض عليه وكان عثمان رضي الله عنه على سيرة ايوب عليه السلام من التبسط في الانفاق وتعميم اهله بالمبرة والتوسيع على الناس فبنى دارًا وشيدها وجعل اخشابها من نفيس الخشب كالساج وغيره وفي ايامه بنى الزبير بن صفية عمة النبي صلى الله عليه وسلم عدة قصور بالمدينة والبصرة ومصر ومن الصحابة من صولحت احدى زوجاته وكن اربعًا على ربع ثمن تركته الذي تستحقه منها على اثنين وثمانين الف دينار الى غير ذلك من امور يطول استقصاوها ودخل رجل من المتقشفة على الحسن البصري رحمه الله وبين يديه خبيص فدعاه اليه فقال الرجل اخاف ان لا اشكر نعمة الله فيه فقال له الحسن كل فنعمة الله عليك في الماء البارد اكبر وقال رجل لابي حنيفة رحمه الله وقد رأى عليه حلة قيمتها خمسمائة مثلك يلبس هذه فقال ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يلبس الحلة قيمتها الف ومما سمعت تعلم انه لا اعتراض على من تناول من طيبات الدنيا ما تناول اذا كان بوجه الحق واتلُ قوله تعالى قل من حرم زينة الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق وانما العيب والمشئمة على من اخذها بوجه الباطل كالتلصص والغصب والنهب والظلم وهولاء ان لم تهلكهم الحدود المشروعة فلا بد ان

يهلكوا من نفس اعمالهم وسوء تدبيرهم وشوم بغيهم كما يحكى ان جماعة من اللصوص توافقوا مع يهودي على ان يربح لهم جميع ما كسبوه وتشارطوا في ذلك وتعاهدوا وتحالفوا على عدم الخيانة ومضوا على ذلك برهة من الزمان الى ان شعرت بهم اهل الضبط والسياسة فارسلوا عليهم الجواسيس يتلمسونهم فكانوا يعثرون بالواحد والاثنين حتى قبضوا على كثيرمنهم وافنوه فلما رأى رأس اللصوص ذلك غير منقطع والطلب دائم والبحث عنهم متتابع دبر في نفسه ان يعمل الحيلة في قتل اليهودي واستخلاص جميع المال لنفسه وخطر هذا الخاطر باليهودي ايضًا فلنفاذ القضاء ودوران دائرة السوء على اهل البغي والخيانة تحيل اليهودي في اشعار الحاكم باسماء اللصوص ومواضع اجتماعهم فكتب ذلك في صحيفة والقاها في الصندوق المرصد لالقاء الناس فيه صحائف المظالم وعروض الاحوال واتفق ان جاء كبير اللصوص لانفاذ ما دبره قبل اطلاع الحاكم على صحيفة اليهودي وخلا باليهودي وتحدث معه حديث المودة والصفاء وعرفه انه يريد الاستئثار بهذا المال وقسمته بينهما وحرمان اللصوص منه حتى امن اليهودي ودخل معه الحجرة التي فيها صناديق المال فلما عرفها واستكشفها تغفل اليهودي فضربه بخنجر احس منه بالموت فلما علم اليهودي انه ميت لا محالة جرى الى الباب فقفله وكان بابًا محكمًا من حديد صفيق يمنع نفوذ الصوت ولا يمكن فتحه الاّ بحيلة لا يعلمها غير اليهودي فاخذ اللص يتحيل على اليهودي ويتذلل له

ويلم جرحه ويستوقف جريان الدم ويكمده والدم يتشخب لبلاغة الجرح ومصادفته الكرب حتى فاضت نفس اليهودي وقعد اللص الى جانبه ينتظر الحمام حتى جاءه بعد معاينة الاهوال ومقاساة الالام ينظر الى المال بالندامة ويعود على نفسه باشد الملامة وهيهات نفد القضاء وحل به لقبح اعماله وسوء تدبيره وخيم البلاء ثم ان الشيخ لما فرغ من هذا الكلام اطرق اطراق المتفكر وزفر زفرة المتذكر فقال له صاحبه مالك يا مولاي فوالله لقد نظرت الى الدنيا بعين ربانية وتكلمت على احوالها بما هو مراد خالقها منها فهل لك في ان تروح خاطرك بالاستماع الى حكاية يعقوب تاريخ نفسه ووقائع ايامه فقال الشيخ لا باس فساله الخواجا ذلك فاعتذر بقصور عبارته في العربية فقال له لا عليك ما عجزت عن عربيته فاحكه بلسانك وانا اترجم عنك فاقبل يعقوب يحدثهم فقال



المسامرة الثالثة والخمسون

حكاية يعقوب

حاصل قصتي اني مذ درجت وجدتني واخاً لي اكبر مني بقليل في حضانة ام ذهب اطيب عمرها تجمعنا حجرة لا يظل سقفها غير اشخاصنا واشياء حقيرة بالية من اثاث المنازل لا نزور ولا نزار غير انه كانت لنا جارة عجوز فقيرة حالها احسن من حالنا قليلا فكانت تتردد الينا ونتردد اليها وربما افضلت علينا ببعض ما يفضل عنها فلم تطل الايام حتى مرضت امنا ولم يكن لنا حيلة الاّ الجلوس الى جانبها والبكاء فكانت تلك الجارة تتعهدنا وبذلت المجهود في تمريض امنا وطلب الشفاء لها حتى قضت نحبها فبقينا منفردين ليس لنا الاّ الله وتلك العجوز فعرفتنا كيفية السوال وطفقنا نتكفف الناس فعشنا علي ذلك برهة فبينما نحن في بعض الايام جالسين الى

جانب جدار في الطريق اخذ النوم بروؤسنا وطرحنا هنالك فربنا العسس فحملنا الى مدرسة اليتامى فاقمنا بها مدة حتى تعلمت صنعة الجزم وتعلمت اختي الخياطة والخدم المنزلية فلما عرف مدير المدرسة منا ذلك اطلقنا لنتكسب بانفسنا فلحقت انا برجل من اهل تلك الصناعة وكنت في صناعه وخدمت اختي في بعض المنازل فلبثنا ما شاء الله ازيد عند صاحبي محبة وتقريبًا وتمييزًا على الاخوان لما رأى بي من المهارة في الصنعة وبذل الوسع في الخدمة وكذلك اختي عند سادتها كل مقبل على شغله وصارف همته في تحصيل رزقه خائفين ما كان يلحقنا من ذل السوال وروعة الحرمان وكلاحة الوجوه وسوء المصبح والمسى حتى اختلطت بناس هم اكبر مني سنًا واكثر مالاً وادرى بامور الدنيا فسمعتهم يتحادثون في اسباب الغنى من التجارة وانواعها والزراعة واصنافها والصناعة واقسامها متنازعين فيما هو الاسهل منها مسلكًا والاقرب غاية والاشرف اهلاً والاجمل اعمالاً فرايت اكثرهم مصرين على انه التجارة محتجين لذلك بامور معقولة وحكايات عن السلف منقولة مثبتين لن صنف التجار امرآ على الصنفين الاخرين وسمعت منهم ايضًا ان اعلا انواع التجارة ما كان بالاسفار في اقاصي اطراف الاقطار فحدثتني النفس الهاربة من الذل والشقا الطالبة للعز والسعادة ان افكر في الحيلة التي اصير بها تاجرًا فكنت لذلك اذهل وفي عملي اكسل ويظهر ذلك عليّ شيئًا فشيئًا حتى انكر عليّ

من انا عنده حالي واستخبرني عن سبب تغيري عن عادتي فكتمته
امري وما زال يتلطف بي في السوال وادافعه حتى اطلعته على
مكنون سري وباطن امري فتبسم عجبًا واعقبه عبوسًا وغضبًا وقال
يا بني هذه وساوس لا تعقب لك خيرًا والاشتغال بها ضياع لما
بيديك وحرمان مما يستقبلك من الرزق فاقبل على عملك تكن
عن قريب مثلي صاحب دكان وعندك صناع يصرفهم رايك وامرك
واني مضمر ان ازوجك ابنتي وابسط يدك في مالي فضعف ذلك
الخاطر واقبلت على عملي بياض نهاري وفي اخر اليوم لقيت اولئك
الاصحاب وسمعت منهم تلك الاحاديث فقوي ذلك الخاطر واستحكم
وكان سببًا في دخولي معهم ومشاركتي اياهم في الحديث متعرفًا منهم
اسباب وصول مثلي الى التجارة والسعي في اهلها وكان في القوم
انسان عازم على التوجه في مركب له الى سواحل افريقية فعرض
عليّ الصحبة وتكفل لي بالمؤنة والتزم لي بالمعونة وسالني عما بيدي
من الدراهم فاخبرته فتوافق معي على ان يشتري لي بها من بضاعة
بلادنا وعرفني انها تربح تسعة اضعافها فبت ليلتي في حساب اموالي
افرح بنجاح اعمالي فما هو الاَّ ان انكشفت ظلمة الليل بعض
الانكشاف حتى جئت الى الموعد وسلمت دراهمي لذلك الصاحب
ورج   ،الى صاحب الدكان التي كنت بها فاخبرته بتصميم العزيمة
ولم اقف لاستماع كلمة منه ومضيت الى المنزل الذي فيه اختي
فاخبرتها بسيتي وودعتها ولم التفت الى بكائها وعدت الى صاحبي

فرايته قد حزم بضاعتي الى بضاعته وكان قد شحن السفينة ببضاعة الناس وعزم على السفر فقلعنا المراسي في اصيل نسيمه يحيي الروح ويوجب شكر نبي الله نوح والجو على احسن ما يكون من صفاء الاديم والبحر في اضطرابات لطيفة كانها رقص تعليم فبتنا بليلة قاربت اطرافها احاديث ممزوجة بحلاوة الاماني الى ان استقبلنا النهار ونحن في نشاط وسرور فما مضى كثير من النهار حتى راينا الريح بدت فيها قوة بعثت موجة صدمت السفينة فهزتها وخالفت حركتها فرايت الملاحين قاموا وتنادوا وتحاذروا وتواصفوا امرًا ما خطر لي ببال ورايت اهل السفينة في هرج فقلت لمن بجانبي ما للناس تغيرت هيئتهم وتبدلت حالتهم فقال الم ترَ هذه الريح كيف اشتدت وهذا الموج قد اقبل وهذه المركب قد اضطربت قال يعقوب فعجبت لخفة ما هو كائن والجهالة بما يكون فلم نلبث الاّ قليلاً حتى تتابع الموج واشتد الريح واظلم الجو واشتد اضطراب السفينة وماج الناس وتصارخوا واخذ بعضهم ببعض فاشتد جزعي لهول ما لم يسبق لي به شعور وقلت في نفسي اخارج انت لتصير من التجار ام لتكون من دفائن البحار وذكرت من قول معلمي حين كان ينصحني يابني داخل البحر مفقود والخارج منه مولود فاحاطت بي الهموم وتذكرت فرقة اختي وندمت على ما فعلت من اهمال النصيحة وركوب هذا الخطر فكنت الوم نفسي تارة واعتذر لها تارة ثم ان الريح لانت وتهادأ البحر واخذت السفينة في انتظام الحركة

فنظرت الى القوم وقد اصفرت الوانهم وتخاذلت لشدة الرعب اركانهم والملاحون كالعفاريت يترددون في المركب طولاً وعرضاً ويصعدون على السواري ويهبطون بغاية السرعة كأن لم يروا شيئاً مما اخاف الناس وكاد ينخلع قلبي فقمت لصاحبي ودموعي تسيل على خدي ونفسي يتقطع في حلقي وقلت له ما هذه الحوادث البحرية وكيف يتجرأ الناس على هذه الشدائد وهل كان بين السفينة والغرق والناس والموت الاّ شي يسير فاغرب في الضحك ثم قام اليّ فمسح دموعي واخذ في تسكيني وتقوية قلبي وتشديد عزمي وهو يقول ان هذا الشي الذي عاينته ليس بالخطب الكبير وان للبحر احوالاً ذات اهوال فوطن نفسك على استقبال ما استقبلك منها فان الامور لا تنال الاّ بالصبر وما رأيت انموذج شدائد البحر وانظر الى هولاء الملاحين هل تراهم تغيروا او عن وظائف اعمالهم تاخروا واما هولاء الناس فانهم يخافون على انفسهم واموالهم وقد شاهدوا العظائم فهم يذكرون الكبير عند مشاهدة الصغير ومع ذلك فقد اقدموا ولم يتفكروا في موت ولا غرق لعظم لذة الكسب وحب نماء الاموال فعند ذلك سكن اضطرابي وذهب ما بي وتفكرت في بلوغ الامنية وانتهائي لان اكون من اشراف بلدي ويجتمع شملي وشمل اختي واغنيها واغنني عن خدمة الناس حتى وصلنا الى ميناء برموت فالقينا فيها المراسي وطلعنا الى البر وقراره وامنه وراحته فاقمنا اياماً وبعت بعض بضاعتي واشتريت غيره

فظهر لي الربح وهاجت بي الاطماع وهان عليّ امر البحر وفي هذه الاقامة صاحبني بعض الملاحين وتوافقت قلوبنا ونشأت بيننا مودة واخذت في النمو فاشار عليّ يومًا ان يعلمني صنعة الملاحة لاكون معهم على كسب اضيفه لكسبي وليقل رعبي وخفقان قلبي عند معاينة الشدائد وقال لي اذا رغبت في تعلم صنعتنا ودخلت في زمرتنا كان لك ان تحمل في السفينة ما تشتريه من بضائعك من غير اجرة ولا مقابل ولا يعسر عليك ان تتعلم علومنا وتعمل مثل اعمالنا وتكون كواحد منا وربما فقت علينا في مدة يسيرة وما زال بي حتى مالت نفسي الى الدخول معهم في تلك الصناعة فوافقته وتلقيت اشارته بالقبول وشكرته على حسن رايه فلما قضينا حاجتنا من البلد ونزلنا الى السفينة ذهب بي الى القبطان وعرض عليه قصتي فرحب بي وفرح واشار عليّ بملازمته ووعد بان يتولى تعليمي بنفسه وامر بكتابة اسمي في ضمن الملاحين من ذلك الحين فاختلطت بهم وصرت معهم واخذت في تعلم الصناعة ووطنت في السفينة ما معي من البضاعة وصرت كلما رست السفينة على ساحل من السواحل اخرجت من تلك البضاعة شيئًا وبعته على اهله واستعوضته بغيره واخذت في التقدم والترقي في تعلم فنون البحر من القبطان لملازمتي له وائتلافي به فعرفت منه علم الملاحة وحساباتها الهندسية وكيفية تحويل السفن وطي قلوعها وتوجيهها في انحدارها واقلاعها وحساب سرعتها في سيرها فلم تنقضِ هذه السفرة الاّ وانا مستعد

لان آكون رئيساً بين الملاحين وحصل لي من التجارة شي كثير من الذهب والفضة وجملة من التبر بعتها بمبلغ عظيم فاجتمع عندي من المال ما اوقعني في شبكة الطمع واغراني بالاستمرار في الملاحة والتجارة وكان من اقوى الدواعي الى ذلك شدة رغبتي في اتساع دائرة المعرفة والاطلاع فكنت اترقب كل غريبة فاتلقفها فان اشكلت عليّ سالت عنها من يعرفها ولم اقتصر في الاستفادة على هذا القبطان بل كنت اسال عن الشي كل من اتوسم فيه معرفته وكان القبطان المذكور رجلاً متقناً واسع المعرفة والاطلاع ولم يكن يكتم عني شيئاً مما يعلمه ولا يضجر من كثرة ما اساله

المسامرة الرابعة والخمسون

كلب البحر والديمورا

(من حكاية يعقوب)

واذكر اني كنت ذات يوم جالساً على جنب السفينة انظر الى البحر فرايت سمكة عظيمة الجسم غريبة الخلقة ملازمة للسفينة تتبعها في سيرها لا تتاخر عنها ولا تتقدم عليها فسالت القبطان عن اسمها وشانها فقال هذه سمكة تعرف عند الصيادين وغيرهم بكلب البحر وتكبر حتى يكون طولها عشرة امتار وفمها عظيم جداً تبلغ سعته عند فتحه نحو الثلث من طولها فيكون محيطه ثلاثة امتار وقطره متراً واحداً وكلما كبر هذا الحيوان تزايدت اسنانه حتى يكون له عند بلوغه ستة صفوف في كل فك من فكيه ولم يكن له في صغره غير صف واحد في كل فك وليست اسنانه ثابتة في محلها بل هي

متحركة فتارة تنطبق على سطح الفلك وتارة تنتصب فيه على حسب الاغراض ومقتضيات الاحوال واذا انكسرت منها واحدة نبت غيرها في محلها وجلده غليظ لا يؤثر فيه الرصاص وله من القوة وشدة السرعة ما يمكنه به ان يقطع محيط الكرة الارضية في ثلاثين اسبوعاً لو استمر على سرعة سيره ليله ونهاره ومن شانه ان يتبع السفن في البحر ويقتفي اثرها حيث سارت لا يبالي بشدة اضطراب البحر وهياجه وكثرة عواصفه وامواجه وكثيراً ما رآه الملاحون تبع السفينة ولازمها من حين خروجها من سواحل اوروبا الى ان تدخل في سواحل امريكا لا يفارقها في اثناء ذلك بل يدور حولها من كل جانب كانه خفير عليها يتولى حراستها وهو نهم اكول لا يكاد يشبع وفيه قوة القلب وجرأة الاسد وقسوة النمر وجميع السمك يهابه ويخشاه ويخافه

فقال الانكليزي هذا الحيوان يوجد في جميع جهات الارض لا يختص بجهة دون غيرها واما اقتفاؤه لأثر السفن فلانتظار ما عساه يقع به من جيف الموتى ورمم الغرقى وهو يحب حرب البحر بين الناس ليشبع من رمم القتلى لكثرة ما عنده من النهم والشره

فقال يعقوب نعم سمعت من القبطان ما يدل على ذلك في جملة حكاية ذكرها وذلك ان رجلاً من الملاحين راى صاحباً له بمركب قريبة منه وكان غائباً عنه منذ سنين متعددة فنزل من سفينته واراد ان يسبح في البحر ليصل اليه ويسلم عليه فصادفه عند

نزوله حيوان من هذا النوع فاحتز رجله وذراعه امام الناس لا ينفر منهم ولا يبالي ثم احتز رجله وذراعه الاخريين ولم يدرك اصحابه منه غير ما بقي من جثته فمات الرجل فالقوه في البحر فالتهمه ذلك الحيوان الخبيث وكانما كان له بالمرصاد

قال الانكليزي ويتغذى هذا الحيوان بجميع انواع السمك صغيره وكبيره لا يغادر منه شيئًا وسمعت ان اهل مرسيليا مرة اصطادوا حيوانًا من هذا النوع فراوا في جوفه كثيرًا من السمك ووجدوا رجلاً بثيابه ولولا ان الله سبحانه وتعالى جعل فتحة الفم في هذا الحيوان داخلة عن الشفة العليا بقدر ثلثي ذراع لكان لا يبقي ولا يذر لانه لا يتمكن من مصيده وهو بهذه الصورة الاَّ اذا دفعه الى امام او كان من جانبه وقد علم ذلك من خلقته سودان بعض الجهات فتراهم اذا ارادوا صيده اغتنموا فرصة تحوله والتفاته الى جهة من جهاته فيغطسون بجانبه ويشقون بطنه في الحال ثم ياخذونه

فقال يعقوب الجزاء من جنس العمل وكثيرًا ما يكون شره ذلك الحيوان سبب هلاكه فانه لا يرى شيئًا امامه الاَّ التقمه والتهمه وان كان شبعان فاذا اراد الصياد اصطياده القى اليه سنارة قوية مثبتة في سلسلة محكمة وجعل في السنارة شيئًا من اللحم فمتى راها كلب البحر اقبل عليها يشمها ويدور حولها فيجذبها الصياد بالسلسلة قليلاً فعند ذلك يظن الحيوان انه يراد استخلاص هذه الاكلة منه فيسرع

ويلتقمها فتنشب في حلقه السنارة فمتى احس بذلك صار يرعد ويضطرب ويخبط ويتقلب في البحر بقصد التخلص ولا يزال كذلك حتى يكل ويضعف وتضمحل قوته فعند ذلك يجذبه الصيادون الى الخارج ويجهزون عليه ويتصيد الناس هذا الحيوان في جهات كثيرة ويستعملون اجزاءه في اغراض مختلفة فيطعمون دوابهم من لحمه ويستخرجون من شحمه زيتاً يستضيئون به واهل (جوالند) يتخذون من جلده نعالاً واغشية لسروج خيلهم وربما عملوا منه قوارب صغيرة

فقال الانكليزي رأيت مرة في مخزن الاثار القديمة بناحية (روان) سنًا من اسنانه طولها عشر متر ومن طولها هذا يعلم ان الحيوان الذي كانت فيه كان طوله نحو ثلاثين مترًا

فقال يعقوب وهذا الحيوان مع ما له من القوة وكبر الجسم والسطوة قد ذلله الله لسمكة صغيرة تعرف بالديمورا فتتخذه مركبًا لها وتسير به حيث شاءت وتستغني به عن العوّامه التي لغيرها من السمك (وهي كالمنفخة للسمك تمتلىء بالهواء فيعوم بواسطتها في الماء فهي له بمنزلة القربة التي يعوم عليها الانسان) وليس للديمورا هذه عوامة كما لغيرها من السمك وانما لها في جانبي راسها صمامات مستديرات في صورة الشكل البيضي فمتى ارادت الانتقال الى جهة تريدها عمدت الى حيوان كبير من حيوان البحر ايًا كان فتلتصق به بواسطة صماماتها المذكورة فلا يمكنه ان يتخلص منها بحال من

الاحوال ولا يقدر احد على فصلها عنه بالقوة مهما بلغت القوة وتسافر به الى حيث شاءت وتختار في الغالب لهذا الغرض كلب البحر فتسافر عليه ويقال ان اهل الهند يستعملون هذه السمكة للصيد من البحر كما يتخذ الكلب المعلم للصيد من البر فيؤلفونها ويعودونها على بعض الفاظ يستعملونها بها في الصيد كما يستعمل الكلب المعلم صاحبه في صيد البر واكثر ما يصطادون بها حيوان الباغة وذلك انهم اذا ارادوا الاصطياد بهذه السمكة جعلوا لها حلقة يسلكونها فيها بحيث تجري فيها وتسير بها في الماء حيث شاءت بغير ان تخرج منها ويربطون بتلك الحلقة حبلاً لطيفًا فيه قوة ومتانة ثم يضعون تلك السمكة في حوض مملوء من ماء البحر معد لذلك عندهم في مراكب الصيد فمتى راوا حيوان الباغة على وجه الماء اخرجوها من الحوض وارسلوها خلفه واغروها به بما عودوها من الالفاظ فتسير اليه وتلتصق به فعند ذلك يجذبها الصياد بذلك الحبل فياخذها معًا ويفصلها عن بعضها

وعادة هذه السمكة في اوقات اضطراب البحر وثوران الرياح الشديدة ان تنزل الى قرار الماء فتلتصق ببعض ما فيه من الصخور فتبقى عليه الى ان يسكن البحر

وكثيرًا ما تلتصق هذه السمكة بالسفن وهي سائرة وربما رآها بعض المسافرين

قال الانكليزي كان المتقدمون يعتقدون ان هذه السمكة اذا التصقت بسفينة اوقفتها عن السير فلا تبرح من محلها ولا تفارق موضعها

والعجب ان (بلين) احد مشاهير الاقدمين ذهب في كلامه هذا المذهب ووقع في هذا الخطاء فقال ان هذه السمكة الحقيرة على صغرها وحقارتها اذا التصقت بالسفينة قاومت قوة الريح وعظم الشراع وتدبير الانسان وكل هذا ناشئ من عدم الوقوف على الحقائق التي كشف العلم عنها الان ثم قال ليعقوب تمم لنا ما بدات من خبرك لنعلم ما جرى لك مع هذا القبطان وغيره في سفرك



المسامرة الخامسة والخمسون

النوء والغرق

(من حكاية يعقوب)

فقال ان هذا القبطان بعد ايام قليلة مات فحزنت عليه وحفظت له جميله وخلفه الرئيس فاقمت معه كما كنت مع القبطان قبله وكان قد اجتمع عندي من النقود ثلثمائة جنيه أودعت منها مائتين عند اهل القبطان الاول وكنت قد تعرفت بهم لكثرة ترددي عليه ثم اشتريت بالمائة الثالثة بضاعة وسافرت بها مع الرئيس فكانت تلك السفرة انحس اسفاري واشقاها وكنت اذ ذاك قد مضت عليّ في البحر مدة قاسيت فيها من اهواله وشدائده وعظائم اموره ما كنت ازعم انه لا يمكن ان يحصل اكبر منه حتى تحقق لي في السفرة المذكورة اني كنت في قلق عظيم وجهل كبير

وان كل ما قاسيته ليس بشيء بالنسبة لما تجدد بعده فقد حل بي في تلك السفرة بين سواحل افريقيا وجزيرة كناريا ما انساني كل شيء قبله وغطى على كل شيء غيره

وذلك انّا حين كنا بذلك الموضع ظهرت ريح شديدة من ناحية الشمال الغربي خرجت مرة واحدة فتكدر منها الجو واظلم الافق فانزعج القبطان وصار يصرخ على جميع الملاحين ان يتهيأ وا ويستعدوا لوظائفهم وياخذوا حذرهم وسمعت بعضهم يقول لبعض مع الفزع والجزع ها هي الريح ظهرت في الافق من بعد واشاروا الى شي كالسحابة البيضاء وكانه علامة عندهم على ذلك فنظرت فرايتها تتسع شيئًا فشيئًا وتاخذ في الامتداد حتى غطت الافق وحجبت السماء وكان ذلك ليلاً فاستترت بها النجوم واظلم الجو وصرنا لا نرى شيئًا مما حولنا واذا بالريح هبت دفعة واحدة ثم سكنت فظننت ان امرها قد انتهى فنظرت الى القبطان فوجدته هو وسائر الملاحين في جهد جهيد وكرب شديد فسألت بعض الملاحين فقال لي ان هذا السكون علامة على حركة شديدة تعقبه واشار باصبعه الى السماء ثم قال سترى ما يحصل بين السفينة والبحر والهواء فلم يتم كلامه الاَّ وقد اشتد الهواء وزمجر الرعد ولمع البرق واضطرب البحر وهاجت الرياح وظهرت في الجو قطع من السحاب فملات الجو ولم تلبث ان تجمعت مثنى وثلاث ثم تضامت وصارت كلها قطعة واحدة سوداء كلون القار مهيبة الهيئة تهول

الناظر وتروع الخاطر ثم سكن الهواء وانضمت الشراعات الى عيدانها والتصقت بها بعد ان كانت مملوءة هواء فكان ذلك عندهم علامة ايضًا على امر مخيف وكانت السفينة كطائر مجروح يرفرف لخروج روحه ورايت جميع الملاحين واقفين شاخصين بابصارهم باهتين مستعدين لما يامر به القبطان وعليهم سراويل مشمعة لا ينفذ منها الماء ولا اعلم ماذا يامرهم به وما ذا يريدون ان يصنعوه وداخلني من الهم والوهم ما لا غاية فوقه وكان سكون الهواء عند ذلك من اعجب شيء وظهر على وجه الماء رغوة وزبد ولم نشعر الا بدوي ظهر من جوف البحر كانه ينعى من سيموت فيه ثم خرجت ريح شديدة دفعة واحدة فامالت القلوع حتى صارت مماسة لسطح الماء وان كانت الامواج لم ترتفع الا قليلاً لان الهواء ضاغط عليها ثم اتت زوبعة فصرنا في جوفها فما كنا نسمع غير اصوات مختلفة بين تمزيق وتكسير ودوي وصرير وكانت السفينة حينئذٍ في تصرف الريح كاللعبة في يد الطفل يديرها كيف اراد ويقلبها كيف شاء واستمرت مدة يسيرة وهي مائلة الى الامام ثم اعتدلت وعادت الى حالتها الاولى مدة ثم تمكنت منها الزوبعة واجرتها على وجه الماء بسرعة وخفة تخرج عن حد التصور وكان عند ذلك يسمع بين الحبال والاخشاب صرير مهول واصوات مفزعة والسفينة حينئذٍ تسير على حالة عجيبة كانها تمس الماء من غير ان تتمكن فيه فكانت تمر مر السحاب فوق رؤس الامواج فامر القبطان بالشراعات فطويت

كلها الاّ جزء من واحد منها وقبض على الدفة الرئيس بنفسه مع كمال الانتباه والتيقظ والاحتراس وكنت انا حينئذٍ لشدة ما نالني من الخوف والفزع طائش العقل طائر القلب لا انطق بحرف وانما اتحرك وانتقل كالخيال المتنقل بلا تعقل ولا قصد وفي اثناء ذلك سمعت بعض الناس يشير على القبطان بانه يوجه المركب الى البر لانه لم يكن بعيدًا فقال ان هذه الزوبعة لم تترك لنا اختيارًا وفي اثره اشتد عصف الريح وهياج البحر وزاد الخطب عما كان عليه اضعافًا مضاعفة وصرنا لا يسمع بعضنا بعضا من شدة صوت الريح وصوت تلاطم الامواج ببعضها وتلاطمها بالسفينة فلم يكن صوت الادمي يتميز بين تلك الاصوات المزعجة وعند ذلك رايت الملاحين تركوا اشتغالهم بامر السفينة واظهروا اليأس واشتغل كل واحد بنفسه ورايت كلاً منهم ربط نفسه بحبل من حبال السفينة وكان الموج يعلو على جوانبها وتارة يدخلها من جميع جهاتها حتى يظن انها غرقت وتارة كنا نرى السفينة كانها تقطع الموجة وتنفذ من جوفها بدل أن تعلوها وتمر فوق ظهرها فان الهواء كان يلجئها الى ذلك بقوة ثقله فوقها وكثرة ضغطه عليها وتارة تكون على اعلا الموجة فتدفعها الريح دفعة واحدة بقوة وعنف فتسقط بينها وبين التي تليها فيظن انما خسف بها وعند ذلك تمر عليها الموجة من اولها الى اخرها فتغمر في مرورها جميع من بها او تمر من فوق روسهم فكنا جميعًا مترقبين وقوع الغرق في كل دقيقة فما من لحظة تمر الاّ

ونحن نراها اخر الاجل ونتوقع بعدها الخطر وجزمنا بالهلاك وانقطع رجاؤنا من النجاة وخاف اعظمنا جسارة وجزع اشدنا تجلدًا وطاش اثبتنا جاشًا وحار اكثرنا تجريبًا وتعودًا وبقينا شاخصي الابصار غائري العيون باهتي الالوان فاقدي الحركة كاشباح موضوعة وصور مصنوعة وفقد كل منا قوة اعصابه وتغيرت هيئته وصورته فان مياه البحر فعلت في الجلد فعلها وابقت به اثارها فاحالت اولاً لونه وبدلته به لونًا اخر ثم لما تمادى مرورها عليه ومباشرتها له وضربها فيه احدثت فيه استرخاء وانتفاخًا واضعفت الكيموس الحيوي ونقصت منه والهواء في اثناء ذلك يساعدها في اعمالها ويضيف افعاله الى افعالها ويحملها الى الروس ويضرب بها العيون والوجوه حتى ضاعت القوة والبصر وانضاف الى ذلك ان اضطراب السفينة واختلال حركتها وكثرة تقلبها احدث اضطرابًا في المعدة واختلالاً في الاعصاب ودوارًا في الراس وضعفًا في مجموع الجسم فاحاط بنا من الخطب والكرب ما لا تتسع له العبارة ولا يفي به التمثيل واستمر الامر علي ذلك نحو ست ساعات ثم حصل بعده هدء وسكون فاذا بالقبطان يقول ها قد ظهرت علامات فورتونة اعظم مما قبلها فكان سكون البحر في تلك اللحظة كانه سكون هدنة فلم نشعر الاّ وزوبعة كالريح العقيم كانت الاولى بالنسبة لها كالنسيم فكسرت جميع السواري وقطعت الحبال وضغطت السفينة حتى كادت تنزلها الى قرار الماء ثم خفت عنها فارتفعت واعادت ضغطها

فنزلت وما زالت تلعب بها ترفعها وتضعها وتقلبها من جنب الى جنب ومن جهة الى جهة بحيث صغرت الاولى وهونت امرها عندنا واستمرت كذلك نحو اربع ساعات ثم هدأت وسكنت حتى رجونا السلامة وكدنا نذوق حلاوة الامن فلم نشعر الاّ والماء ينبع من بطن السفينة فلم نهتدِ الى منبعه الاّ وقد اتسع الخرق وطفح الماء واخذت السفينة تنزل بالتدريج الى جهة قاع البحر فحينئذٍ خلع الناس ما عليهم من الثياب والقوا انفسهم في البحر ففعلت مثلهم وصرت اعوم من غير تعقل ولا روية ولكن كان الشاطي غير بعيد فسبحت حتى وصلت بعد اللتيا والتي فلم تستقر قدمي عليه حتى انطرحت على بعض الصخور ذاهل العقل ذاهب الشعور عديم الحس والحركة لا فرق بيني وبين الميت وكاني غلبني النوم هناك من شدة ما قاسيت من العناء والتعب فنمت ولم استيقظ حتى ضربني حر الشمس فقمت فوجدتني عاري الجثة بادي العورة ضعيف القوة خامد النفس وكان قد مضى عليّ نحو اليومين لم اذق شيئًا فتحاملت على نفسي وقمت انظر امامي وخلفي واتلفت يمنة ويسرة فلا ارى احدًا من خلق الله تعالى ولا يقع بصري الاّ على احجار يابسة وصخور عالية وارض موحشة فلا اعلم هل غرق جميع من كنت معهم من الملاحين ام نجا منهم احد الى ارض غير هذه الارض ام خرج منهم احد الى البر فاهلكه بعض الوحوش الضارية او الامم المتوحشة ثم ادركتني وحشة كبيرة وخوف على نفسي عظيم

وصرت اتفكر فيما صرت اليه وما كنت فيه وقلت في نفسي ويحك يا يعقوب ما اشقاك واقل حظك فوالله كانك ما تخلصت من ورطة الاَّ لتقع فيما هو ادهى منها فماذا تصنع وما هذه الحال واين مالك الذي كنت اكتسبت وبضائعك التي اشتريت وارباحك التي املت وثروتك التي فارقت لاجلها الاحباب وعصيت عليها النصاح وزايلت البلاد وركبت هذه الاخطار هذه نفسك قد سلمت من بين نفوس هلكت رنقيت وحدك لا معين ولا انيس وقد نجوت هذه الدفعة من البحر فما يؤمنك من مهلكات البر وعاديات الوحوش ومتوحشي الآدميين



المسامرة السادسة والخمسون

الوحدة

(من حكاية يعقوب)

ثم اني سرت اتمشى قليلاً قليلاً على ساحل البحر فرايت السفينة التي كنا فيها يلوح جزء منها ظاهرًا من الماء على مسافة غير بعيدة من البر بقدر كثير ورايت بعض براميل قد ساقتها الامواج الى الشاطي فنزلت في الماء واخذت بعضها فوجدته مملوءًا من البقسماط والخبز ففرحت به وان كان البحر قد افسده وكذلك وجدت بعض قطع من قماش القلوع التي مزقتها الريح وبعض ثياب من ثياب الملاحين فاخذت من ذلك ما قدرت عليه ونشرته في الشمس حتى جف وسترت عورتي واكلت ما يمسك الرمق وقلت في نفسي اتردد على الساحل لعلي ارى مغارة او حجرًا

اوي اليه خوفًا من الوحوش واستعمالاً للحذر والتحذر بقدر الطاقة وغداة غدٍ اذا سكنت الريح واطمأن البحر اذهب الى السفينة واخذ منها ما اجده مما يلزمني وعلى ذلك صرت اتمشى على الساحل واتلفت حتى وجدت فجوة اشبه بجحر حيوان فقعدت بعيدًا عنها مستترا ببعض الصخور انظر هل يدخلها او يخرج منها شي من السباع او الهوام فلم اجد شيئًا دخلها ولا خرج منها فدخلتها خائفًا متاملا مستعملا للاحتراس والحذر ونظرت في ارجائها فوجدتها خالية ففرحت بها وقلت اجعلها سكني وماواي حتى يحكم الله بحكم ثم ذهبت ونقلت اليها ما جمعته واقبل الليل فاويت اليها وكمنت فيها واكلت بعض لقيمات من البقسماط ولم يكن يعوزني الاّ الماء فوطنت نفسي على الظماء وكان البقسماط شديد الملوحة لما خالطه من ماء البحر فتمكن مني الظماء فبت اكابد المه الى الصباح فلما اسفر الفجر خرجت وسرت على ساحل البحر فوجدت عين ماء يحف بها بعض شجر فقصدتها وشربت منها فوجدت فيها بعض ملوحة ولكني مع ذلك فرحت بها لشدة ما قاسيت بالليل من الظماء ثم نظرت فرايت على مسافة منها غابة اشجار كنت اسمع من جهتها تغريد الطير من بعد فدلني ذلك على ان فيها كثيرا من الطيور وسنح لي ان اتخذ مسكنًا بالقرب من تلك العين فجعلت اجيل النظر في ذلك وكنت احب ان اكون بالقرب من الساحل رجاء ان ارى سفينة تمر فاشير الى من فيها عساها تاتي فانزل فيها

واتخلص مما انا فيه ولكن لم اجد بالقرب من تلك العين فجوة مثل الفجوة التي بت فيها فخطر ببالي اني ان فعلت ذلك لا آمن على نفسي من الوحوش خصوصًا انا كنت لا سلاح لي فاستحسنت البقاء في المكان الاول الى ان ادبر حيلة في الوصول الى المركب وآخذ ما يمكنني اخذه منها ثم اتبع الشاطىء سائرًا لعلي اعثر بمحل آهل بالناس فوقع هذا التدبير عندي احسن موقع فنهضت ومشيت على الشاطىء الى ان حاذيت المحل الذي غرقت فيه السفينة فنظرت اليها فوجدت بعض اعواد شراعاتها ظاهرة وبيني وبينها نحو ميل فهبت العوم وخفت ان تنقطع قوتي في اثناء المسافة فلا اصل الى السفينة ولا الى الساحل وقد كان في جسمي بقايا التعب والفتور مما قاسيت من المتاعب والمصاعب السابقة فعمدت الى قطع من خشب كان الموج الجاها الى البر وعمدت الى بعض اشجار فاخذت قشورها وعملت منها ومن بعض الثياب التي قذفتها الامواج للساحل حبالاً ربطت بها تلك الاخشاب الى بعضها في البحر على هيئة الرمث (الرومس) وانزلتها الى البحر وركبت عليها وقد اتخذت لي مجذافين من بعض الاخشاب صرت اعمل بهما قاصدًا جهة السفينة حتى وصلت اليها وكانت قد غرقت عند شط جزيرة فبقي جزء منها ظاهرًا وباقيها مغمورا بالماء فنزلتها وانغمست في الماء ودخلت محل السلاح فاستخرجت منه ثلاثة ازواج من الطبنجات وبندقيتين وبرميلا صغيرا مملوءا بارودا واخذت ايضًا

بعض ثياب عثرت بها واستخرجت ايضًا سريرًا ارقد عليه وبرميلين مملوءين من البقسماط وبرميل قديد (بصطرمه) وبعض مشروبات وغير ذلك مما بدا لي لزومه مثل قدوم ومنشار وسيف وسكين وهكذا كلما عثرت بشيء ارى انه ينفعني واحتاج اليه اخذته فان وجدته ثقيلا اربطه بحبل ثم اظهر على سطح الماء واسحبه حتى اخرجه من البحر وان وجدته خفيفًا امسكته بيدي ورفعته

ثم وضعت ذلك كله على الرمث (الرومس) الذي صنعته وركبت فوقه وصرت اعمل بالمجذافين قاصدا الى الجهة التي كنت بها في البر حتى وصلت الى الساحل فنقلت جميع ذلك في الموضع الذي كنت قد اخترته لسكناي ثم ذهبت الى الغابة فاتيت منها ببعض اخشاب فحوطت بها على جميع منافذ المحل وانما ابقيت لي منفذا صغيرا كالباب اخرج منه وجعلت له بابًا من بعض قطع من الخشب ضممتها الى بعضها واحكمتها عليه واعددت لي خشبة متينة امكنها من الداخل حتى لا يمكن فتحه من الخارج ثم ادرت على المحل كله جسرا عظيمًا عملته من تراب واحجار نقلتها ووطنتها وجعلت من وراء ذلك خندقًا عظيمًا حفرته فصرت كاني في حصن حصين وحرز منيع فيه كل ما احتاجه من الزاد والذخيرة والالات والادوات وكنت اود لو عرفت حال اصحابي وما حل بهم واتمنى ان اعثر بواحد منهم ولهذا كنت دائمًا اتلفت واتطلع الى جهات الساحل لعلي ارى واحدا منهم يخرج مثلما خرجت فاجعله انيسي

في وحشتي ومعيني على وحدتي فلم اصادف احدًا مطلقًا وبعد يومين
القت الامواج الى الساحل بعض الجيف فاحتفرت لها حفرا واريتها
بها وبقيت على هذه الحال خمسة عشر يومًا لا ارى من يزاحمني ولا
اجد من ينغص على عيشتي سوى الوحدة ووحشتها والفرقة وحرقتها
والتفكر في اختي ووطني ومن كنت معهم ولم يكن سوى ذلك شيء
يهمني او يغمني وكنت اخذت من السفينة ما يكفي لمؤنة سنة كاملة
وكان عندي ايضًا من البارود والسلاح ما يكفي للمدافعة عن
نفسي وصرت كل يوم ازيد شيئًا في تحصين المكان وجعلت فيه خروقًا
صغيرة خرقتها في مواضع متعددة من اعلاها لنفوذ الضوء والهوا
ولكي ارى منها ما لعله يطرأ في الخارج وجعلت في الجسر مزاغل
لاستعمالها في المدافعة عن نفسي اذا دهمني عدو اخافه واجتهدت
مع ذلك في ابقا ظاهر المحل على اصل هيئته كي لا ينتبه له من يمر
به ومكثت مدة من الزمان على ما انا عليه لا ارى احدا وكنت كل
يوم اصطاد شيئًا من السمك والطير فاشتوي منه واطبخ كما اشتهي
حتى وجدتني تمهرت في اصطناع الاطعمة ووجدت في الغابة كثيرا
من انواع الفاكهة والخضراوات والبقول فكنت اخذ منها كل ما

احب

المسامرة السابعة والخمسون

العود

(من حكاية يعقوب)

وفي بعض الايام دخلت الغابة على العادة ثم اوغلت فيها فلما اردت العود رايت على البعد قوماً على خيل فخفتهم حين رايتهم وقلت في نفسي هل اختفي منهم فانجو من شرهم ام اظهر لهم لعل خلاصي من الوحدة يكون على يدهم ولبثت برهة في ارتباك وحيرة اتردد بين الامرين ثم اخترت المواراة منهم وصعدت على شجرة ذات اغصان واوراق كثيرة فاختفيت فيها عن اعينهم وصرت انظر من خلالها اليهم فما زالوا يقربون من الشجرة التي انا عليها شيئاً فشيئاً حتى وصلوا اليها فاحتاطوا بها فتيقنت انهم قد لمحوني وكان معي اذ ذاك بندقية وزوج من الطبنجات فحدثتني نفسي برميهم بالبندق

ثم قلت في نفسي انهم جمع كثير فان رميتهم فلا بد ان يسلم بعضهم فاقع في يدهم فيقتلوني او ياسروني ثم يعذبوني فرايت الصواب ان لا احدث شيئًا مما هممت به وبقيت انظر اليهم وانتظر ماذا يفعلون فرايتهم قومًا سود الوجوه عليهم ثياب سود وبايديهم نبال ورماح فنظروا اليّ واشاروا بالنزول من فوق الشجرة فاشرت اليهم باني خائف منهم ان يقتلوني فاومأ احدهم باصبعه الى السما ففهمت انه يعاهد الله ان لا يصيبني مكروه ثم فهمت من اشارة اخرى ان قصدهم ان يعاملوني معاملة الاخوة فتحيرت بين ان انزل اليهم اعتمادا على اشارتهم او ابقى بمكاني احتياطا لنفسي وتحرزا من غوائلهم ثم قلت ان كل ما حصل من اول الامر الى اخره انما نشأ من طاعة النفس في رايها ومتابعة هواها وعدم التفويض فيما أشكل عليها لربها وهذا كان السبب في كل ما اقاسيه خصوصا انهم في امكانهم اذا لم انزل اليهم بالطوع والاختيار ان ياخذوني بالقهر والاضطرار ولو بان ينتظروني حول الشجرة يوما فيضطرني الجوع الى النزول اليهم والمصير في قبضتهم وذلك قد يغريهم باسأتي فالاولى التسليم لله وترك اللجاج ثم نزلت اليهم فاجلسوني بينهم وصاروا يرطنون معي ولا افهم ما يقولون واكلمهم فلا يفهمون ما اقول فاشرت لهم نحو البحر ففهموا اني كنت في مركب وغرقت باهلها ولم ينجُ منهم الاّ انا ثم افهمتهم بالاشارة اني اتخذت لي مأوى بقرب الموضع الذي نحن به واشرت لهم الى جهته فقاموا معي حتى وصلنا

اليه واشرت لهم نحو المركب التي غرقت والرمث (الرومس) الذي عملته والمتاع الذي نقلته فظهر على وجوههم علامة السرور والفرح وتوسمت فيهم الشفقة عليّ والرافة لي فاطمأن قلبي وذهب روعي ودخلت واخرجت لهم طعاما وشرابا فاكلوا وشربوا وكان فيهم رجل طويل القامة يظهر عليه علامات القوة والزعامة فاخذني من يدي وصار يرطن مع اصحابه بكلام لا افهمه ولكن عرفت من أدبهم في حقه واصغائهم لكلامه وما لاح لي من قرائن الاحوال انه كبيرهم وانه اختص بي دونهم ثم اشار اليهم فقاموا جميعًا على ما كنت جمعته فقسموه بينهم واخذ كل حصته من ذلك وركبوا خيلهم وجعلني هذا الرئيس خلفه وسرنا ثلاثة ايام بلياليها نجد السير في ارض لا علم لي بها وكنا في سيرنا تارة نقرب من الساحل وتارة نبعد عنه وتارة نسير في نجاد وجبال وتارة نسير في غابات واشجار وتارة في صحار وقفار الى ان وصلنا في اليوم الرابع الى بلدة صغيرة فوجدت اهلها كلهم سود ساكنون في خصاص صغيرة فاقمنا بها يومًا بليلته وكنت ما بين هولاء العبيد كاني اعجوبة او طرفة مستغربة فكانوا يهرعون للتفرج عليّ من كل ناحية وينسلون من كل حدب ويحدقون بي من كل جانب حتى لم يبق صغير ولا كبير ولا عظيم فيهم ولا حقير الاّ جاء للنظر الي والتفرج عليّ حيث كنت وفي اي مكان استترت وكانت النساء تهرع اليّ قبل الرجال وكان لهولاء المجتمعين حولي رطان كثير ولغط عظيم لا

افهمه فضجرت من ذلك وضاق صدري ولكنني تجلدت وتصبرت ووطنت نفسي على الاغضاء والاحتمال وقضيت اليوم والليلة على هذه الحال وبت طول الليل لم اغتمض بنوم ولا استقر بي مضجع ولا انقطعت عني الاوهام والوساوس والفكر فكنت تارة اتذكر ما مضى لي من طيب العيش مع اختي وتارة اتفكر في وقوعي في يد هولاء القوم واني صرت بينهم اسيرا في ارض لا ارى لي بها مجيرا ولا نصيرا فاشتد قلقي وزاد ارقي وصمت عن الزاد وحرمت الرقاد وبت ابكي وانوح والوم نفسي واوبخها حتى لاح الصباح فامر لي سيدي بفرس فركبتها وركب باقي الجماعة خيلهم وسرنا جميعاً اخذين جهة الشمال الى ان وصلوا بعد يومين الى بلدة كالاولى او اسواء منها فقابلنا قبل ان ندخلها قوم من العبيد يضربون بالدفوف ويغنون بغناء كالعديد ويظهرون الفرح لقدومهم ويرقصون ويضربون الارض باقدامهم واتى الينا ناس من كل جانب فما دخلنا البلد الاّ ونحن في موكب عظيم ففهمت ان هذا البلد بلد سيدي وكان حولي من الناس عدد كثير وجمع غزير فسرنا معهم حتى وصلنا الى دار في القرية فدخلناها ثم ذهب كل من القوم الى محله بعد برهة وبقيت انا وسيدي فاشار اليّ اشارة فهمت منها ان هذه الدار داره وانه قد امر لي بمحل من محالها واصحبني بمن اوصلني الى ذلك المحل فاذا هو خص في جانب الدار وفيه حصير من القش وسرير مصنوع من فروع الاشجار

منسوج بسيور من الجلد واعطوني بعض اوان من خشب وفخار على حسب اصطلاحهم في تلك الاقطار وكانوا قد تركوا لي من امتعتي بعض اشيا تجاوزوا لي عنها مع بندقية وزوج طبنجات فجمعت ذلك كله ووطنته في الخص الذي اختصوني به واتخذته لي مأوى ومسكنًا فكنت اتوجه معهم اينما توجهوا ثم اعود اليه فانزوي به مدة النوم بالليل واوقات الفراغ من الشغل وانقدت لسيدي غاية الانقياد وصرت ممتثلاً لامره في اي شيء اراد فاحبني وقربني منه وكلما زدت في خدمته والادب في حقه زادت محبته لي واتخذت البشاشة وحسن الخلق ولين الجانب مع الكبير والصغير دأبا وعادة مستمرة عرفت بها بين القوم فاحبوني كلهم وبهذه الحالة امنت على نفسي من اذاهم وشرهم وتعلقت بمعرفة لغتهم فعرفتها في مدة قريبة وصرت اتكلم بها معهم واعتدت معاشرتهم فداخلني نوع من الراحة وخلو البال وبقيت على ذلك فيما بينهم كاني واحد منهم الى ان تمكنت من الخلاص من ايديهم



المسامرة الثامنة والخمسون

النيل

فقال الانكليزي ان من يطلع على كتب السياحين الذين طافوا بتلك البقاع يجد ان جميع السواحل مسكونة بامم سودانية مختلفة العادات والاحوال والاعتقادات وجميعهم يتجرون في الذهب فهو من عروض التجارة المتداولة في تلك الجهات بين اهلها وبين اهل اوروبا كالفرنساوية والانكليز والبرتغاليين وبسبب اختلاط اهل السواحل الان بالاوروباويين قد تغير بعض عاداتهم واحوالهم بخلاف من كان بعيداً عن الساحل فانهم لم يزالوا على ما كان عليه اباؤهم واسلافهم من العقائد الفاسدة كما نقل ذلك عمن وصل اليهم فقد طاف بتلك الجهات خلق كثير من اهل اوروبا وشرح كل منهم ما رآه من العادات والاحوال وما قاساه من الشدائد

والاهوال وما شاهده من العجائب والغرائب وكلهم متفقون على ان الذهب في تلك الجهات كثير وان مواد تجارتهم الذهب والصمغ والرقيق والعاج اعني عظم الفيلة وان كانت هذه الاصناف في بعض الجهات متفاوتة قلة وكثرة فقد يكون بعضها في جهة اشهر منه في جهة اخرى كالعاج مثلاً فانه قليل بالسواحل التي تقطعها مياه السيول وتكثر فيها الوحول والجهات التي فيها إسلحة نارية لان الفيلة لا تهوى تلك الاماكن بل تنفر منها وتفر الى الغابات وغيرها من الجهات التي ليس بها ذلك فيكون العاج فيها كثيراً

فقال الشيخ لا يشك عاقل في ان الانسان بسبب شدة فطنته مع صغر جسمه وضعف قوته يمكنه ان يستحوذ على الفيل وغيره من الحيوانات الكبيرة التي تزيد عليه في الجسم والقوة والبأس بدرجات كثيرة ولكن ليت شعري ما الطريقة المستعملة في اصطياده والقبض عليه وكيف يتوصل اليه

فقال الانكليزي قد بلغنا عمن ساح في الاقطار واثبت ما شاهده فيها من الاثار ان اهل الارض التي بها الفَيَلة اذا ارادوا صيدها تجمعوا واخذوا اسلحتهم وذهبوا الى محالها التي تالفها في اوقات معلومة عندهم وللفَيَلة اوقات تجتمع فيها افواجًا وتنتقل من محلاتها الى جهات اخرى لطلب الماء او المرعى ومن عاداتها ان تسكن الغابات المنقطعة ما دامت تجد فيها الماء فاذا نشفت ما بها من البرك والمناقع اخذت في الانتقال الى شواطىء الانهار ولا تزال

بها الى اوان نزول الامطار واهل تلك الجهات يعرفون ما ذكر
من عاداتها واوقات تنقلاتها ومن العادة عندهم في اصطيادها ان
يجتمع عندهم الخمسة والستة وياخذون معهم من البارود والرصاص
والنبال والمؤنة ما يكفي لستة ايام فاكثر ويذهبون الى محال
الفيل وياخذون في البحث عنه مع كمال التحرز والاحتياط
ويتعرفون محال وجوده باثاره كاغصان اشجار متكسرة بخرطومه
وكرجيعه واثر قدميه وما اشبه ذلك وقد صار لهم في اقتصاص
اثره ومعرفة امره بطول المزاولة وكثرة التكرار ما لا مزيد عليه
من المعرفة والخبرة بحيث متى راى الواحد منهم اثر قدم الفيل في
بقعة من الارض امكن له ان يقول على سبيل القطع والتحقيق في
اي زمن مر من تلك البقعة والى اين سار واين يوجد فتراه متى
راى اثره كانما ابصره فمتى علموا محل الفيلة بما اعتادوه من العلامات
كمنوا لها في محل مناسب حتى اذا راوا قطيعًا منها على البعد تبعوه
بغاية ما يمكن من الاحتراس وانتظروا انفصال احدها من القطيع
فعند ذلك يقتفون اثره ويتبعونه على البعد مع الحذر والتحرز
بحيث يزحفون على بطونهم بين الحشائش حتى يتمكنوا منه فاذا
تمكنوا منه رموه دفعة واحدة ثم احتجبوا عنه بين الحشائش مخافة
ان يراهم فيبطش بهم فاذا احس الفيل بجروحه ذهب الى الشجر وحك
جسمه به فاذا لم يجد لذلك فائدة امتلأ غيظًا وهام لوجهه الى ان
يتعب من كثرة جريه وما يسيل من دمه فيكل وتسقط قواه ويقع

على الارض فياتون اليه ويجهزون عليه ويسلخونه وياخذون جلده فيتخذون منه نعالاً يلبسونها ولحمه لياكلوه فيقطعوا اللحم قطعًا رقيقة ينشرونها في الشمس لتجف فتصير قديداً (بصطرمة) يدّخرونه عندهم لمؤنة السنة فربما كانت موؤنة بعضهم اكثر ايام السنة منه ويقلّعون اسنانه وانيابه بالفاس وياخذونها مع سائر عظامه ليبيعوها للتجار وهي العاج المعروف فان اصابوا صيداً كثيرًا فربما اقاموا في الغابة شهرًا واكثر يقتاتون من لحم الفيل ومن عسل يستخرجونه من بعض الاشجار ويقال ان لحم الفيل في الصغر يشبه في الطعم لحم البقر فاذا كبر يبس لحمه وعسر هضمه

وللعاج الذي يجمعونه تجار مخصوصة يشترونه منهم وقد يجلب مع الرقيق ويباع بالساحل فيشتريه الاوروبيون للتجارة. وذكر كثير من السياحين نقلاً عن الصيادين ان الفيلة تبدل انيابها في كل ثلاث سنين مرة وذلك لانهم قد يجدون في الغابات بعض انياب ملقاة على الارض وقد يقع بين الفيلة وبعضها معارك فتقع منها انيابها وانياب الفيلة عادة تكون مصمتة وانما تكون روسها مجوفة

فقال يعقوب العادة في اصطياد الفيلة عند اهل البلاد التي كنت بها كما رايته مدة اقامتي بينهم ان كبيرهم وهو الذي كنت عنده اذا جاء الوقت المعلوم لصيدها يخرج ومعه جميع من في القرية من الرجال نحو مائتي رجل فاكثر ما بين راجل وفارس معهم

اسلحتهم وعددهم كالبنادق والحراب والنشاب والفاس وغير ذلك فيسير بهم الى ان يصلوا الى الغابة التي بها الفيلة فيحتاطوا بجزء منها في هيئة دائرة عظيمة ثم انهم يتقدمون الى امامهم وهم يتقاربون في سيرهم وينضمون الى بعضهم حتى تضيق الدائرة ويقرب بعضهم من بعض فاذا راوا فيلاً رموه جميعًا بالسلاح دفعة واحدة حتى اذا اخذ في الغضب والهياج هرب المشاة خلف الفرسان وصار الفرسان يضربونه بالسلاح الى ان يقع على الارض فيفعلون به ما تقدم وقد يصاب في الحلقة حيوانات غير الفيلة مثل بقر الوحش وغيرها ومن عادة الفيلة ان تجتمع في الصباح اسرابًا تبلغ افراد السرب الواحد منها في الغالب نحو العشرين فيلاً ترد الماء مجتمعة ومن عادتها ان لا تؤذي من صادفته في الطريق ولا تتعرض له بسوء الاَّ اذا تعرض لها او صادفته عند خروجها من الغابة او قرب من اناثها وقد رايت ذات يوم خارج البلد امرأة مرت بمحل انثى من الفيلة معها ولدها فاخذتها بخرطومها ودفعتها الى العلى فارتفعت عن الارض نحو مائة وخمسين قدمًا فوقعت ميتة

وقد اختلف في مدة حمل الفيلة فقيل انها ستة وثلاثون شهرًا وقيل ثمانية عشر فقط وتمتد مدة الرضاع الى ثمانية اعوام ويبتدي في المشي من حين ولادته ويمتد عمره الى مائة وخمسين سنة ولكن كل ذلك اقوال لا يقطع بصحتها لعدم امكان تحقيقها بسبب توحشه وامتناع الفيلة المتالفة من التناسل في غير مواطنها

فقال الشيخ قرأت في جملة من الكتب العربية المؤلفة في طبائع الحيوان قديمًا وحديثًا ان مدة حمل الانثى من الفيلة نحو سنتين وهذا كالمتوسط بين القول بانها ثمانية عشر شهرًا والقول ستة وثلاثون شهرا ويقال ان الذكر ينزو على الانثى اذا مضى له من العمر خمس سنين وزمان نزوه الربيع واذا حملت الانثى لا يقربها الذكر ولا ينزو عليها الاَّ بعد ثلاث سنين وقال عبد اللطيف البغدادي انه لا ينزو الاَّ على فيلة واحدة وله عليها غيرة شديدة فاذا تم حملها وارادت الوضع دخلت النهر حتى تضع ولدها خوفًا عليه ان يسقط علي الارض لانها لا تلد الاَّ وهي قائمة فتلد والفحل عند ذلك يحرسها ويحرس ولدها من الحيات وقد اجمع المورخون على ان الفيل اذكى جميع الحيوانات فطنة وفيه من الفهم ما يقبل به التأديب ويفعل ما يامره به سائسه من السجود للملوك وغير ذلك من الخير والشر في حالة السلم والحرب غير ان النظر الى ظاهر هيئته وشكله يحكم عليه بالبلادة فجثته الضخمة وجلده الامعط العاري عن الشعر وقوائمه الغليظة التي كانها لم تخلق للحركة وصغر عينيه وسعة اذنيه المسترخيتين كل ذلك يدل على اتصافه بزيادة بلادة عن المتعارف ولكنا اذا اعتبرنا خصاله وجدناه بخلاف ذلك والفيل اكبر جميع الحيوانات واعظمها قوة وليس من طبعه الفتك والاذى بل هو مع كمال جرأته حليم سليم الطبع وغاية الامر انه يعمل ما عنده من القوة في الدفع عن نفسه او عن

صاحبه ومن طبعه المؤالفة والمؤانسة واذا اجتمع سرب منه كان اكبر الجماعة سنًا هو المدبر والقائد لها وكان من دونه في السن وازعها واذا سرنَ على هذه الحالة اهتصرنَ اغصان الشجر في طريقهن واذا دخلن مزرعة لا يلبثن ان يفسدن الحرث ولا يكاد يصرفهن وهن مجتمعات عدد وافر من العسكر المتسلحين الاَّ انه لا يندر ان يطارد القناصون منها ما كان منفردا ولكن القناص اذا اخطاه ولم يمكنه الهرب منه هجم عليه في الحال جريًا فيضربه اولا بنابه ثم يتناوله بخرطومه ويرمي به الجو ويرقب سقوطه حتى يدوس عليه فيقتله وكثيرا ما وقع مثل هذا على ما اخبر به المسافرون ومن طبع الفيلة انها تكدر الماء قبل ان تشربه وكثيرا ما توعيه في خراطيمها ثم تنشبه اما للعب او لاخذ الثار ممن يسوءها فينطلق انطلاق ماء الميزاب وقد كان مرة فيل سائرا وحده في مدينة فوضع خرطومه على دكان خياط فنخسه احد الصناع بابرة ليعجب نفسه واصحابه فكظم الفيل غيظه ثم سار الى محل ذي قذر وملا منه خرطومه ورجع الى الدكان واطلق ذلك القذر على من كان قد ساءه ونفى عنه بذلك ما لحقه من العار ووجود الفيلة في افريقة على ما يظن اكثر مما سواها غير ان الموجود منها في اسيا اكبر واعظم واكثر نفعًا لبني ادم اما في الهند على الخصوص فانها تدرّب على الشغل والحركة في حالتي الحرب والسلم بترتيب حسن وتباع على حسب ضخامتها واحيانًا على حسب الوانها

والابيض اكثرها قيمة وقد تعبدها اهل الهند في بعض المحال ويقال ان الفيل اذا انقاد كان اطوع جميع الحيوانات والينها جانبًا وكانت محبته لسائسه احدى العبر فيرى منه حينئذٍ ان غاية حياته انما هي لخدمة صاحبه وطاعته ويتودد الى من له به معرفة ويستعمل خرطومه كاليد وكالذراع مساعدة لما يراد من تحميله ويعنو لمدبره ان يركب على عنقه ويسوقه بعود من حديد وكلمة واحدة من راكبه اذا عرفه تكفي في الغالب لحركته اما الغريب فهيهات ان يطيعه وقد حدث ان فيلا هاج مرة هياجًا شديدا لسوء معاملته فيما ظن فقتل سائسه ولكنه ظهر منه بعد ذلك تاسف والتياع شديدان وقد كانت ملوك الشرق قبل احداث البنادق والمدافع تحمل لوازم الحرب على الفِيَلة المضراة وتحارب عليها واما الان فانما تتخذ عند من يقتنيها للتفاخر او لحمل الاثقال العظيمة اذ ليس في الحيوان ما يطيق الحمل اكثر منه فان له قدرة على ان يجر ما لا تكاد يقلّه ستة افراس وذلك دون كثير معاناة ويحمل على ظهره من ثلاثة الاف رطل الى اربعة الاف وعلى خرطومه وحده الف رطل وانا حث على السير سار في اليوم مائة ميل تقريبًا والاّ فخمسين او ستين واهل الهند يعلمون الفِيَلة الفتك بالمجرمين والانتقام منهم فتمزقهم بخرطومها او تنفذ فيهم انيابها ولكنها ليست تميل لذلك بالطبع فهي انما تفعل بالرغم والاجبار

قال ناقل الحديث وكان برهان يسمع ما جرى من الحديث

في امر الفيل فلما انقطع القول فيه سال اباه عن حكم آكله فقال قد اختلف العلمـاء فيه فاباحه البعض وحرمه البعض والتحريم اشهرقولي الشافعي وعلى القول بحرمته يكون عظمه نجساً لا يطهر بحال عند الشافعي كما هو رايه في عظم كل حيوان غير ماكول ويكون طاهراً عند ابي حنيفة كما هو رايه في كل عظم وشعر وقال مالك انه نجس يطهر بالصقل



المسامرة التاسعة والخمسون

الخلاص

(من حكاية يعقوب)

ثم قال الانكليزي ليعقوب قد ذكرت ما حصل لك من ابتداء امرك الى ان وقعت في يد هولاء القوم ولم تذكر كيف تخلصت من ايديهم

فقال اني بعد ما تعلمت لسانهم وتكلمت بكلامهم صرت كاني واحد منهم لا يفرق بيني وبينهم الاّ مجرد اللون حتى انهم كانوا لا يسمونني الاّ بالابيض فصار هذا الاسم علما عليّ عندهم وان كان لوني قد تغير عن حالته الاصلية بسبب طول مكثي في تلك البلاد وكثرة تعرضي لحر الشمس وكان لوني الابيض في اول الامر اعجوبة عندهم يستغربه كل من راه ولكن لما طال مكثي

عندهم اعتادوه وصار لا يستغرب لديهم وكنت مدة اقامتي بينهم نافعًا لسيدي في الصيد والقنص وجميع ما يناط بي من الاعمال فاحبني حبًا شديدًا استتبع محبة جميع اهل البلد لي واقبالهم عليّ وكنت اسمع من بعضهم انهم في بعض الاحيان يحضر الى ارضهم اناس من جنسي للسياحة في بلادهم فكنت انتظر حضور بعض السائحين اليهم عسى اتخلص منهم بواسطته وبقيت على هذا الانتظار مدة اربع سنين الى ان اتفق حضور السائح الشهير (بوسمان) الى تلك البلاد وكان معه عدة من الحرس لخفارته وحفظه في الطريق فلما مر بهذا البلد اجتمعت به وكلمته بالانكليزي وذكرت له قصتي وما جرى لي من وقت الغرق الى حين لقيته واثنيت له على الشخص الذي اخذني وذكرت له ما صنعه بي وكان ذلك بحضوره وكان مع السائح المذكور ترجمان له من جنس القوم فعرف سيدي بما قلته من مدحي له ففرح بذلك ثم ان السائح المذكور طلب من سيدي اخلاء سبيلي فامتنع واخبره اني عنده بمنزلة ولده وان فراقي يعز عليه فما زال ذلك السائح به يستعطفه ويلح عليه حتى تم الامر على اخلاء سبيلي في نظير جملة من الاقمشة والخرز دفعها السائح المذكور لسيدي ومن ذلك الوقت فارقتهم وصرت في خدمة ذلك السائح الى ان ركبت البحر ورجعت لهوله القديم وعذابه الاليم وكنت عرفت ان الارض التي كنت بها تعرف بارض الذهب

او ساحل الذهب وانها من جملة جهات السانغامبيا وان البلدة التي كنت بها تسمى (تابو) وحولها بلاد كثيرة منها (اوينه) و (اجويرا) و (الكسان) و (انكاسيا) و (اجينا) و (ادوم) و (ومونبا) و (فساه) و (انكى) و ابرامبويه) و (كيفورا) وغير ذلك من البلاد لا يحضرني اسمها الان وهذه البلاد يوجد فيها الذهب بكثرة ولاهلها عادات عجيبة وعقائد غريبة



المسامرة الستون

الذهب واستخراجه

(من حكاية يعقوب)

فقال الشيخ قد ذكرت مواضع الذهب ولم تذكر كيف يستخرج وعلى اي هيئة يوجد في اول امره وبودي لو عرفت ذلك

فقال يعقوب ان الذهب يوجد في هذه البلاد خالصا نقيًا على هيئة حبوب دقيقة منتشرة يكون الكبير منها في حجم الحمصة واما كيفية استخراجه فانه اذا انحسرت مياه الانهر وذلك في وقت فراغ الاهالي من زراعتهم اعني في اوائل شهر ديسمبر ينبه كبير البلد على الاهالي بالاستعداد لجمع الذهب وغسله ويعين لهم يومًا يسميه لهم فتستعد له الرجال والنساء ومعهم الالات المختصة بذلك وهي عبارة عن مساحي ومجارف لنحت الارض وتقليب التراب وبعض

قصع من خشب لغسل الذهب وتنظيفه من الاتربة وريش لاجل وضع ما يوجد من الذهب في انابيبها ويذبح لهم في يوم التوجه ثوراً او بقرة ويجتمع اهل البلد ويقراء مشايخهم ادعية وعزائم سحرية بقصد نجاح غرضهم وعملية الغسل سهلة جداً والقائم بها النساء لانهن قد اعتدن عليها من الصغر كتعودهن على غربلة القمح والارز واما تقليب الاتربة واستخراج التراب المظنون وجود الذهب فيه فذلك موكول الى الرجال وكيفية تصفيته ان تاخذ المراة جانباً من ذلك التراب ونضعه في قصعة من خشب ثم تصب عليه مقداراً من الماء وتحركه به حركة دورية حتى يمتزج ببعضه ثم تقلل في الحركة شيئاً فشيئاً ثم ترجع الى تحريكه ثانياً وتزيد الحركة شيئاً فشيئاً حتى يسيل من حرف القصعة جزء من الماء المختلط بالاتربة الناعمة المختلطة بالمادة الاصلية ثم نتركه حتى يرسب ثم تريق الماء وتطرح الحصى وتبقي ما رسب في اسفل الاناء من الرمل ثم تصب عليه ماء جديداً وتعاود العمل مراراً حتى بصفو الماء ويصير في غاية الصفاء ولم يبقَ في القصعة الاَّ الرمل والذهب ثم تاتي بقصعة اخرى فتنقل اليها جزءً من الرمل وتبقي في الاولى ما رسب في قاعها من الرمل المظنون ان الذهب فيه اكثر وتضع عليه ماء صافياً وتحركه في القصعة وتنظر الى اسفلها مع الدقة والتامل وتاخذ ما وجدته في خلال الرمل من الذهب وكذلك تفعل بما في القصعة الثانية وغاية املهم ان تجد المراة في كل قصعة من الذهب

اربع حبات او ثلاثًا ولم تكن معرفة النساء بهذه الصنعة سواء بل منهن من لها معرفة اكثر من غيرها لكثرة تجربتها حتى انها تعرف الاتربة التي يوجد فيها الذهب وتميزها بلونها وكيفيتها وتستخرج الذهب منها مع ان غيرها ربما مرت عليها ولم تلتفت اليها وكل ما يجدنه من قطع الذهب يضعنه في انابيب الريش ويسدون عليه بقطن او نحوه ويعلقنها بشعورهن ويفتخرن بكثرتها والسعيدة منهن من تجمع في اوان جمعه اوقيتين والمحلات التي يبحث فيها عن الذهب هي مجاري المياه ولكنها اذا استمر عليها الماء مدة طويلة ولم يتحول عنها الى غيرها لا يوجد بها شي من الذهب لان الماء بشدة جريانه وقوة انصبابه يحدث بما فيها من الرمل والتراب تقلبات كثيرة فلا يعثر البحاث فيه بشي من الذهب لذلك السبب

ومن الناس من يتساهل ويعمد الى مجاري المياه ويبحث فيما في اثنائها من الرمل ومنهم من يصعد الى اعلا المجرى ويبحث فيما به من الاحجار والحصى متجشما لما فيه من المشقة فان تيار الماء عادة ياخذ ما في طريقه من الرمل والتراب بسبب قوة انحداره وشدة جريانه ويترك ما يتعاصى عليه من الاحجار وكبار الحصى فيكون البحث فيها شاقًا صعبًا وكثيرًا ما يضر بالاصابع ويجرحها ويدميها بخلاف الرمل والتراب ولكن من يبحث في تلك الاحجار والحصى قد يعثر فيما بينها ببعض قطع كبيرة من الذهب تعوض عليه الالم والتعب ولكن ما كل وقت ينجح الطلب واما المجاري التي تحول

عنها الماء فيحفرون بها ابارا عميقة ويغسلون ما يستخرجون من طبقاتها من الرمل بالطريقة المتقدمة فيجدون فيها كثيرا من الذهب



المسامرة الحادية والستون

بلاد سنغامبيا

فقال الانكليزي ان وجود هذا المعدن بارض افريقيا كثير وقديم واهل تلك الارض من السودان معتادون على تجارته من قديم الزمان فتراهم يجلبونه الى بلاد السواحل ويبيعونه لبعض تجار العرب والافرنج وغيرهم واحسنه ما يوجد بالجهات التي ذكرها

يعقوب في ولاية على شاطىء نهر السنجال يقال لها (بامبوك)
وامتدادها من الشمال الى الجنوب نحو ستة وثلاثين فرسخًا وعرضها
ثمانية وعشرون فرسخًا فيكون مربعها نحو الف فرسخ وهذه الولاية
منقسمة الى ثلاثة اقسام لكل قسم منها ملك او حاكم واعظمها قسم
(بامبوك) لكثرة الذهب به وكون ذهبها احسن واصفى من ذهب
القسمين الاخرين ولذا سمي مجموع الاقسام الثلاثة باسمه مع ان
لكل قسم منها اسمًا خاصًا به وفي تلك الجهة جبل عظيم يشغل
معظم ارضها تسميه اهالي تلك الجهة طبأورا

وفيه منابع مياه كثيرة ويصب في الاقسام المذكورة نهران
عظيمان احدهما يجري في غربي هذه الارض الى ان يصب في نهر
فيلميه والاخر يجري في شرقيها ثم يصب في نهر السينجال وجميع
هذه المجاري يوجد بها ذهب لكن المعادن المشهورة فيها اربعة
وكلها بسفح الجبل المذكور ببلاد عرفت معادنها باسمائها والذي
يتولى حفر ابار الذهب في الغالب العبيد فينزلون فيها الى عمق
ثلاثين او اربعين قدمًا ويخصص لكل بئر اثنان احدهما للحفر
والاخر لتعبئة الزنابيل وامرأتان لنقل التراب ويغير الجميع في كل
ثلاث ساعات ومدة اشتغال الجميع بهذه الاعمال ثمانية اشهر لا
يشتغلون فيها بغيرها ويختلف ما يستخرج من الذهب قلة وكثرة
باختلاف معادنه وقد علم من تجربتهم ان اعظم تلك المعادن
واكثرها ذهبًا يستخرج منه في كل ثمانين اوقة من التراب قدر

مائة واربع واربعين قمحة ونصف قمحة من الذهب النقي ومن عاداتهم في تلك البلاد انهم لا يخرجون اليه ولا يستخرجونه الاّ باذن الحكام واهل البلدة التي بها المعدن الذي يريدون الاخذ منه وبعد استخراجه وتصفيته يعملون منه حليًا لنسائهم كالخواتم والقلائد والحلقان ويستعملون بعضه في نفقات السفر ثم يبيعون باقيه مبادلة ببعض بضائع يجلبها اليهم تجار من الغرب وغيره كالملح والذرة والقماش وغير ذلك ويربح فيه التجار ربحًا عظيمًا يساوي غالبًا ضعف ما يعطونه من البدل ولكل واحد من السودان ميزان يزن به الذهب وعندهم فول اسود يزنون بحبه ما يعادل ست حبات منه يقال له عندهم (منقالي) وقيمة المصنوع وغيره عندهم واحدة وقد تبلغ قيمة ما يستبدل بالملح من الذهب لاهل البلدة الواحدة نحو مائة وثمانين الف جنيه انكليزي وللملح في هذه الجهات من ارض افريقية قيمة عظيمة فقد يبلغ ثمن كل قالب من الملح طوله قدمان ونصف بالقدم الانكليزي وعرضه اربعة عشر اصبعًا في سمك اصبعين نحو جنيهين ونصف وثمنه المعتاد قدر جنيه انكليزي وثلاثة ارباع جنيه الى جنيهين وكل اربعة قوالب منه تعتبر عندهم بحمل حمار والستة حمل الثور واما البضائع الاوروبية فمختلفة الثمن باختلاف كثرة الورود وقلته وقد تقع المبادلة فيها بالرقيق وقيمته ايضًا مختلفة فقد رأيت الراس الواحد منه يساوي بالمنقالي السابق ذكره من تسعة الى اثنى عشر وكانت اثمان البضائع

الاوربية حين كنت هناك ما ساذكره لكم فكانت قيمة كل ثمان واربعين ورقة من الدخان منقا لي واحد وكل ثمانية عشر شطفه من الصدف كذلك وكل عشرين تعميرة بندقية من البارود كذلك وقيمة البندقية ثلاثة من المتقالي فاكثر الى اربعة واما الاشياء الضرورية كاللوازم المعيشية والامور المنزلية فكانت قيمة ما يلزم لمؤنة يوم واحد قطعة من الذهب توازن حبة من الفول وقيمة الدجاجة الواحدة كذلك وقيمة النعجة الواحدة ثلاث حبات وقيمة الثور منقالي واحد وقيمة الفرس الواحد عشرة من المتقالي الى سبعة عشر واعلى الاشياء واعزها عندهم الملح فمن ذكر عنه فيما بينهم ان عنده ملحا وانه يطبخ به كان كمن قيل في حقه عند غيرهم انه غني ومن اعظم تجارتهم واهمها عندهم الحديد للزومه في عمل السلاح والات الحرث والزراعة ولهذا يقدرون به اثمان البضائع فيقولون قدر كذا من صنف كذا يساوي قضيبا او قضيبين من الحديد او نحو ذلك حتى شاع بين التجار اطلاق لفظ قضيب على مقدار معين من بعض البضائع كالدخان مثلاً فان كل عشرين ورقة منه يسمونها قضيبا وربما قالوا قضيب من صنف كذا يساوي قضيبا او قضيبين من صنف كذا وهكذا وكانت قيمة القضيب سنة الف وسبعمائة وخمس وتسعين من الميلاد وهي سنة ١٢١٠ من الهجرة تساوي قطعتين من الشلينات والشلن معاملة انكليزية ومقداره خمسة غروش صاغ الاّ خمسة فضة والجنيه

عشرون منه فاذا كان ثمن العبد مثلاً خمسة عشر جنيها انكليزيا قالوا ان قيمته مائة وخمسون قضيبا وجميع سكان ارض السانغمبيا تنقسم الى اربع عشائر واكثرهم لا دين له وعقائدهم بعقائد الوثنيين اشبه والمسلم فيهم نادر وان وجد فلا معرفة له الاّ ببعض قواعد قليلة لا يعمل بها ولهم ائمة يسوسونهم على قدر عقولهم ومنهم قوم يسكنون ساحل البحر ويتدينون بدين النصرانية ولكنهم قليلون في القدر ومن ينسب الى الاسلام اكثر منهم ومع نلك فلم تزل في الجميع عقائد ابائهم واوهام اسلافهم ولكل فرقة منهم احوال تتميز بها كالغلو مثلاً فان في طبعهم حب الانتقام من عدوهم زيادة عن غيرهم ولا يتركون ثارهم فاذا قتل منهم قتيل اخذ اكبر اولاده او اقرب الناس اليه نعله وحفظه ويلبسه كل سنة في مثل اليوم الذي قتل فيه قتيله الى ان ياخذ بثاره ويندر ان يسلم القاتل عندهم من القتل

ورايت في البلدة التي كنت بها جارية يعظمونها ويحترمونها اكثر من غيرها فسألت عن سبب ذلك فقيل لي انها كان لها زوج فقتله شخص من بلد بقرب بلدهم فاضمرت في نفسها ان تاخذ بثاره فصارت تزين نفسها باحسن ما يكون عندهم وتتعطر وتمر بقاتل زوجها وتستميله اليها ولم تزل كذلك حتى احبها وشغف بها فاقامت عنده مدة حتى تمكنت من غرضها فقطعت راسه واتت به الى بلدها فشهدوا لها بالدهاء ولطف الحيلة واحترموها لذلك ومن

عاداتهم انه متى وقع بين اثنين منهم عداوة واستمرت وبقيت فلا تزول ولا تحول فاذا ابتدأت العداوة بين اثنين منهم اخذا ورقة من شجرة معروفة عندهم فيجذب كل منهما بطرف منها فتتمزق الورقة بينهما ومن ذلك الوقت يستعد كل منهما لتدبير كل مكيدة لصاحبه ويبذل الجهد في اساءته والعبيد والاحرار عندهم في هذه العادة سواء

ودخلت بلاد قوم منهم يقال لهم المندنج فرايت حول كل بلد وقرية لهم زريبة من القصب (البوص) تحيط بها والاحرار منهم نحو الربع وهم السادة والباقي ارقاء لا مخلص لهم من الرق وعليهم خدمة الارض وغيرها وهناك ولاية تسمى كجاعجا نهايتها من جهة الشمال من نهر السينيجال هواؤها معتدل واهلها معروفون بالصدق والامانة في المعاملة ودأبهم التجارة مع الاوروباويين فيبيعون لهم الذهب والرقيق ولهم على جمع المال حرص زائد واكثر ربحهم من بيع الملح وثياب القطن ومن عاداتهم انهم اذا سافر منهم احد في تجارة ثم رجع لا بد ان يستصحب معه بعض هدايا لبعض احبابه فاذا اتى الى بلده اخبر بربحه وتجارته فاذا تبين انه لم يربح في تجارته ولم ينجح في سفرته عيروه وأساؤه وهدموا بيته وصار فيما بينهم حقيرًا ذليلاً مهانًا فلا يتخلص من لسانهم وإيذائهم الاَّ بالفرار من بينهم وعلى شمال هذه الجهة ولاية تعرف بولاية (يوندول) وهي شرقي ولاية (بامبوك) بين جابينا والسينيجال تمر منها القوافل

الواردة من داخل الافريقه بالرقيق متوجهة الى السواحل وكذلك القوافل التي تتجر في الملح وهذان الصنفان من التجارة يتداولهما اهل المندنج وكذلك القطن والحديد ولهم ايضاً متاجر يذهبون بها الى بلاد المغرب ومن عروض التجارة عندهم صنف عطري يشبه الصمغ يضعونه في اكياس يجعلون في كل منها قدر الاوقة منه ومن خاصة هذا النوع انه اذا وضع جزء منه على النار فاحت له رائحة طيبة ويبخر به اهل المندنج ملابسهم ومساكنهم ولهم رسوم ياخذونها من كل من يمر بهذه الولاية من التجار بالبضائع الاوروبية فياخذون على كل حمل حمار قضيب بضاعة فان مر بالمدينة التي بها الملك لزمه اعطاء ثوب من قماش او بندقية وست زجاجات مملوءة من البارود ومن اهل تلك الجهات (الغولاه) ولونهم يقرب من لون الحبش وهم اكثر ولايات هذه الجهة عدداً بعد طائفة المندنج ويزعمون انهم اصل لما عداهم ويعدون نفسهم من البيض والكل ينتمون لدين الاسلام ما عدا الملك والامراء وعندهم مكاتب لتعليم الاطفال من اي امة كانوا ويتعلمون في هذه المكاتب القرآن الشريف والقواعد الدينية الاسلامية ويتكلمون باللغة العربية منذ دخل الاسلام بلادهم وكانت لهم قبل ذلك لغة غير العربية وفي طبعهم حب البهائم وخدمتها فيحلبونها صباحاً ومساءً ويشربون من لبنها حليباً وحامضاً ويستخرجون منه زبداً يستعملونه في دهن اجسامهم وشعورهم ووجوههم الاّ ان البان اوروبا اكثر زبداً من

لبن بقرهم ومع اعتنائهم بالبقر وحبهم للبنها وكثرته عندهم لا معرفة لهم بكيفية استخراج جبنه اصلا ويقولون ان المانع من عمله عزة الملح وشدة الحر وكثرة ما يصرف في عمله وقلة ربحه وعندهم خيل من الجياد وهي من نتيجة اختلاط الخيل العربية بالافريقية واهل هذه البلاد يعتقدون ان القمر يتغير في كل شهر وان لكل شهر قمرًا جديدًا فاذا راوا الهلال اجتمعوا ودعوا بدعوات سرية يقصدون بها الشكر لله على ما اولاهم من النعم في مدة القمر الماضي ورجاء دوام ذلك في مدة القمر الجديد وعندهم ان الارض ذات امتداد غير محدود فلا يصل احد الى نهايتها لاحاطة السحاب والضباب بها وفي ظنهم ان احسن البلاد بلادهم وانهم احسن انواع الانسان فيتاسفون على من عداهم من الخلق حيث لم يكونوا في ارض خصبة كارضهم وقطر معتدل الهواء كقطرهم ويعترفون بوجود الخالق سبحانه ويقولون بوجود الجنة والنار لجزاء المحسنين بالجنة والمسيئين بالنار ولهم معرفة بخدمة الارض ومزيد رغبة في الزرع ولكنهم انما يزرعون من الارض بقدر ما يكفي لمونتهم جميع سنتهم لانهم لا يتاتى لهم اخراج ما زاد عن لوازمهم الى الخارج ويشتغلون بالزرع وخدمة الارض في فصل نزول الامطار واما فصل الصيف فيشتغلون فيه بالصيد والقنص فتاخذ سكان السواحل اقفاصًا او شباكًا يصطادون بها من البحر وما يصطادونه من السمك يجففونه في الشمس ويدّخرونه لوقت لزومه مدهونًا بشيء من الزبد وغيرهم

يشتغلون بالقنص واصطيـــاد بعض الحيوانات البرية والآلات المستعملة عندهم في ذلك هي القوس والنشاب ولهم في الرمي حذق عجيب بحيث يرمي به الواحد منهم الوزغة على الشجرة او الحائط فلا يخطئها ولجميعهم معرفة بصنعة الحياكة والصيـاغة والخياطة ويتعلمون هذه الصنائع من صغرهم وترى الحداد منهم يعرف صوغ الذهب والفضة ولهم في الذهب صناعة بارعة يعجز عن بعضها كثير من مهرة الاوروبيين

فقال الشيخ كذلك يوجد في بلاد النوبة التابعة لحكومة مصر مَن لهم مزيد براعة وحذق في صياغة الذهب والفضة وقد تذكرت بما ذكرت من قصة المرأة التي اخذت بثار زوجها ما فعلته الزباء مع جذيمة الابرش واخذها منه بثار ابيها

فقال الانكليزي اما الزباء فغاية علمي بها انها كانت من ملوك العرب القديمة ولكن لا ادري نسبها ولا الارض التي كانت بها ولا ما فعلته مع جذيمة



المسامرة الثانية والستون

الزباء وجذيمة الابرش

وقصير وبيهس

فقال الشيخ اما نسبها فهي على ما ذكره ابو الفرج الاصبهاني بنت عمرو بن الظرب بن حسان بن أذينة بن السميدع بن هوبر العاملي من عاملة العماليق وكان ابوها ملكاً على الجزيرة جزيرة ابن عمر وهي في شمال الموصل يحيط بها نهر دجلة فقتله جذيمة الابرش ملك الحيرة والانبار وطرد الزباء ابنته الى الشام فلحقت بالروم وكانت عربية اللسان كبيرة الهمة ما عرف في زمانها اجمل منها وانما سميت الزباء لانها كان لها شعر اذا مشت سحبته وراءها واذا نشرته جللها والزبب كثرة الشعر الوصف منه ازبب للرجل وزباء

للانثى ومنه سميت الزباء لكثرة شعرها فلما اجلاها جذيمة من ملك ابيها وطردها بذلت الاموال وجمعت الرجال فلما استجمع امرها عادت الى الجزيرة فاستردتها الى ملكها واستولت عليها وهي معدودة في ملوك الطوائف ثم انها قصدت الى الاخذ بثار ابيها والانتقام من جذيمة فلم تجد عندها من القدرة ما يمكنها من ذلك بالقوة والحرب فعولت على التدبير والمكيدة فهادنت جذيمة وكتبت اليه تقول . اني لم اجد ملك النساء الاّ قبيحًا في السماع وضعفًا في السلطان ولا ارى لملكي موضعًا ولا لنفسي كفوًا غيرك فاقبل اليّ لاتزوج بك واجمع ملكي على ملكك واصل بلادي ببلادك . تريد بذلك غدره فلما اتى كتابها اليه طمعت نفسه فيما عرضته عليه فجمع اصحابه واستشارهم فاشاروا عليه بتلبية دعوتها واجابة خطبتها الاّ رجلاً فيهم يقال له قصير ابن سعد فخالفهم فيما اشاروا به عليه وقال (رأي فاتر وغدر حاضر) والرأي ان تكتب اليها فان كانت صادقة في قولها فلتقبل اليك والا فلا تمكنها من نفسك فتقع في حبالها وقد وترتها وقتلت اباها فلم يوافقه جذيمة فيما اشار به عليه وسار اليها في وجوه اصحابه فاخذ على شاطئ الفرات من الجانب الغربي وقبل وصوله اليها استقبلته رسلها بالهدايا والالطاف فلما رأى جذيمة ذلك قال لقصير كيف ترى فقال (خطب يسير في خطب كبير) وستلقاك الجيوش فان ساروا امامك فالمرأة

صادقة وإن اخذوا جنبتيك واحاطوا بك من خلفك فالقوم غادرون بك فسار جذيمة وقد احاطت به الخيل حتى دخلوا به على الزباء فلما صار عندها دعت بالسيف والنطع وامرت بطست من ذهب كانت قد أعدته له وقالت ان دماء الملوك دواء من الكَلَب ثم امرت براهشيه فقطعتا والرواهش عروق اليدين فلما ضعفت يداه سقطتا فقطر من دمه قطرة خارج الطست فقالت لا تضيعوا دم الملك فقال جذيمة (دعوا دمًا ضيعه اهله) واستنزفه الدم حتى مات هذا ما كان من امر الزباء وتحيلها في اخذ ثار ابيها واما قصير فانه لما احاطت الخيل بجذيمة وعلم الغدر به نجا بنفسه ورجع الى بلاده فتحيل على قتلها فجدع انفه ورحل اليها فلما راته قالت ما الذي ارى بك يا قصير ومن جدع انفك فقال لها زعم قوم جذيمة اني قد غررته وزينت له المصير اليك وغششته وما لأتك عليه ففعلوا بي ما ترين فلما رايت ذلك منهم اقبلت اليكِ وعرفت اني لا اكون مع احد اثقل عليه منكِ فصدقته واكرمته واصابت عنده من الحزم ما ارادت فلما عرف انها اطمأنت اليه ووثقت به قال لها ان لي بالعراق اموالاً كثيرة وطرائف وثيابًا وعطرًا فابعثيني الى العراق لاحمل ما لي واحمل اليكِ من بزوزها وطرائفها وثيابها وطيبها وتصيبين في ذلك ارباحًا عظيمة وشيئًا مما لا غنى للملوك عنه فلم يزل يزين لها ذلك حتى اذنت له

ودفعت له اموالاً فسار قصير بما دفعته اليه حتى قدم العراق واتى الى الحيرة وهي بلاد جذيمة متنكرًا ودخل على قوم جذيمة وقال لهم جهزوني بصنوف البز والامتعة لعل الله يمكننا من الزباء فنصيب ثارنا فاعطوه حاجته فرجع بذلك الى الزباء فاعجبها ما رات وسرها وازدادت به ثقة وجهزته ثانية وثالثة فرجع الى بلاده وجمع ثقات رجاله وشجعانهم وهيأ لهم الغرائر والسلاح وحمل كل رجلين على بعير في غرارتين وسار يكمن النهار ويسير الليل فلما صار قريبًا من مدينة الزباء تقدم فبشرها واعلمها بما جاء به من المتاع والطرائف وسالها ان تخرج فتنظر الى ما جاء به فخرجت فابصرت الابل تكاد قوائمها تسوخ في الارض من ثقل احمالها فقالت يا قصير

ما للجمال مشيها وئيدا
اجندلاً يحملن ام حديدا

فلما توسطت الابل المدينة اناخوها وخرجت الرجال من الغرائر وصاحوا باهل المدينة ووضعوا فيهم السلاح ولم تتمكن الزباء من الهرب فمصت خاتمًا بيدها وكان فيه السم وقالت بيدي لا بيد قصير فماتت وذلك بعد مبعث المسيح عليه السلام والى هذه القصة يشير المتلمس في قوله من قصيدة له

الم تر ان المرء رهن منية
صريع لعافي الطير او هو يرمسُ

فلا تقبلن ضيما مخــافة ميتة
ومونن بها حرًا وجلدك املسُ
فمن طلب الاوتار ما خرّ انفه
قصير وخاض الموت بالسيف بيهسُ
نعامة لما صرع القوم رهطــه
تبين في اثوابه كيف يلبسُ

فقال الانكليزي اما قوله فمن طلب الاوتار ما خر انفه قصير فقد فهم مما ذكر من حكاية الزباء واما قوله وخاض الموت بالسيف بيهس الى اخره فالمرجو بيان المراد منه

قال الشيخ نعامة لقب بيهس المذكور وهو بيهس بن خلف بن هلال ابن غراب بن ظالم بن فزارة الفزاري وكان سابع سبعة اخوة فاغار عليهم وهم في ابلهم ناس من اشجع كان بينهم وبينهم حرب فقتلوا منهم ستة وبقي بيهس وهو اصغرهم وكان يوصف بالحمق والبله فارادوا قتله ثم قالوا وما تريدون من قتل هذا يحسب عليكم برجل ولا خير فيه فقال دعوني اتوصل معكم فلما كان من الغد نزلوا فنحروا جزورًا في يوم شديد الحر فقالوا أظللوا لحمكم لا يفسد فقال بيهس (لكن بالاثلاث لحمًا لا يظلل) يريد اخوته فذهبت مثلاً فلما قال ذلك قالوا انه لمنكر وهموا ان يقتلوه ثم تركوه وظلوا يشتوون من لحم الجزور وياكلون فقال احدهم ما اطيب يومنا فقال بيهس (لكن على بلدح قوم عجفى) فارسلها مثلا

ثم انشعب طريقهم فاتى امه فاخبرها الخبر فقالت فما جاء بك من بين اخوتك وكانت لا تحبه مثلهم لما يوصف به من الحمق فقال (لو خيرت لاخترت) فذهبت مثلا يعني لو كان الاختيار لك لاخترت ان اموت ويبقى منهم واحد غيري لكن الامر ليس باختيارك ثم ان امه عطفت عليه ورقت فقال الناس احبته امه فقال (ثكل أرامها ولدًا) اي عطفها على ولد فارسلها مثلا ثم ان امه جعلت تعطيه ثياب اخوته فيلبسها فقال (يا حبذا التراث لولا الذلة) فسارت مثلا ثم اتى على ذلك ما شاء الله تعالى ثم انه راى نسوة من قوم يصلحن امراة منهن يردن ان يهدينها الى بعض قتلة اخيه فجعل بيهس يلبس السراويل مكان القميص والقميص مكان السراويل وقيل كان يغطي راسه ويكشف استه فقلن ما تصنع يا بيهس فقال

البس لكل حالة لبوسها

اما نعيمها واما بوسها

فارسلها مثلاً ثم انه امر النساء من كنانة وغيرها فصنعن له طعامًا فجعل ياكل ويقول (حبذا كثرة الايدي في غير طعام) فارسلها مثلا فقالت امه لا يطلب هذا بثار ابدًا فقال (لا تامن الاحمق وفي يده سكين) فذهبت مثلاً ثم انه اخبران اناسًا من اشجع في غار يشربون نبيذًا فانطلق لخال له يقال له ابو حنش

فقال هل لك في غار فيه ظباء لعلنا نصيب منها ويروى . هل لك في غنيمة باردة) فسارت مثلا فانطلق بيهس بخاله حتى اقامه على فم الغار ثم دفع ابا حنش في الغار فقال ضربًا ابا حنش فقال بعضهم ان ابا حنش لبطل فقال ابو حنش (مكره اخاك لا بطل) فارسلها مثلا فقتلهم جميعًا فضرب به المثل في ادراك الثار فهذا حديث بيهس وبه يفهم قول المتلمس في الابيات المتقدمة

نعامة لما صرّع القوم رهطه
تبين في اثوابه كيف يلبسُ



المسامرة الثالثة والستون

الرقيق

قال الانكليزي اذا نظر الانسان في احوال افريقة وما يفعله اهلها في ضرب الرق على بعضهم من غير نظر الى من يستحق الاسترقاق ومن لا يستحق وما يقاسيه فيها الارقاء من الذل والاهانة وما يكلفونه من الاعمال ادركه الاسف والرقة على هولاء المساكين المستضعفين ومن قرا كتب السائحين الذين طافوا بتلك الارض علم ان تجارة الرقيق عامة في جميع جهات افريقة وفي كل سنة ينقل من اهلها الى جهات الامريكا وجزائر البحر المحيط وبلاد العرب والترك والعجم عدد كثير وقد اخذت هذه التجارة في الازدياد والسعة منذ استقل بها الاوروبيون وقد بلغ عدد الرقيق المنقول بمراكب الانكليز من سواحل ارض الذهب سنة ١٨٢٢ للميلاد

وهي سنة ١٢٢٨ للهجرة ستين الف راس وبمراكب الفلمنك عشرين الفًا وبمراكب الدنيمرقة والسويد والبرتغال نحو ثمانية عشر الفًا فكان المجموع نحو ثماني وتسعين الف راس ما بين ذكر وانثى وهو امر جار من قديم الزمان الى الان وقد تعرض بعض الدول الغربية لمنعه وتشددوا في ذلك واقاموا الحرس والمفتشين لابطال تجارته ومنعه ومع ذلك فلم يمكن منعه بالكلية ولم تزل تجارته جارية متداولة وان لم يكن اجراؤها في بعض المواضع او بعض الاحيان جهرًا جرت خفية وسرًا ولم ينقطع وروده من جهاته فان اهل تلك الجهات لفقرهم وتجردهم من المعارف وتوحشهم في الصحاري المقفرة والفيافي الموحشة واعتيادهم على استرقاق بعضهم واختطاف من عثروا به من جنسهم قد صار عندهم هذا الامر كالجبلة والطبيعة الثابتة ولهذا لم يترتب على منعه الاّ علو اثمانه والتدقيق في بيعه فلا يزول ذلك من طبعهم ولا يتحولون عنه الاّ اذا انتشرت فيهم العلوم الدينية والاداب التمدنية وتالفت قلوبهم وزالت الضغائن من بينهم وانّى ذلك وقد اتخذوه كالميراث عن ابائهم فقد مضى على سكان هذه الارض القرون العديدة والازمنة المديدة وهم على ذلك جيلاً بعد جيل وامة بعد امة نعم قد يقال ان فعلهم هذا اخف من غيره اذ لا يخفى ان توحشهم وجهلهم وجفاء طباعهم وكون ملوكهم وامرائهم وذوي الكلمة فيهم نشاوا مثلهم في حال الجهل والتوحش بمعزل عن الانسانية وحسن الاداب كل

ذلك موجب لقيام الحرب بينهم فاذا انتصر بعضهم على بعض فلا يخلو الحال من وقوع بعض المغلوبين اسرى في ايدي الغالبين فاذا لم يتصرفوا فيهم بالبيع وينتفعوا باثمانهم قتلوهم والبيع اخف من القتل اذ الرقيق اذا انتقل من بلاده خرج عن الحالة الاولية والطريقة التوحشية وربما اكتسب بحسن التربية علما وعقلاً وصار بين الذين انتقل اليهم كانه واحد منهم فلو كان حال الرقيق عند جميع الناس على الصفة التي يقتضيها دين الاسلام من معاملته بالرفق والشفقة واللطف والرفة لم يكن في الرق ضرر خصوصاً ان الرقيق ربما يناله العتق ويلتحق بسائر الاحرار فليس الكلام في هذا وانما الذي يجب التنبه له وشدة الاجتهاد في منعه هو ما يجلب على ايدي الاورباويين الى جزائر البحر المحيط والامريكا فان اهل تلك الجهات لا يفرقون بين الرقيق والدابة في سوء المعاملة فالرقيق والحيوان عندهم بمنزلة واحدة سواء بسواء فكم فرق بين معاملته في هذه الجهات ومعاملته عند اهل الجهات الاسلامية الذين يكون عندهم الرقيق بمنزلة الولد ويتخذون عتقه والاحسان اليه قربة عند الله

ومما يزيدنا اسفاً ان هذه الجهات يتعسر تمدنها جداً كما يعلم من كتب السائحين اذ لم يترتب على توطن بعض الاوروبيين في سواحل افريقة الغربية الى الان نتيجة حسنة لاسيما وهم هناك عرضة لامراض شتى بسبب التغيرات الجوية وكثرة الابخرة المتصاعدة من

الارض خصوصاً في فصل الامطار فلا يمكن ان تطول اقامتهم بها وقد اجرت الحكومة الانكليزية عدة تجاريب علم منها ان من يموت من العسكر الاغراب في كل سنة قريب من النصف وهذا في السواحل التي امكن فيها الحصول على اللازم فما بالك بغيرها من الجهات المتباعدة التي لم يتيسر كشفها الى الان

فقال الشيخ ان تفاوت الناس في العقل وجودة النظر في صلاح الامة والقدرة على ضبط القوى الحيوانية الموجبة للبغي والعدوان اوجب استيلاء بعض الناس على بعض وسريان القهر فيما بينهم حتى نشا من ذلك التميز باسم الحاكم والمحكوم والمالك والمملوك وغاية الامر ان القهر اذا داخله العدل كان قهراً لذيذاً وضعف الشعور به ولم تكن الانفس شديدة الاباء منه لخفاء الذل فيه ولم يكن لشريعة من الشرائع ان تبطل ذلك الامر وتبعث على اهماله لما في تركه من الفساد العظيم وكان الاسترقاق فرعاً من فروع ذلك الاصل فمن شريعة ابرهيم عليه السلام ضرب الرق على السارق ولم يزل هذا الامر فيما بين الناس حتى جاء الاسلام فكان الطريق الى الاسترقاق واحداً وذلك ان الاسلام شريعة تامة والدعوة اليه عامة لانه يدور امره على عموم الامن والسلامة في جميع الارض فان امتثل الناس بسبب معرفة الصواب والخير الذي يدعو اليه الاسلام فذلك ما اريد والا اهينوا وقهروا حتى يحصل مقصود الاسلام فكان استعمال السيف لحسم الفتن وتسهيل

اختلاط الناس بعضهم ببعض واشتراكهم في تحصيل المنافع وانطلاق افكارهم في ذلك فسبب الاسترقاق حرب المعاندين الذين همهم الافساد ودأبهم العناد وليس مخصوصاً بامة دون امة بل متى استحقت امة من الامم المحاربة والضرب حتى ترجع الى حد الاعتدال كان كل من اسر منهم في الرق وكانت ذريتهم ايضاً ارقاء تحت ايدي المسلمين وربما كان ذلك سبباً لتاديب قوم اخرين فان سبي الذرية والنســاء اشد على الانفس من القتل فالاسترقاق طرف من الاهانة المقصود بها تادب الناس ومشيهم تحت قوانين جامعة واما ما تفعله الامم السودانية فتلك عادة جاهلية بهيمية الاعتماد فيها على القوة والتسلط كما هو شان بعض الحيوانات والغرض لهم من ذلك حظ الانفس واستفراغ الوسع في الشهوات والاستئثار باسم السيادة ومثل ذلك يجب على الناس منعه والاهتمام بالكف عنه وبالاطلاع على معاملة النبي صلى الله عليه وسلم للارقاء وما امر به في حقهم وشدد فيه يعلم ان الاسترقاق على ذلك الوجه من الامور المستحسنة في العقول فقد قال عليه الصلوة والسلام ابعاداً وتحاشياً عن ادخال الانكسار على انفس الارقاء (لا يقولن احدكم عبدي وأمتي ولا يقول المملوك ربي وربتي وليقل المالك فتاي وفتاتي وليقل المملوك سيدي وسيدتي فانكم المملوكون والرب الله عز وجل) وقد استوجب استحكام الطيش والغباوة في طباع السودان فشو الرق فيهم وظهور الاستيلاء عليهم حيث ابعدوا باعمالهم بينهم

عن التمييزات الانسانية ألا ترى ان من تعقل منهم وظهرت عليه اثار النجابة كيف بلغ به نصيبه من ذلك الدرجة التي يستحقها · هذا الشاعر المشهور بعبد بني الحسحاس رفعه علمه وشعره حتى قيل فيه

اشعار عبد بني الحسحاس قمن له

يوم الفخار مقام الاصل والنسبِ

وهذا نصيب احد شعراء بني امية قد بلغ بعلمه وشعره درجة عظيمة يحكى انه دخل مصر في رحلة من رحله وهو على هيئة جميلة وشارة علية في ملابسه وركابه واتباعه فاطاف به السودان فرحين مسرورين برؤيته فقال اسررتكم قالوا نعم فقال ما يسوءكم من اهل جلدتكم اكثر وهذا الاستاذ كافور الاخشيدي تولىّ نيابة ملك مصر وكان في التدبير والرزانة وعمل الخير غاية · يحكى انه طرب يومًا من السماع فحرك كتفه واستشعر النقص في ذلك فاتخذ تحريك كتفه عادة يعاودها الوقت بعد الوقت من ذلك الحين الى ان مات يوهم من يراه ان ذلك لعلة اصابته وكان في ليلة العيد يخرج بعد المغرب ويجلس على سلم الركوب ويبعث الناس بالعطايا الى منازل عرف احتياج اهلها بالبحث والتفتيش السري ويستقبل الاوراق التي يكتب فيها الوصول ويبقى كذلك حتى يركب الى صلاة العيد وبمجموع ذلك يبين ان خروج الشيء عن الحسن سببه مجاوزة الحد الذي له

فقال يعقوب هذا هو الانصاف والحق وقد قدّر السائحون في ارض افريقة مقدار من يوجد بها من الارقآ على وجه التقريب فوجد ان الاحرار على قدر الثلث من الارقآ وليست معاملة جميع الارقا على حد واحد فان معاملة السيد للعبد المولود عنده الطف وارفق من معاملته للعبد المشترى بالثمن واذا اراد السيد بيعه لزمه المرافعة معه على يد قاضي الجهة ليثبت جنايته ثم يبيعه ويباح للسيد في زمن القحط بيع عبد وجملة من عبيده لمشترى لوازم مؤنته وان كان مديونًا ولم يكن في امكانه دفع الدين تؤخذ عبيده في دينه وللاحرار على العبيد في الحرب مزية وهي ان الاحرار تكون اكثر سلاحًا واحسن خيلاً فيتأتى لهم بذلك اغتنام الفرصة في حالتي النجاح والهزيمة بخلاف العبيد فانهم في الغالب مكلفون بحمل الذخيرة ولم يكن لهم سلاح غير الحربة والنشاب ولهذا تجدهم يقعون في قبضة الغالب مع السهولة بحيث لو نسبنا من يضبط من الاحرار في الحرب الى من يضبط من العبيد لكان كنسبة واحد الى خمسة عشر واذا ضبط احد الاحرار افتدته اصحابه او عائلته بخلاف العبد فلا مخلص له وتجار الرقيق تفضل من تربى في الرق على غيره وترجحه عليه في الثمن بخلاف من كان حرًا وطرأ عليه الرق في عهد قريب لان الاول اعتاد المشقة والتعب والصبر على الجوع والعطش بخلاف الثاني فانه كان في رفاهية بالنسبة للاول فلا قدرة له على السفر الطويل في الجبال والاودية ولتجار الرقيق من

الاوروبيين وغيرهم من القسوة والجفاء ما يضرب به المثل فتراهم اذا مرض رقيق لهم مرضًا اوجب عدم بيعه او تقدم في السن لا ينتظرونه حتى يقضي الله عليه بل يقتلونه فان وقعت في يدهم جارية ذات اولاد رموا باولادها الى الوحوش تتخلى الام من الرضاع ويبيعوها واسباب الاسترقاق عندهم في العادة هي الحرب والقحط وسداد الدين والجنايات ومن عاداتهم ان الرجل الحر ان اسر في الحرب صار رقيقًا وهناك نوعان من الحرب عند الافريقيين الاول يكون بعد الاعلان من الطرفين قبل الخروج وربما كان من غير سبب موجب له ومن اول وقعة ينتهي بينهم النزاع والغالب منهما يضبط ما قدر عليه من المغلوبين ويبيعه فان كان في الاسرى ضعيف او مريض او ذو عيب قتلوه في الحال حتى لا يتحملوا موءنته وكذلك يفعلون بالروساء ومن كان سببًا في هيجان الفتنة ومن يخشى باسهم وفي مثل هذه الوقعات لا يكون عدد القتلي كثيرًا لانه متى علم احد الفريقين انه مغلوب انقاد لقرينه او فر منه ولهذا ترى البلد التي تخرب بمثل هذه الوقعة وان انهدمت بيوتها عن قريب تعمر وتعود الى احسن مما كانت عليه من اول الامر وايضًا فان غاية امنية الغالب الاستحواذ على جملة من الاسرى لاجل بيعها واخذ ثمنها فلا حاجة له في طول زمن الحرب وكثرة القتلى النوع الثاني يكون خفية لاسباب واهية تقع بين القبائل كشقاق ومنازعة في شي من الاشياء ربما كان واهيًا فتجتمع القبيلة العادية

بخيلها ورجلها بعد جمع حاصلات الزراعة وتسير خفية الى ان تحل بساحة القبيلة التي تريد غزوها فتحمل عليها ليلاً علي حين غفلة حملة واحدة فاذا انهزمت اخذت القبيلة الغالبة ما قدرت عليه سواء كان رجالا او نساء كبارا او اطفالا لا يميزون بين شريف ووضيع وكبير ورضيع ومن حينئذٍ يصير الغالب سيدا والمغلوب عبدا ولم يكن لهم في ذلك قانون يتبع الاّ مجرد الشهوة والطمع ومن وقع في يده واحد منهم فهو مخير فيه بين ان يبقيه لخدمته وبين ان يبيعه فمن ظهر عليه علامات الامتثال والانقياد ابقاه ومن توسم فيه علامات النفور والضجر من الخدمة باعه في بلاد بعيدة ومن هنا يعلم ان اقوى الاسباب لاتساع دائرة الاسترقاق انما هو الحرب وان كان له اسباب اخرى كالقحط والجوع وحلول المصائب والجنايات وحب التسلط على بلاد الغير والاستيلاء عليها

وغالب اسلحتهم على الهيئة القديمة كالقوس والنشاب والنبال والحراب واما الاسلحة النارية فلا توجد فيهم الاّ عند سكان السواحل المختلطين بتجار الاوروبيين وعندهم شي كالبلطة يخرجون به عند ارادة الحرب يعتقدون انه حرز لهم فيحترمونه ولا يحلفون به كذبًا وعادتهم عند الحرب ان يتستروا بجلود بعض حيوانات كالنمور والسباع ونحوها او بجلود زرقاء او بيضاء

وذخيرتهم اذا ارادوا السفر للحرب او غيره قليل من الدقيق ياخذونه معهم وتارة لا ياخذون شيئًا ويعتمدون على ما يجدونه

في طريقهم من الاعشاب والبقول وما يصطادونه من الحيوانات البرية والبحرية وما ينهبونه من البلاد التي يمرون بها ولا يستصحبون في سفرهم خيامًا بل لا وجود لها عندهم فاذا اضطرتهم كثرة الامطار الى الاستتار صنعوا لهم زرابي من اغصان الاشجار وقد يكون لبعض امرائهم شمسيات تسع الواحدة نحو عشرين نفسًا وقد يقع في بعض جهات السواحل مناوشات بحرية لاجل استيلاء بعضهم على ما في مراكب البعض او لامور اخرى ولمهارتهم وتمرنهم على السباحة في البحر تكون محاربتهم فيه من العجب ما يرى ومن عاداتهم ان الفرقة الغالبة تعامل المغلوبين بانواع من التعذيب لا تقتصر فيها على فعلها بالاحياء بل تفعله ايضًا برم القتلى كأن ياخذ القاتل فك المقتول معتقدًا ان في ذلك طول عذابه او يقطعه قطعًا يرمي بها الى الوحوش وربما يضربون الطبول على رمة المقتول يزعمون ان في ذلك ازعاجه وسلب راحته ومن عاداتهم عند الخروج الى الحرب ان ياخذ كل واحد منهم قطعة ذهب او صورة وجه انسان او وجه حيوان او زبل حيوان يشابه الخنزير يرون ان استصحاب ذلك معهم ناصر لهم على اعدائهم وليس لهم في الحرب قانون منتظم بل حربهم مع بعضهم هجوم وحملات وقتية تنقضي في زمن يسير واذا اطلقوا بنادقهم اختفى كل منهم خلف اي شي يصادفه حتى يعمر بندقيته ويعود ثانيًا والهجوم دفعة واحدة نادر بينهم جدًّا ومن عاداتهم وقت الحرب ان لا ينظروا لقتيلهم حين

يقع على الارض ميتاً ويقولون ان مع كل قتيل ملكاً فيخافون لو نظروا له ان يجذبهم فيموتوا مثله ولهذا متى اطلق احد منهم بندقيته انكب على الارض او ادبر او اختفى بمعنى انهم لا يستقرون على حالتهم التي كانوا عليها وقت الضرب

فقال الشيخ كثيرا ما كنت اسمع وانا بمصر ممن ياتي بالرقيق وممن سبق لهم الاقامة بذلك القطر انه يوجد بتلك النواحي كثير من الناس يشتغلون بالسحر وما ذكرته من استصحابهم لتلك الصور في حربهم يدل على اشتغالهم بهذا الامر



المسامرة الرابعة والستون

السودان بافريقا

فقال يعقوب جميع طائفة السودان بتلك الاقطار في جهل عظيم لا علم لهم بشيء ولا وقوف لهم على حقيقة وانما عندهم بعض عادات وعقائد فاسدة اخذوها عمن سبقهم خلفًا عن سلف ولهم شغف بكل ما يجدونه من عادات بلادهم كل على حسب بقعته التى ولد بها طبيعة نشأوا عليها فهم متمسكون بها لا يتحولون عنها ومن هذا القبيل ما يدعونه من السحر فهو عبارة عن اوهام كاذبة يدعيها اشخاص معروفون بها عندهم يدخلونها على عقول العامة وغيرهم بما يموهون به من اقوال واهية وحكايات مخترعة تسير بين الناس بما ينضم اليها من المبالغات والتهويلات فتزيد بذلك شهرتهم وثروتهم واهل جهات آكارا يقولون بوجود الخالق سبحانه

وتعالى ويعتقدون ان جميع افعاله انما تكون بواسطة الملائكة ويقولون ان الله سبحانه وتعالى وملائكته يظهرون لهم في الرعد والبرق والصواعق لتخويفهم ويقولون بان الشيطان من الملائكة وانه اقواهم ويتضرعون للقمر ببعض ادعية يتوجهون بها اليه وان كانوا لا يقولون بعبادة الكواكب وفي الليلة الرابعة عشرة من كل شهر يكثرون الشرب والرقص وضرب الطبول

ويعترفون بالاخرة ولكن لا يعرفون الجنة ولا النار وانما يزعمون ان جميع مستلذات الانسان في الدنيا تكون له في الاخرة فاهل الشجاعة والثروة واليسار في الدنيا هم عندهم اهل النعيم في الاخرة اما العبيد فلا سعادة لهم الاّ اذا التحقوا بسادتهم للتنعم في نعيمهم ولهذا الاعتقاد يدفنون مع اغنيائهم نفائس اموالهم من ذهب وقماش ونحو ذلك ويعتقدون ان الميت يهدي بعض ما يدفن معه الى عجوز موكلة بنهر لا بد لكل احد ان يعبره بعد الموت ومن عاداتهم انهم لا يدفنون ميتهم الاّ بعد اربعة عشر ساعة من موته يساله فيها اقاربه واحبابه واحدا بعد واحد عن سبب موته وفراقه لاهله ونحو ذلك فاذا ادلوه في حفرته اجتمع احبابه واقاربه والقوا عليه التراب لاعتقادهم انهم ان لم يفعلوا به ذلك رجع الميت الى اهله وآذاهم ومن عاداتهم ايضًا انهم يدفنون في بيوتهم من يعز عليهم فراقه ويضعون بجانبه وعلى قبره بعض ماكولات ومن قبيح معتقداتهم انهم لا يجب عليهم العدل والانصاف الاّ لابناء جنسهم

دون غيرهم فيستبيحون اسر الاغراب وقتلهم وبيعهم واخذ مالهم ويقولون ان كل ما يلقيه البحر بالساحل حق لهم لا يشاركهم فيه غيرهم وانه مرسل منه اليهم فلذلك تراهم يخصونه بنوع عبادة واهل هذه الجهات يقدّرون الزمن بتغير القمر ويعدون السنين بتجدد الفصول ولا يحفظون التواريخ وكلهم يجهلون مقدار ما مضى من اعمارهم وانما يحفظون بعض الحوادث العظيمة ويتحادثون فيها فاذا ذكروا امرا وارادوا ان يعينوا له وقتًا ارخوه بحادثة منها فيقولون كان كذا عام حادثة كذا وفي طبعهم الميل الى التغني سواء كانوا في حالة سرور او حزن ولاعتقادهم ان السعادة المعتبرة انما تكون في الاخرة تراهم لا يجزعون من الموت ولا يخافون وانما يخافون من المرض والألم فان عرض لهم مرض تخلصوا منه بقتلهم لانفسهم ويعدون من فعل ذلك بنفسه من اشرافهم والمعتبرين فيما بينهم وربما افردوه وحده بقبر مخصوص يضعون معه مآكل كثيرة مما كان يحبه في دار الدنيا لاعتقادهم انه لم يستوفِ زاده منها ومن عاداتهم اذا امر احد اعيانهم عبدا من الاهلين بامر خطر قال له العبد افعل وعليك الضمان يعني بذلك انه ان مات كان على الآمر ان يعطي اهله ديته وهي ثمن عبد يدفعه لهم وجميع هذه الامة تقول بان ارواح الاموات تتشكل في صور مختلفة وتظهر للاحياء اما لتخويفهم او لمؤانستهم وقد بلغني ان رجلاً اوروبيًا كان له جارية مات فادعت انها رأته بعد موته يعنفها ويلومها فمرضت من شدة خوفها وادعى

اهل الميت انهم سمعوه وهو يتكلم معها فغلب الوهم عليها فاشتد مرضها حتى ماتت

ومشائخهم يوافقونهم على ذلك ويصدقونه ويقولون لهم ان الشيطان والملائكة تظهر بين العالم في صورة الادميين او البهائم او غير ذلك ولهذا تراهم على جهلهم يعظمون بعض البرك والانهار والجبال والصخور والغابات والاشجار وبيوت النمل وبعض الاحجار المنفردة عن غيرها وما اشبه ذلك ويحترمونها احترامًا عظيمًا كاحترام غيرهم من الامم لمقامات الاولياء والصالحين ويعمل لهم مشائخهم تمائم وتعويذات على اشكال هذه الصور بقصد الحفظ من الامراض والعاهات وتاخذ منهم في مقابلتها جعلا عظيما وفي تلك النواحي بلاد لا يظهر اهلها للشمس مطلقًا ولا يمشون الاّ بالليل ومنهم من يعيش طول عمره في البلدة التي ولد بها ولا يفارقها واهل تلك الارض لا يفرقون بين دين واخر وكل الاديان عندهم على حد سواء وللشيوخ عندهم احترام عظيم ومحلات معتقديهم معظمة فيما بينهم لا يدخلها غيرهم ولهم طرق لا يسلكها الاّ اولياؤهم يميزونها باوتاد يدقونها وبعض آنية يضعونها على جانبي الطريق فاذا راوا ذلك تحاموا المرور منه وسلكوا طريقًا بعيدًا عنه

واما العادة في الزواج عندهم فمختلفة باختلاف الجهات ففي جهة (اكارا) تخطب البنت من ابيها وامها فاذا اتفق الزوج معها زفت الى زوجها من غير نظر الى رضاها وعدمه ومن حين

الزواج تصير الزوجة في ملك الزوج وتصرفه فله بيعها اذا اراد وتاديبها اذا اساءت وقتلها اذا زنت وللزوج في (آكارا) على من زنى بزوجته عبد واحد وفي غيرها من الجهات عبدان الى سبعة فاكثر وفي بعض الجهات اربعة ريالات وفي بعضها اثنا عشر وفي بعضها لا حد لذلك بل المدار على ما تطيب به نفس الزوج فان كان الزاني معسراً فللزوج بيعه واخذ ثمنه هذا كله اذا لم تشتهر الزوجة بالزنا فان اشتهرت به وعلم بها زوجها فلا وجه له على الزاني ولا لوم عندهم على مصاحبة الذكور للاناث غير الحظايا ومن عادات اهل (آكارا) ان بنت الغني منهم اذا ارادت ان تتزوج بحيث تبقى على حريتها ولا تكون في اسر الزوج فعلت ما يقال له زواج الحائط وذلك ان تجري الافراح وسائر رسوم الزواج كانها طلبت للزواج بالفعل ومن ذلك الوقت يكون لها ان تعاشر من تشا وتستبدله بغيره في اي وقت تريد وتتكفل بتربية ما يكون لها من الاولاد وهذا كثيراً ما يحصل في جهات (آكارا) وهناك عادة اخرى في غيرها وهي ان تجتمع الشواب والشبان بشاطىء البحر وينزعون ثيابهم وينزلون في البحر مختلطين مع بعضهم فمن اعجبه صاحبه خطبه

وعندهم لا يمتنع تزويج الذكر باي انثى الاَّ اذا كانت اختا الاَّ انهم يحتقرون المرأة العاقر ويحترمون الولود خصوصاً اذا كانت تلد ذكوراً ومن كثرت اولادها يعمل لها زفاف عظيم ويكون لها

عندهم مزيد اجلال وتكريم

ومن الغريب انهم اذا ماتت المرأة وهي حامل لا تدفن بل يرمى بها للطير والوحوش بخلاف التي تموت حين الولادة او بعدها فانها تدفن ومن اوهامهم ان روح الولد الذي يموت تنتقل الى جثة اخيه الذي تلده بعده امه فاذا لم يمت المولود وبلغ اوان الحلم اجتمعوا وعملوا له فرحًا ومهرجانًا فان كان الولد ذكرًا اظهر للناس ما عنده من القوة والشجاعة وان كانت انثى تتزين وتتجمل وتلبس احسن ما عندها ثم تقوم وترقص بينهم وتبدي زينتها وجمالها وبراعتها في الرقص

وهناك قوم على ساحل نهر السيستوس على بعد اربعين فرسخًا من راس (ميزورادول)

ومن عاداتهم انهم اذا مات الزوج دفنوا معه زوجته كما اخبر بذلك احد السائحين قال في اثناء عبارة له ان تعدد الزوجات بهذه الجهة غير ممتنع بل المدار عندهم على اتفاقهم على المهر ان كانت المخطوبة حرة او القيمة ان كانت أمة فمتى اتفقوا على ذلك اخذ الزوج زوجته وذهب بها الى نسائه فتختلط بهن وتشرب الخمر معهن ويقمن جميعًا بتهيئة الوليمة وبعد الدخول بها اول ليلة تكون مع سائر نسائه في خدمة المنزل ومن عاداتهم ان من تلد من الزوجات اولاً تكون هي المحترمة والمقدمة عليهن والمتكلمة في المنزل الاّ ان هذا التقدم لا يثمر لها الاّ التندم لانها هي التي تدفن

مع زوجها لو مات في حياتها

قال وقد حضرت جنازة لرجل مات في قرية من القرى وكان شيخ القرية فلما مات ارتفع الصياح من جميع مَن في البيت من النساء فاجتمع اليهن نساء البلد ورفعن اصواتهن مثلهن فكان جزع الحظية من بينهن اعظم وصوتها اعلى من اصوات جميع من في المأتم فكان بالضرورة بكاؤها في ذلك الوقت على نفسها لا على بعلها لعلمها انها هي التي ستدفن معه وكان باقي النساء وقتئذٍ مع بكائهن وصياحهن مجتمعات حولها ينظرن اليها من طرف خفي حذراً من فرارها وقد اتفق ان بعض الحظايا في مثل هذه الحال هربت وتخلصت من الدفن مع زوجها فكن محدقات بها لكيلا تتمكن من الهرب وهن مع ذلك يظهرن الاسف على فقدها والتوجع لمصابها ثم ان اقارب الميت حضروا فعزوها في بعلها وودعوها وداع الموتى وبعد ذلك اتى رجل في هيئة فقيه ومعه بعض اتباعه فوضع يده على الميت كما يفعل الحكيم وقال ان موته طبيعي لا سبب له سوى انقضاء اجله ثم غسله ودهن جسمه بدهن معروف لهم يدهنون به موتاهم ثم انه بعد ان دهنه من راسه الى قدمه حوله من مكانه الى حصير مفروش في وسط المنزل والناس حوله ينظرون اليه وحضر النساء فاحطن به وكانت الحظية عند راسه وجميع النساء ناشرات شعورهن ينحن ويصحن ويضربن وجوههن وصدورهن ويقطعن شعورهن وكن في بعض الاحيان يسكتن ثم

يعدن لما كنّ عليه وكان بينهن جماعة منهن يندبن الميت ويذكرن فضائله فاستمر الحال على ذلك نحو ساعتين واذا بعبدين قويين حضرا فاحتملا الميت وربطاه على خشبات من فروع الشجر وطافا به نواحي القرية مع الهرولة والسرعة في بكاء ونحيب وحركات متنوعة واصوات مفزعة غطت على كل صوت في البلد حتى صار لا يسمع غيرها ثم انصرفوا به ليدفنوه فلما وصلوا الى المقابر وضعوه على الارض وارتفع الصوت بالنحيب والبكاء من جميع النساء ثم بيّن فقيهم موضع التربة فاحتفروها واسعة على قدر اثنين ثم اتى بعنز فذبحها وسلخها وقطعها بيده ثم اعطاهم امعاءها واطرافها فطبخوها واكل منها مع بعض من حضروا واعطى الحظية شيئًا منها واما ما بقي من اللحم فقطعه قطعًا صغيرة وفرق منه بيده على جميع الحاضرين وابقى منه بقية والصياح في كل ذلك مرتفع والبكاء لا ينقطع فلما اكلوا قام ذلك الفقيه الى تلك الحظية وقبض على يدها وسلمها الى اثنين من العبيد فاوثقوا يديها وجعلوهما خلفها وطرحوها على الارض على ظهرها ووضعوا على قلبها خشبة وقعدوا فوقها وصار كل منهم يتكئ على الاخر حتى تهشمت عظامها ثم رموا بها في القبر ووضعوا زوجها فوقها ثم اتوا له بما بقي من اللحم فوضعوه بجانبهما ثم اهالوا التراب عليهما وعند ذلك انقطع البكاء والنحيب وتوجه كل منهم الى منزله على العادة كأن لم يحصل شيء

وكل سكان هذه البقاع من غير استثناء مغرمون بشرب

المسكر وحب النساء فيصرفون في ذلك معظم اوقاتهم ولو ترتب عليه نقص في اقواتهم

ومن العادات الجارية في بعض الجهات ان الزوج قبل اجتماعه بزوجته يبعث اليها بثلاث هدايا واحدة فواحدة الاولى من خرز مصنوع من زجاج ونحوه والثانية من جنس ما يلبس والثالثة صندوق تضع فيه امتعتها وكذلك اهل الزوجة يهدون الى الزوج عبدين فاكثر على حسب الثروة واليسار وكذلك يرسلون له كسوة تليق به وسيفًا بحمائله وبعض سهام وشيئًا من ارز ونحوه

وطريقتهم في تربية اولادهم ان تربية الذكور على الاباء والاناث على الامهات ولا مزية للبكر عندهم على غيرها في الزواج واذا حملت المرأة وعلم بها الزوج لا يقربها حتى تلد ويصنع للمولود ما سنذكره وهو انه اذا كان المولود ذكرًا جمع ابوه عائلته وخدمه بعد مضي يومين من ولادته واخذوا نبالهم وقسيهم ورماحهم وعصيهم ودار بهم في البلد مظهرين الفرح والطرب مكثرين من الغنا والرقص والطبل والزمر فيجتمع عليه احبابه واصحابه ومعهم الات الطرب من الطبول والمزامر والنقلات وغيرها فيجتمعون في ميدان واسع وعند ذلك يخرج رجل من بينهم كالخطيب فياخذ الولد من امه ويضعه على ترس بين الحاضرين ويضع في يده قوسًا او نشابًا او نحو ذلك ثم يخطب خطبتين يذكر في الاولى سبب اجتماعهم ثم يلتفت نحو المولود مخاطبًا له بالخطبة الثانية ويدعو له بطول العمر

وحسن الحال والغلبة على الامثال والتوسعة في الرزق والمال وان يكون خلفًا ساعيًا مساعي ابيه محبًا للخير مانعًا عن نفسه الضيم والضير معمرًا لداره ممدوحًا في اثاره وان تكون نفسه عفيفة وهمته عالية شريفة ونحو ذلك مما يناسب المقام ثم يسميه ويعطيه لامه او ابيه وينصرف الحاضرون بعد ذلك وان كان المولود انثى عمل لها ايضا مثل ذلك ولكن يضعها الخطيب على حصير بدل الترس الذى يوضع فيه الولد ويعطيها عصا بدل النشاب ويدعو لها بان تكون حافظة لعرضها امينة على متاع زوجها ماهرة في طبخها وخبزها مقدمة عند زوجها على باقي نسائه معينة له في اشغاله واعماله ونحو ذلك

ومن عادات الكوجاش ان الرجل اذا مات ورثه اولاده الذكور في جميع مخلفاته من نساء ومال فان مات الرجل ولا ذرية له من الذكور كان الوارث له اكبر اخوته فان خشي الفقر على بقية اولاده اعطى لهم في حياته بعض ماله كل على حسبه فان مات ولا وارث له من اولاده واخوته الذكور وله ذرية من البنات كان ميراثه لاكبر اولاد اخيه من الذكور فان مات ولا وارث له من ذكر كان الوارث الحاكم فحينئذٍ يلزمه تربية بنات الميت وفي جنائزهم ودفنهم لموتاهم وتجهيزهم لهم عادة فظيعة يحافظون عليها ولا يتحولون عنها ذلك انهم بعد ان يغسلوا ميتهم يلبسونه احسن ثيابه وسلاحه ويسندونه الى شي حتى يستوي قائمًا على قدميه ثم

تجتمع حوله اقاربه واحبابه ومن يلوذ به ومعهم القسي والنبال والات الحرب والقتال ويهيئون صورة محاربة تستمر مدة طويلة ثم انهم يولونه ظهورهم ويجثون على ركبهم ويذكرون كلاماً معناه انهم مستعدون لقتال من يطعن في ميتهم او يتفوّه في حقه بما لا يليق به فان كان الميت قتيلاً اعلنوا بانهم مستعدون لاخذ ثاره وبعد ذلك يقومون وياخذون من عبيده بقدر ما يناسب مقامه فيطعمونهم من احسن ما عندهم ويوصونهم بالقيام بخدمة سيدهم ثم يذبحونهم ويدفنونهم معه في قبر واحد ويدفنون معهم ما كان لهم في الدنيا من الفرش والاواني والثياب وجميع ما كانوا يستعملونه في حياتهم ثم يضعون عليهم حصيراً ويردون التراب عليها وبعد ذلك يصنعون على القبر عشة يدقون في احدى زواياها قطعة من الحديد يعلقون بها بعض سلاح الميت ان كان ذكراً فان كان انثى وضعوا معها جميع ثيابها وما كانت تحبه في حياتها وبعد دفن الميت ياتون بطعام وشراب فيضعونه على قبره ظناً منهم ان ذلك تتغذى به روح الميت ويكررون ذلك حيناً بعد حين الى تمام ستة اشهر من دفنه

ثم قال يعقوب ولهم كثير من امثال هذه العادات الفظيعة يطول تعدادها

المسامرة الخامسة والستون

العرب الجاهلية

فقال الشيخ منشأ هذه العادات القبيحة وامثالها انما يكون من الجهالة فلا يزيلها الاَّ حسن التعليم وانتشار المعارف بين الامة وقد كان لامة العرب في الجاهلية كثير من امثال هذه العادات والاوهام فزالت بما انتشر بينهم من شريعة الاسلام ببعثة محمد عليه الصلاة والسلام

فمن عادات العرب في الجاهلية انهم كانوا اذا مات واحد منهم عقلوا ناقته عند قبره وشدوا عينها حتى تموت يزعمون انه اذا بعث من قبره ركبها

ومنها انهم كانوا اذا اصاب ناقة احدهم داء العرّ كوى الناقة السليمة يظنون ان ذلك يبري المعيبة

ومنها انهم كانوا يضربون الثور اذا امتنعت البقر من الشرب يزعمون ان الجن تركبه فتصد البقر عن شرب الماء

ومنها الهامة كانوا يزعمون ان الانسان اذا قتل ولم يوخذ بثاره يخرج من راسه طائر يسمى الهامة فلا يزال يصيح على قبره اسقوني اسقوني الى ان يؤخذ بثاره

وكان لهم في النفس مذاهب فمنهم من زعم انها الدم وان الروح هو الهواء الذي في باطن جسم الانسان

ومنهم من زعم ان النفس طائر ينشط من جسم الانسان اذا مات او قتل ولا يزال يصرخ على قبره مستوحشًا له وفي ذلك يقول شاعرهم

سلّط الموت والمنون عليهم * فلهم في صدى المقابر هامُ

وقال ان هذا الطائر يكبر حتى يكون كالبوم واكثر ما يوجد في الديار المعطلة والنواويس ومصارع القتلى حتى قالوا ان الهامة لا تزال عند ولد الميت لتعلم ما يكون من خبره فتخبر الميت

ومنها الصفر يزعمون ان الانسان اذا جاع عض شرسوفه الصفر وهو حية تكون في البطن

ومنها ثنية الضربة يزعمون ان الحية تموت لاول ضربة فاذا ثنيت الضربة عاشت ونحو ذلك من الاوهام الفاسدة والاراء الكاسدة فلما جاء الاسلام وبعث محمد عليه الصلاة والسلام هجر العمل بذلك كله وبطل القول به من اصله

ومنها انهم اذا اجدبوا بسبب انحباس المطر عنهم وارادوا طلب السقيا من الله جمعوا حزمًا من النباتات التي يبست كالسلّع والعُشر وربطوها باذناب البقر واوقدوا فيها النار واصعدوها في الجبال وفرقوا بينها وبين اولادها حتى يكون ضجيج عظيم ومناظر هائلة يستجلبون بذلك رحمة الله واستمر ذلك فيهم الى ان تنبه كثير لقبح تلك العادة وسماجة ذلك التوسل وكثرت الاشعار فيه فمنها قول بعضهم

شفعنا ببيقور الى هاطل الحيا
فلم يغن عنا ذاك بل زادنا جدبا
فعدنا الى رب الحيا فاجارنا
وصير جدب الارض من عنده خصبا

ومنها قول شاعر اخر

لا در در رجال خاب سعيهم
يستمطرون لدى الاعسار بالعشرِ
اجاعل انت بيقورا مسلعة
وزيعة لك بين الله والمطر

قال عبد الحميد بن ابي الحديد في شرح نهج البلاغة عند ذكر بعض المذاهب التي كانت عليها العرب قال بعض الاذكياء كل امة قد تخذوا في مذاهبها مذاهب ملة اخرى وقد كانت الهند تزعم ان البقر ملائكة سخط الله عليها فجعلها في الارض وان لها

عنده حرمة وكانوا يلطخون الابدان باخثائها ويغسلون الوجوه ببولها ويجعلونها مهور نسائهم ويتبركون بها في جميع احوالهم فلعل اوائل العرب حذوا هذا الحذو وانتهجوا هذا المسلك

وكان البقر عند قدماء المصريين ايضًا على نحو من هذه المثابة ومن عادات جاهلية العرب ان الانسان اذا لدغه لادغ علقوا عليه حليًا وكانوا يعتقدون انه اذا علق عليه حلي الذهب بريء واذا علق عليه حلي الرصاص مات وكانت طائفة اخرى منهم تعتقد ان تعليق الحلي على اللديغ لاجل ان يسهر ولا ينام بسبب قعقعته وكانوا يرون انه اذا نام سرى فيه السم فمات واذا لم ينم سلم وقيل لبعض العرب أيكون تعليق الحلي سببا للسهر فقال لا ولكنها سنة توارثناها عن اوائلنا ومن خيالهم ان الرجل اذا بلغت ابله ألفًا فقأ عين الفحل كانه يحترز بذلك من اصابة العين لما له قال شاعرهم في الافتخار بالغناء والتعيير بالفقر مكنيًا بذلك

فقأنا عيونًا من فحول بهازر

وانتم برعي البهم اولى واجدر

والبهازر الجمال العظام والبهم الغنم الصغار

ومن خرافاتهم انهم اذا ارادوا ان يدخلوا قرية لطلب الميرة وخافوا وخامتها واصابة وبائها وقفوا خارجها ونهقوا نهيق الحُمُر وعلق كل منهم كعب ارنب عوذة وتميمة ويسمون هذا النهيق

تعشيرًا واتفق لعروة بن الورد الشجاع المشهور احد صعاليك العرب المضروب بهم المثل في الشدة والجرأة انه خرج في رفقة الى خيبر يمتارون فلما دنوا منها نهقوا على عاداتهم فانف عروة من ذلك وقال

لعمري لئن عشرت من خيفة الردى
نهاق حمير انني لجزوعُ
فلا وألت تلك النفوس ولا اتوا
قفولاً الى الاوطان وهي جميعُ
وقالوا الا انهق لا تضرك خيبرٌ
وذلك من فعل اليهود ولوعُ

فتصادف ان عروة رجع لاهله سالمًا غانمًا لم تشكه شائكة وجميع من كان معه وعشروا كانوا بين موتى ومرضى ومنها ان الرجل اذا كان مسافرًا فاخطا الطريق قلب ثيابه وصفق بيديه وحركهما كانه يومئ الى انسان يرى انه يهتدي بذلك الى الطريق قال اعرابي

قلبت ثيابي والظنون تجول بي
وترمي برحلي نحو كل سبيلِ
فلا يابلاي ما عرفت جليتي
وابصرت قصدًا لم يصب بدليلِ

ومنها اعتقادهم ان المقلاة وهي التي لا يعيش لها ولد اذا تخطت

الشريف الذي قتل غدرًا سبع مرات وطافت حوله عاشت اولادها قال الشاعر

تظل مقاليت النساء يطأ نهُ

يقلنَ الا يلقى على المرء مئزرُ

ومنها ان الصبي اذا نزع اسنانه اوان تبديلها رمى بها الى الشمس وقال ياشمس ابدليني بها احسن منها وذكرته الشعراء في اشعارها من ذلك قول طرفة

بدلته الشمس من منبتهـــا * بردا ابيض مصقول الاشر

ومنها اعتقادهم ان دماء الملوك والاشراف اذا شربها من عضه الكلب برئ من داء الكَلَب قال الشاعر يمدح قومًا من الاشراف

احلامكم لسقام الجهل شافية * كما دماؤكم تشفي من الكَلَبِ

والكلاب تعتريها حالة هياجية كالجنون فلا تاكل ولا تشرب فتصير ضئيلة هزيلة سريعة العدو جدًا فاذا لقيت في طريقها حيوانًا انسانًا او غيره عضته والغالب انه يموت المعضوض ومن خرافاتهم انهم اذا خافوا على الشخص مس الجن واستهواءهم اياه نجسوه وعلقوا عليه شيئًا من الاقذار وعظام الموتى وخرق الحيض قالوا ينفع التنجيس الا من العشق ومن مذاهبهم انه اذا طرف انسان عين الاخر مسح عليها سبعا لذهاب الالم يقول في الاولى احدى من سبع جاءت من المدينة وفي الثانية اثنتان من سبع جاءتا من المدينة وهكذا الى ان يقول سبع من سبع جئن من المدينة ومنها

اعتقادهم ان من ولد في الليلة القمراء يخننه القمر وذلك انهم يجدونه قصير الغرلة ومنها تشاومهم بالعطاس كان الرجل اذا قصد قصداً فعطس في وجه انسان رجع يرى انه لا يصيب خيرًا قال الشاعر يمدح من لم يعتبر ذلك

وخرقٍ اذا وجهت فيـــه لحاجة

مضيت ولم يحبسك عنه العواطسُ

ومما اشتهر عن العرب احاديث الغيلان والسعالى وانها ام حية تسكن الفلوات والاودية وروٌس الجبال وانها ربما خالطت الناس وحصل بينهم تناكح وتناسل ويذكرون في ذلك احاديث كثيرة منها ان عمرو بن يربوع احد مشاهير العرب عثر بامراة من ذلك الجنس فاحبته وتزوجها وولد منها وكانت قالت له انا رايت البرق فاستره عني فاني متى نظرته طرت الى بلاد قومي وتركت اولادك فغفل عنها يومًا فرات برقًا فطارت والى ذلك يشير ابو العلاء المعري حيث يقول

اذا لاح ايماض سترت وجوهها

كاني عمرو والمطيّ سعالى

ولهم في هذا الباب اشياء كثيرة كخوفهم اذا قتلوا ثعبانًا او حية ان تقتص منهم الجن فياخذون روثة ويفتونها على راس المقتول ويقولون روثة راث ثائرك يتحرزون بذلك وخوفهم من التعرض لبعض الحيوانات الصغار كالقنافذ واليرابيع لزعمهم انها مراكب

الجن وكان لهم خرز يستجلبون باستعماله بعض الحوادث كالحب والبغض والمرض والبرء وغير ذلك في اشياء كثيرة من جنس هذه الخرافات يطول استقصاؤها وقد بقي كثير منها تتناقلها النساء ومن يكون على طباعهن من العامة واهل التنبه منهم يسمون ذلك علم الركة نسبة للركة التي يغزل عليها النساء لانهن اذا جلسن للغزل ليلاً تفاوضن في هذه الاحاديث ومن اشنع ما كانت عليه جاهلية العرب وأد البنات وهو دفنهن حيات كان يحفر الرجل حفرة ثم يدلي فيها البنت ويطم عليها بالتراب وذلك لاحد سببين خوف لحوق العار الذي يكون من جهة العرض وخوف كثرة الانفاق خشية الاملاق روي ان صعصعة جد الفرزدق الشاعر المشهور وكان ذا مال عظيم خرج يوما على نجيب الى البادية في طلب ناقتين كريمتين ضلتا له فوجد في مسيره بيتا ببابه شيخ فنزل اليه واستقبله ذلك الشيخ بالتحية والاكرام وجلس يتحدث معه ثم ساله عن الناقتين فاخبره بانهما عنده ثم جاءت جارية فبشرته بوضع زوجته فقال انظري ان كان ذكراً شاركنا في مالنا وان كان انثى فمت فوأدتها فقال له صعصعة او خيراً من ذلك افتديها منك فقال يتحدث العرب عنا اننا نبيع الاولاد فقال له تلك فدية وهي ابنتك فقبل الاعرابي وجعل الفدية الناقتين والنجيب فرضي صعصعة بشريطة ان يعود على النجيب الى اهله ثم يبعثه واخذ بعد ذلك صعصعة في هذا العمل حتى فدى مائة

وئيدة وكان الفرزدق يفتخر بذلك ويقول انا ابن محيي الموتى فاذا سئل عنه قال جدي احيي المؤودة والله سبحانه يقول ومن احياها فكانما احيي الناس جميعا واسلم صعصعة وسال النبي صلى الله عليه وسلم عن عمله فبشره بقبوله وان له ثوابه ولم يكن وأد البنات قديما في العرب ولا عاما لهم ومما كان عليه العرب ان الرجل اذا مات ورث امراته اكبر اولاده فتزوجها كرها وكان لهم في النكاح ونسبة الذرية طرق مختلفة اعظمها واشرفها ما عليه دين الاسلام من الخطبة وتقدير المهر وعقد التزويج في محفل من الناس والزفاف للشهرة واعتبار الكفاءة · الطريقة الثانية ان تتخذ المراة بيتا ثم تخادن عدداً من الرجال لا تجاوزهم يكونون اخدانا لها عشرة فما دونها يشتركون فيها والانفاق عليها وربما اجتمعوا اليها يتحدثون ويتنادمون على الشراب فاذا جاءت بولد الحقته بمن يوجد فيه شبهة ان كان ظاهراً والاّ احضروا بعض القافه ليتامله ويلحقه بمن عرف شبهه به وعند ذلك يكون ابناً له · الطريقة الثالثة ان المراة تتخذ بيتا وتنصب عليه راية ولا تختص باحد بل يدخل عليها كل من اراد وهولاء البغايا فان جاءت بولد الحقته بمن شاءت من المشهورين بالعهر واتيان البغايا فلا يقدر على الامتناع من ذلك وانما استلحقه رجل قبل ان تلحقه باحد كان ابنه

وكانت العرب تجوز من غير حصر فيجمع الرجل في عصمته عشر نساء واكثر واسلم غيلان بن سلمة وتحته عشر نسوة فقال له

النبي صلى الله عليه وسلم امسك اربعًا وفارق سائرهن وكان للعرب عناية بامر العيافة والزجر والمراد بذلك الاستدلال على حوادث الخير والشر باحوال يشاهدونها عند نية امر من الامور ولهم في ذلك مصادفات غريبة تكاد تجعل الباطل حقًا وقد اشتهر بعض القبائل بالمهارة في ذلك قال الشاعر

خبير بنو لهب فلا تكُ ملغيا

مقـالة لهبيٍّ اذا الطير ولتِ

فكانت هذه الاشياء في جاهلية العرب لعدم تفكرهم في حقائق الاشياء وعللها وغاياتها اذ لم يكن لهم مرشد الهي يخبرهم بفساد ما هم عليه من العقائد والاوهام والمذاهب التي نشات فيهم بسبب الجهل والغفلة والتخيلات لكن العرب بجودة طباعهم وكرم فطرتهم وحسن اخلاقهم كان فيهم عقلاء حلماء حكماء كثيرة استخرجت افكارهم اغلب الاداب الانسانية التي ينبغي ان يكون عليها النوع الذي شرفه الله بالعلم والنطق والالفة والاجتماع للتعاون في تحصيل المنافع التي خلقت له يشهد لذلك قوله صلى الله عليه وسلم بعثت لاتمم مكارم الاخلاق وما اشتهر عنهم من الاشعار والخطب والمقالات في فصل القضايا والخصومات واصلاح ذات البين ولا شاهد اصدق واعدل من النطق وحسن الابانة عن الاغراض والمعاني المعقولة بظهر ذلك في كلماتهم الوجيزة وامثالهم العزيزة وقد ورد الاسلام بتقرير كثير من محاسن عاداتهم اما باعيانها واما بتغييرات

يسيرة فكان الشر في الامة العربية مضمحلاً مغموراً في تضاعيف ما لهم من الخيرات الكثيرة والمآثر العلية الشهيرة

قال ناقل الحديث ثم لما طال بهم المجلس ومالت الى الراحة الانفس سكت الشيخ وقال الانكليزي قد نقل السائحون في كتب سياحاتهم ان اهل تلك الجهات التي حدث عنها يعقوب كثيراً من احوال الجهل والتوحش والعادات الشنيعة والاخلاق الفظيعة ومن اشنعها وافظعها عادة تقريب القرابين من الادميين ولنجعلها حديثنا في الصباح ان شاء الله تعالى فقد طاب النوم وهذا برهان قد داخله النعاس فان استحسن الاستاذ قمنا لياخذ كل منا راحته الى الصباح فقال الشيخ لا باس وقام فقاموا وانصرف كل الى مضجعه فلما اصبح الصباح قاموا وتوجهوا الى المحطة ونزلوا في احدى العربات وساروا وفي اثناء الطريق لم يجد الشيخ ماء يتوضأ به فتيم وصلى ما حضر من الصلاة وكذلك فعل ابنه برهان الدين وكانت هذه اول مرة راى فيها يعقوب التيم وانما كان يراهما يتوضآن فسال الشيخ في ذلك



المسامرة السادسة والستون

الوضوء والتيمم

فقال الشيخ ان الله جلت حكمته لم يجعل علينا في الدين من حرج بل خفف عنا وسهل علينا ويسر لنا الطريق لعبادته وجعل لكل حال من الاحوال التي تعتري الانسان عملاً يناسبه فاذا عجز عن الصلاة قائمًا صلى قاعدًا وان عجز عنها قاعدًا صلى مضطجعًا وان عجز عنها مضطجعًا صلى مستلقيًا وان وجد الماء توضأ وان اعوزه الماء تيمم وصلى لكيلا يحرم في وقت من اوقاته من عبادة مولاه والتقرب الى رحمته والدخول في حضرته فان الانسان في كل صلاة من صلواته يخلو مع ربه عز وجل يناجيه بلسان الخشوع ويناديه بكمال التضرع والخضوع ويعرض فيها العبد الكامل في عبادته عن اشغال الدنيا واحوالها ووساوسها واعمالها ويخلي قلبه لربه مقبلاً عليه

بكليته قائمًا على قدم عبوديته فينشرح صدره ويستريح خاطره من شواغل الدنيا وغوائلهـــا مدة صلاته فيستنير قلبه ويقوى ايمانه ويضعف عنده حب الشهوات والمفاسد والمعاصي خصوصًا بما يتكرر على خاطره ويفعل في قلبه مما يتلوه في صلاته من الايات القرآنية وما يتبعها من الخواطر العلية والواردات الرحمانية التي تمحق من قلبه سلطنة القسوة والرعونة والغباوة وتملأه ورعًا وتقوى واقبالا على الله وحنانا ورافة بخلقه ورحمة لهم فهذا شان الصلاة الفاضلة والعبادة الكاملة التي تعود على الانسان بالنفع في الاخرة والراحة في الدنيا والتقرب الى الله سبحانه قد سهل لنا بفضله السبيل اليها حتى لا يحرم العبد منها في وقت من اوقاته وحال من احواله ولهذا رايتني لما لم اجد ماء اتوضا به تيممت وصليت لقوله تعالى فان لم تجدوا ماء فتيمموا

فقال برهان هل يعلم ايها الاستاذ لنزول هذه الاية سبب يذكر

قال الشيخ روي عن عائشة ام المؤمنين رضي الله عنها انها قالت خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض اسفاره حتى اذا كنا بالبيداء (في مكان بذي الحليفة) انقطع عقد لي فاقام رسول الله صلى الله عليه وسلم على التماسه واقام الناس معه وليسوا على ماء وليس معهم ماء فاتى الناس الى ابي بكر الصديق (وهو ابوها) فقالوا له الا ترى الى ما صنعت عائشة اقامت برسول الله

صلى الله عليه وسلم والناس وليسوا على ماء وليس معهم ماء قالت
فجاء ابو بكر ورسول الله صلى الله عليه وسلم واضع راسه على
فخذي قد نام فقال حبست رسول الله وحبست الناس وليسوا
على ماء وليس معهم ماء فعاتبني ابو بكر وقال ما شاء الله ان
يقول فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم حين اصبح على غير ماء
فانزل الله تعالى يا ايها الذين امنوا اذا قمتم الى الصلاة الى قوله
فان لم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبًا فقال بعض الصحابة ما هي
باول بركتكم يا آل ابي بكر فهذا سبب نزول هذه الاية



المسامرة السابعة والستون

مملكة اشانتي

قال الناقل ثم التفت الشيخ الى الانكليزي يرجوه في انجاز ما وعده به في الليل من ذكر عادة السودان في تقريب القربان من نوع الانسان فقال الانكليزي من جملة القبائل المتشرة في سواحل بلاد الذهب قبيلة يقال لها (اشانتي) مقيمة في ارض واسعة بعيدة الحدود يحدها طولا من المغرب الى المشرق اربع درجات وهو من (عامان) الى (ولتا) وعرضها نحو ذلك وهو من حصن راس (كورس) الى ولاية (غرفان)

وملك اشانتي هو الحاكم على جميع هذه الارض ومن فيها من غير معارض لامره ولا منازع له في حكمه وجميع حكام القبائل تحت أمره ونهيه سواء من يدفع منهم الخراج ومن لا يدفعه فجميع

القبائل المنتشرة في جهات سواحل الذهب خاضعة لاوامره قد انضمت الى حكمه بعد حرب حصلت بينهم اخيرا فصار الجميع مملكة واحدة تختها مدينة (كوماسي) فمنها بجهة الجنوب قبيلة (دينكيرا) وجبال (طوفيل) وقبائل (وصّا · وامندا · وعوفين · وتوزكا)

ومنها بجهة الشرق على شاطئ نهر (قولتا) قبائل (غوفان · وبابوزو · وبناويوبتن · ودعجورا · وبودومي · وعكيا · وعكواهو · وعكيم · واكوبيم · ودعكامبويه)

وفي الوسط قبائل (سوكو · وتليما · وكودنزا · وماسي · وعاسين · وفانتي · وعهتنا) وكلها تحت حكم ملك (اشانتي) وهذه المملكة على اتساعها منقسمة الى ثمانية طرق تمر من مدنها الشهيرة كل طريق يسمى باسم الملك الذي انشئ في مدته او باسم المديرية التي هو فيها او القبيلة المار بها

فالطريق الاول يسمى طريق (داعوفين) وهو الموصل الى الساحل الغربي المجاور لمدينة (ايولونيا) وغيرها

الثاني يسمى طريق (وصّا) وعندها ينقسم الى فرعين احدهما شرقي والاخر غربي الذي يتوصل به الى راس الثلاثة الشعوب والى مواطن الاوروباويين بتلك الجهات

الثالث يسمى طريق غسيم وفانتي وينقسم عند بلدة صغيرة هناك الى قسمين احدهما يتوصل به الى حصن الفلمنك وهو قريب

من راس كوري على بعد اربعة اميال منها

الرابع طريق (خوابتي) وهو اخذ من الجنوب الشرقي الى الشمال الشرقي ويمر بعدة مدن وبلاد يتوصل منها الى (اكار) ومواطن الانكليز وغيرهم من الاوروبيين القاطنين بهذه النواحي وهذه الطرق الاربعة تسلكها اهل اشانتي عند الذهاب الى الساحل لشراء البارود والبندق وجميع البضائع الاوروبية واما الاربعة الاخر فمبدأها من التخت ثم تاخذ في اتجاهات مختلفة الى داخل ارض افريقا وهذه الاربعة منها اثنان قديمان واثنان حديثان

والملك الان مجتهد في فتحها لسهولة العبور منها بتسخير العبيد في قطع اشجارها ونقل احجارها وهناك طرق اخرى توصل من التخت الى ما جاوره من البلاد ومنها الى المدن الشهيرة والى بلاد الساحل ومواطن الاوروبيين ولكن في كل سنة يتلف كثير من هذه الطرق وتمحى اثارها بسبب الرياح والامطار وفيضان الانهر والخلجان والبحائر وقد يتعدى ذلك الى الطرق الكبيرة ايضًا وهيئة الارض من جهة الساحل ترى كحصن من اشجار وخضرة وذلك في جهة الشرق والغرب واما من جهة الجنوب والشمال فهي بقاع مستوية في بعض جهاتها او غابات صغيرة والارض فيما حول نهر فولتا جبلية وفيها غابات قليلة ويوجد حول التخت مدن كبيرة كثيرة الاهالي بعضها على بعد يوم وبعضها على اكثر ومنها ما اهله قريب من ستين الفًا ومنهم من يتعيش من الصيد ومنهم من

يتعيش من زراعة الارض ومنهم من يتعيش منهما معًا ويوجد في المدن من لهم معرفة بصناعة الصباغة والحياكة ونسج الحصر وعمل اواني الفخار وفيهم من له معرفة بعمل السلاح

وعدد رجال العسكرية عندهم يقرب من مائة وخمسين الفًا واموال الحكومة ترد اليها من عدة جهات

الجهة الاولى ما يرد من غرامات المذنبين وتركات الاموات

الثانية ما يرد من تجار الرقيق عند بيعه بالسواحل وهو مقدار من الذهب يؤخذ على ما يباع منه

الثالثة ما يرد من معدن البضائع صادرة او واردة

الرابعة ما يرد من صيادي الفيلة

الخامسة ما يرد من معدن الذهب بناحية (سوكو)

السادسة الذهب المجتمع بالغسيل والتصفية على ما تقدم

السابعة ما يرد من كل من اراد بيع حلي الذهب والفضة

الثامنة ما يرد من الخراج المقرر على بعض الجهات فمنهم من يدفعه ذهبًا او فضة ومنهم من يدفعه عبيدًا او بهائم ومنهم من يدفعه ثيابًا واما اعتقاداتهم ومذاهبهم في دياناتهم فمختلفة منها ما هو موافق لما ذكره يعقوب ومنها ما يخالفه ومنهم طائفة تقول ان طمع من تقدم من ابائهم كان سببًا في بعدهم عن حب الله لهم وعدم طمع سلف البيض هو الذي كان سببًا في قربهم منه وحبه لهم فلذلك يقولون ان اكثر نعمه خاصة بهم وما يصل منها الى السود لا يكون

الاّ بواسطة مقدسين او ملائكة ويقولون ان المولى لما اراد عمارة الدنيا خلق فيها ثلاثة رجال بيض وثلاثة سود وخلق لهم ازواجاً مثلهم ولعدم حصول النزاع بينهم في الدنيا خلق علبة مقفولة لا يرى ما فيها وورقة مختومة وجعلها على الارض وامر الفريقين ان يختار كل منهما ايهما اراد وقدم السود في الخيرة فقال اختاروا انتم اولاً فطمعوا في العلبة فاختاروها لزعمهم ان في باطنها كل شي ففتحوها فلم يجدوا فيها سوى قطعة من ذهب ومثلها من حديد وبعض قطع من معادن اخرى لا يعلمون فائدتها ولا خاصتها واخذ البيض الورقة فوجدوا فيها علم كل شي فجعل الله سبحانه السودان في البراري والقفار وبين غابات الاشجار وانزل البيض بسواحل البحر وصار يعلمهم كل ليلة ويلهمهم كيف يصنعون ما يلزم لهم حتى علمهم صنعة السفن فعملوها وركبوها وساروا بها في البحر مدة ثم رجعوا ببضائع من انواع متعددة وذهبوا بها الى السودان الذين كان لهم الخيرة اولاً فباعوها عليهم وجميعهم الى الان يعتقد ان ماوى المقدسين والملائكة المقربين الغابات والانهر والجبال كما كان ذلك في مبدأ الزمان ولهم في هولاء المقدسين اعتقاد كبير فمن ذلك اعتقادهم انهم اذا توسلوا بهم في امر ساعدوهم فيه واعظم مقدس عندهم الان نهر يقال له نهر (تاندو) ومن جملة اعتقادهم ان ملوكهم وامراءهم يكونون بعد موتهم مع المقدسين فيتمتعون عندهم بانواع الخيرات ويتلذذون باصناف المستلذات ولاعتقادهم ذلك تجدهم

اذا مات لهم امير او ملك ذبحوا على قبره جملة من العبيد والجواري ووضعوهم معه في حفرته ليقوموا على زعمهم بخدمته ويعتقدون ان الرعية اذا ماتوا كانت ارواحهم في خدر وخمود للاستراحة مما كابدوه في الدنيا ومن كان ذا فطنة منهم وتجربة اعتقدوا ان له خاصة الاطلاع على علم الغيب وانه الواسطة الى المقدسين وان هولاء المقدسين واسطتهم الى الله ينال بهم الناس ما يطلبونه من الله عز وجل وعندهم ان من كثرت ذنوبه او فرط فيما وجب عليه كان محروماً بعد موته من ثواب ما عمله من الطاعات والصلوات والدعوات محتوماً عليه ان يتيه في ظلمات الغابات وقد تجيء روحه الى بيته في بعض الاوقات ومن اوهامهم ان من قصر في اعمال المآتم لمن مات من اقاربه فلا تزال ارواحهم تؤذيه وتنغص عليه عيشه فلا يزال في عناء ونكد وبلاء وقد انقسمت مشائخهم الى طائفتين

الاولى ملحقة عندهم بالمقدسين فلا يدخلون في امور الدنيا ولا يختلطون بالناس بل يعتزلونهم ويقيمون في محال بعيدة عن البلد والعمران ويقولون انهم يخاطبون المقدسين ويسالونهم عن كل شي ارادوا علمه فاذا اراد احد ان يعلم حال من مات من اقاربه ذهب الى احدهم فيحضر له روح قريبه فيتكلم معها ويسألها عما يريده

والثانية تختلط بالناس في اوقات اجتماعهم وليالي افراحهم فيانسون

بهم ويسالونهم عن كل ما سنح لهم كالذين يفتحون الكتاب او يضربون الودع او يقيسون الاثر ولهم براعة في التقاط اخبار الناس وتتبع احوالهم ويعرفون حيلاً كثيرة يعلمون بها كيف اخذت السرقة ومن سرقها وفي اي موضع هي ويعملون لبعض النساء تمائم لحب ازواجهن وعدم اطلاعهم على احوالهن وافعالهن ونحو ذلك ووظائف الطائفة الاولى وراثية يدخلون فيها بطريق الارث عن اسلافهم كما كان عليه كهنة المصريين في الازمان القديمة ولهم ان يتزوجوا اذا ارادوا وكذلك اموالهم. والثانية لا تنضبط بعدد معين بل هي دائمًا في الزيادة على حسب مس المقدسين لهم وتلبسهم بهم كحال من نراهم بمصر كالمصروعين الذين يقولون ان الجن متلبسون بهم وعندهم بعض نساء يعتقد فيهن المس ولهن معرفة بخواص النبات والاعشاب في مداواة الجراح والامراض ولهذا السبب يكون الاعتقاد فيهن اكثر ولا حرج عليهن عندهم اذا زنين قبل الزواج او بعده ولهولاء الناس نذور ومرتبات ياخذونها ممن يعتقدهم يرمون نصفها في البحر ويبقون لانفسهم النصف الاخر ونذر الملك في العادة يكون عشر اواق من الذهب واربعة من العبيد وكثيرًا ما يهبون للمقدسين اولادهم وهم في بطون امهاتهم وكل عبد دخل محل المقدس بقي في خدمته فاذا اراد سيده اخذه دفع عوضًا عنه اوقيتين من ذهب واربع شياه من الضأن وفي بعض الجهات اذا دخل العبد معبد المقدس بقي عنده فلا يخرج ولكل عائلة منهم

اشياء كالاوثان تخصصها لهم مشائخهم فيقدسونها ويمجدونها فمنها صور من خشب او قطع مركبة من مواد مختلفة خالية من التصوير فيثبتونها في داخل منازلهم وتقدم لها العائلات النذور في الاعياد والمواسم وكثير من الحيوانات عندهم يعتبر اعتبار المقدس كالضبع عند اهالي آكارا والصقر في جميع البلاد لانهما لا يبقيان الرمم التي تنشا عنها العفونة وحدوث الامراض حتى ان من يقتل ضبعًا يغرم غرامة عظيمة فان كان قاتله من الاوروبيين كلف بدفع صندوق وثوب من القماش يلف فيه راس الضبع ويوضع في الصندوق ويدفن والتمساح ايضًا في جهات متعددة يعتبر اعتبار المقدسين حتى ان من الدراويش من يربيه في بعض البرك ومتى اظهر راسه من الماء اعطوه من النذور ما ياكله ولذا تراهم اذا نادوه ظهر لهم ونظر اليهم وليس لاعياد المقدسين عند الاشانتي يوم معين وانما يتركون اشغالهم ايامًا من بعض الاسابيع يلبسون فيها الابيض من الثياب ويجتنبون شرب نبيذ النخل وبعضهم يمتنع في هذه الايام من اكل لحم الثور وذلك دأبهم في يوم مولدهم وهو اليوم الثاني من الاسبوع الذي يتركون فيه العمل وان كانت الاعياد مختلفة عندهم فعيد المقدس لعائلة الملك يوم الخميس وعيد مقدس الوزير يوم الجمعة ويوم السبت هو يوم مولد الملك يجلس فيه وفي يوم مقدسه على دكة صغيرة امام تخته وفي هذه الايام يمتنع الناس عن اكل لحم الثور لانه مقدس عائلة الملك وكذا الحمام

وبعض الايام عندهم سعيد يتيمنون به وبعضها نحس يتشآمون منه وذلك بحسب ما وقع فيها لاسلافهم من الخير والشر وقد يكون في بعض الاشهر السعد اكثر من النحس وبعضها على العكس وعربان الغرب يعملون لهم تمائم يبيعونها عليهم باسعار غالية ويعتقدون انها تقيهم من سلاح العدو فتعقد يده عنهم وتمنع رصاصه ونبله منهم وتسدد نبالهم لنحره واسلحتهم لصدره وتقيهم من الامراض والعاهات والاسواء والافات فتراهم لهذا الاعتقاد يقتحمون الحروب من غير خوف ولا فزع بخلاف اعدائهم لما يعلمه عدوهم من وجود هذه التمائم عندهم ولهم اعياد غير ما ذكر اشهرها عيد يقال له بلغتهم (انيام) وهو في الاصل اسم لنبات معروف عندهم يغرس في شهر ديسمبر الافرنجي ويطيب حصاده في شهر سبتمبر فيعملون لهم عند حصده عيداً يمتد الى اخر شهر حصاده ويحضر جميع الامراء وقواد الجيوش وروساء العسكر ومن العادة عندهم ان لا يعاقب احد من الامراء على جناية قبل هذا العيد فلذلك يحضره جميع الامراء امنين مطمئنين ولا يواخذ في ايام هذا العيد احد من الناس على ذنب فعله من سرقة او زنا او غير ذلك فترى فيه كل احد يعمل ما بدا له من كل ما تدعوه نفسه اليه من الشهوات والاغراض واللذات فاذا كان اليوم الخامس من شهر سبتمبر حضر جميع القبائل مع كبرائهم واهل البلاد مع امرائهم في هيآت متنوعة وهم يضربون الطبول والمزامير فيكون لهم موكب عظيم يمتد الى اخر النهار وفي

اليوم الذي يليه يحضر الملك بعض الزوال في ميدان المدينة فيتلقى الامراء وروساء العسكر فياتيه كل منهم بزيه وزينته وموكبه الذي جاء به فيجدون السيافين واصحاب المشاعل واقفين في جانب الميدان فرقًا كل فرقة نحو مائة رجل ومعهم جماجم من قتل من امراء الاعداء وروسائهم وروؤس من قتل من المذنبين من قديم الزمان الى الان وقد حشوها من السعتر او نحوه لئلا يتأذى الملك ومن معه بريحها وبايديهم سكاكين يضربون عليها ويتكلمون بكلمات فظيعة ويفعلون افعالاً مزعجة شنيعة وتدور الفرق الموجودة في ذلك الميدان فرقة فرقة وامام كل منها ما يختص بها من الات اللهو كالطبل والزمر فتطوف كل منها بجميع الخيام الموجودة وكلما اتمت طائفة منها دورة اتت طائفة غيرها ففعلت فعلها ودارت مثلها وهكذا الى اخر النهار وتكون الامراء مدة مرور هذه الفرق مكبة على فعل المنكر وسيء الاعمال وضرب البارود فاذا جاء الليل اوقدوا المشاعل واكثروا من ضرب البارود ودق الطبول حتى يكون لهم في البلد ضجة وترتفع لهم في ارجائها اصوات مختلفة مزعجة فلا تخلو حارة من حاراتها ولا طريق من طرقاتها عن مثل ذلك الى ان ينتصف الليل فينصرف الملك الى سرايته فاذا طلع النهار امر بالخمور فتملأ بها حياض متفرقة في البلد ويباح الشرب منها لكل احد فلا يبقى في البلد احد من كبير او صغير ذكر او انثى حر او عبد غني او فقير الّا شرب منها حتى سكر وقد تحصل عليها مزاحمات عظيمة

ومشاجرات كثيرة ترتفع فيها الاصوات فتختلط بدوي الطبول والبنادق فيكون مجموع ذلك امرًا هائلاً وخطبًا مزعجًا لا تكاد تبلغه العبارة ولا ترى في ازقة البلدة وشوارعها في هذا اليوم غير سكران على الارض مطروح ومزمل بقاذورات يتمرغ فيها كالحيوان المذبوح ومن عف عليه الذباب ومن تتشممه او تلحسه الكلاب ومن يمشي فيقع على الارض او على غيره من امثاله وهو معجب بامره راض بحاله ويستمرون على ذلك الى اخر النهار ثم ينقطع الشرب وتجمع روساء العساكر وكبراء القبائل الذين كانوا اتوا من خارج البلد فينضم رئيس كل فرقة الى فرقته وكبير كل قبيلة الى قبيلته ويصطفون صفوفًا على حسب رتبهم ويضربون طبولهم ويمرون امام سراية الملك ويطوفون في البلد ويدخلون حاراتها حارة حارة للتعييد على اهلها ثم يجتمعون ثانيًا ويقفون كما كانوا اولاً فياتي الملك ووزراؤه محمولين على أعناق العبيد في محامل مثل التختروان فيمرون من وسط البلد بين هولاء الجموع وعند ذلك يكون قد تم عيدهم وفي اليوم التالي لذلك يتفرغ الملك وارباب دولته الى اشغال الحكومة ويرجع القبائل الى اوطانهم ومن العادة عندهم أن يعين مقدار من العبيد المذنبين الذين حصلت منهم الجنايات والجرائم مدة الحول الى هذا اليوم فيذبحونهم في جهات متعددة من البلدة او غيرها وبعض من يقتل من العبيد كما ذكر يؤخذ ما يسيل من دمهم ويضاف الى بعض اشياء من الحشيش

والخضرة وغيرها موجودة في قدر من نحاس موجود بمعبدهم ويتحفظون عليه لزعمهم ان ذلك يكون حرزًا لهم وسببًا في زيادة سطوتهم ونصرهم على اعدائهم وفي هذا اليوم يذبح كل من الامراء والاعيان بعض عبيده على اول خط من خطوط حرث زراعة النبات الموسوم باسمه هذا الموسم وهو الذي يقال له بلغتهم (اينام) كما تقدم ومن كان فقيرًا يأخذ راسًا من روؤس المذبوحين ويضعها في اول خط من حرث ارضه وفي مثل هذا اليوم من كل سنة تسبك حلي الذهب الخاصة بالملك في صور غير صورها التي كانت عليها وتاكل عائلة الملك اول اكلة من محصول زراعة العام الماضي بعد مضي عشرة ايام من يوم عيدهم ولا ياكلونها الاَّ في ميدانهم ثم يركب الملك في ثاني يوم قبل طلوع الشمس ومعه اتباعه ورؤساء جيوشه فيذهب الى بلدة هناك يقال لها (سرازو) ليغتسل في نهر بها يسمى (داه) ومن عاداتهم في ذلك اليوم ان الملك اذا خرج الى ذلك النهر تبعه جميع اهل المدينة حتى تصير خالية من سكانها وفي ثاني يوم يمضي الملك الى بركة في الجنوب الشرقي من البلد ليغتسل فيها فيحيط به العسكر من كل جهة وينزل الملك فيغتسل وياخذ من الماء ويرش على جميع حليه وسلاحه وامتعته فاذا اغتسل نزل من معه من الامراء وفعلوا مثل فعله ولا يذبحون هنالك في هذا اليوم الاَّ عنزًا ونعجة ويغمسون في ذلك النهر نحو عشرين راسًا من الضأن ياخذونها معهم الى السراية عند عودهم

فيذبحونها فيها ويلوثون بدمها تخت الملك وابواب محاله الخاصة به واما باقي الابواب والشبابيك ونحو ذلك حتى كراسي اعضاء المملكة فيلوثونها بمخلوط مركب من البيض ونبيذ النخل فاذا تم مولد الاستحمام عاد الملك الى مدينته ويسبقه الروساء والامراء ولا يدخلها في هذا اليوم غير اعيانهم واكابرهم ويدخل الملك في موكب يتقدمه قسيس وخلفه اطفال بايديهم آنية بها ماء مقدس عندهم يرشون به على الامراء ثم من خلفهم ثلاثة خرفان بيض لتذبح عند باب حجرة الملك التي ينام فيها ثم خلفها الملك ويكون ملبسه في هذا اليوم ثيابًا بيضاء وخلف الملك جميع نسائه وحاشيته وحولهن العساكر من كل جهة ولهم غير ما ذكر عيد يسمى (اداي) يتكرر في السنة الواحدة عدة مرات بعضها عيد كبير وبعضها عيد صغير ويحسبون بها سنتهم واولها يقع في اول شهر اوكتوبر ولا يعرف لذلك سبب ويقول اهل تلك البلاد ان اول سنتهم يكون اذا تساقط ثمر شجر معروف عندهم تسقط ثمرته بعد تفتح ازهاره بعشرين يومًا ودائمًا يكون العيد الكبير عندهم يوم الاحد والعيد الصغير يوم الاربعاء وبين كل عيدين كبيرين ستة اسابيع وكذلك بين كل عيدين صغيرين فيكون بين كل عيد والذي يليه ثلاثة اسابيع اعني واحدًا وعشرين يومًا

وعاداتهم في كل عيد من تلك الاعياد الاربعة ان يعلموا به قبله بيوم فياخذون المزامير ويعلقون جماجم القتلى وعظامها علي

طبل عندهم كبير ثم ياتون بذلك الى باب سراية الملك ويضربون بها اعلامًا بذلك اليوم فكل من سمعه سواء كان من عائلة الملك او غيرها صاح باعلى صوته فتقوم البلدة على ساقها وتهرع السوقة من اسواقها فيضربون الدفوف والبارود ولا يزالون كذلك الى صبح يوم العيد فيركب الملك ويذهب الى المعبد ومعه خرفان القربان فيذبحونها وياخذون دمها فيلوثون به تخت السلطنة زعمًا منهم ان ذلك يكون سببًا في حفظ المملكة مدة السنة وفي هذا اليوم تاتي جميع الطوائف التي تقدم ذكرها فتصطف في ميدان السراية ثم تمر جميع الامراء وروساء الطوائف امام الملك ويقبلون الارض بين يديه تحية له يقابلها بهز راسه كانه جواب تحيتهم وخلف كل واحد منهم جماعة من العبيد بايديهم السلاح يلعبون به العابًا مختلفة وبعد ذلك يقوم الملك عن تخته ويدخل سرايته فتاتي خدمه وينكسون التخت ثم يخرج بعد برهة متهيأً بهيئة الابهة والامارة فيعيدون له التخت كما كان فيجلس عليه وعند ذلك يجدون في ضرب الآلات ودق الطبول ورفع الاصوات وتاتي التراجمة وبايديهم عصي من ذهب فيامرهم بتفريق الهدايا على روساء العساكر ومن حضر من الامراء والاكابر كل هدية عبارة عن راس من الضان وزجاجة من النبيذ يشرب في الحال وعشر آكيات من ذهب (كل آكية عبارة عن ستة فرنكات) فاذا فرغوا من تفريق الهدايا قام جماعة من الرجال نحو الخمسة او الستة يترنمون بكلام

يشتمل على ذكر فضائل الملك وعطاياه ومناقبه ومناقب اباۤئه واجداده فاذا انتهوا من ذلك مرت كل طائفة امام الملك مرة ثانية متشكرة له على احسانه وانعامه داعية له بالبقاء الى امثال عامه ثم بعد ذلك يشر ما استحدث من القوانين التي يراد اتباعها والعمل بموجبها وينصرف الناس الى جهاتهم

وقد قدر بعض السياحين ما يعطيه الملك من العطايا في كل من هذه الاعياد والمواسم فبلغ (بيريجوين) اعني تسعة الاف فرنك وستمائة فرنك ولسكان (اهتنا) ثلاثة اسابيع الاول يسمى اداى يكثر فيه بيعهم وشراؤهم واخذهم وعطاؤهم حتى انهم يسمونه اسبوع الخير والثاني لا يبيعون فيه ولا يشترون ولا يشتغلون بشيء ويسمونه اسبوع الشر لاعتقادهم ان اعمالهم لا تنجح فيه والثالث يسمونه اديم او الاسبوع الطيب الصغير ويكون فيه بعض التجارة والعمل لكنه دون الاول .

وقد وصف هوتشيزون السائح في رحلته كيفية تقريب القرابين من الادميين في موسم (اداي) المذكور عند اهل الجهة المذكورة فقال كنت بتلك الجهة فحضرت عيداً هناك يسمى (اداي) وكان في شهر يناير الافرنجي وكان لي فيهم رجل اعرفه فدخل عليّ فرايت منه ان مراده ان يخبرني بشيء في سره فاخرجت من كان عندي من الخدم فمال اليّ وقال لي ايها الرجل احترس على نفسك وعيالك فان ملك الموت قد سل سيفه لقتل كثير

من الاشانتيين لان لهم عيدًا قد قرب ولم يبقَ عليه سوى يومين فاذا سمعت صوت طبل فاعلم انه علامة على الموت فاحذر من الملك ولا تقربه فهذا شي في امكانك فان فعلت ذلك فلا تخشَ من شي فقبلت نصيحته وشكرته ثم انصرف فلما مضى يومان سمعت صوت طبل فصرت اتفكر في هذه الاحوال وادبر حيلة للخلاص من تلك الاهوال فلم اشعر الاَّ ورسول الملك قد حضر يدعوني اليه فحصل لي من ذلك رعب شديد لاني كنت اسمع ان من عادته انه اذا اراد البطش باحد من الروساء والامراء ارسل اليه من يدعوه باي حيلة فاذا حضر ودخل من باب السراية وثب عليه جماعة من العبيد مرتصدة لدخوله فاوثقته والقته الى الارض واختلقوا له تهمة يتهمونه بها وأروه انهم ما فعلوا به ما فعلوه الاَّ بسببها ثم ضربوه بسكين في مقتله فيموت وينتهي امره

فتوجهت الى الملك فرايت بعض الضباط الملازمين له يدخلون عليه ويخرجون من عنده وبايديهم سكاكين واسلحة فارسل احدهم الى احد الامراء ليخبره ان يحضر عند قبر امه ثم ركب الملك وتوجه الى القبر بعد ان امرني بالخروج من باب غير الذي دخلت منه ولم اعلم سر ذلك فلما وصل الى القبر امر باخراج عظم امه واخوته من قبورهم فاخرجوها وغسلوها بالماء ثم نشفوها بمناشف من حرير وغمسوها في الروم وهو نوع من المسكر ثم نشفوها ثانيًا كل ذلك بغاية الاحترام والتوقير ثم قلبوها فوق تراب من ذهب

واحاطوا بها سبائك منه وقلائد من الحجارة والمعادن الثمينة ووضعوها على حافة القبر وبعد ذلك اتوا بجميع المذنبين والمتهمين بعدم الرضى عن الملك فكان كل من اتى منهم ذبحوه على تلك العظام حتى سالت الدماء الى القبر وفي هذه الليلة دارت سيافة الملك حول المدينة فكل من وقع بصرهم عليه احضروه الى الملك فيذبح وكان السبب في هذا القتل والقربان على زعمهم هو ان الملك وقتئذٍ كان مستعداً لقتال بعض القبائل المحاربة له وكان الملك على حسب عادتهم في ذلك يرى من الواجب قبل الخروج الى القتال ان يخرج عظام امه وبعض اقاربه من قبورهم ويفعل بها ما ذكر لاعتقاده انه اذا فعل ذلك بهم كانوا راضين عنه وكانت ارواح مقدسيهم مساعدة له على اعدائه لكن لشهرة هذا اليوم وهذا الامر قد يتخلص منه ناس كثير ممن يرغب الملك في قتله وكان من عادتهم في ذلك العيد كباقي الاعياد ان يحضر فيه الى تلك المدينة خلق كثير ولكنهم لعلمهم بهذه الحادثة لم يحضر احد فكانت المدينة يومئذٍ خالية ليس بها الاّ الملك وعائلته واصحاب سره ولما دخلت عليه اظهر لي الانبساط من حصول الامن عندي وامرلي بالجلوس فجلست فراى مني اني قد استقللت ما حوله من الروساء فلم يكلمني في ذلك وكان يظهر عليه اثر القلق وعدم الاستقرار ثم قام ودخل بيته فلما قرب المساء ابتدىء بالذبح كما حصل بالامس

فلما مضى جزء من الليل امر الملك بوضع عظام والدته واهله

في مقابرهم ورجع في موكبه ومعه روساوه وامراوه واتباعهم وعليهم ملابس الحرب والآته وامام كل واحد منهم شعلة من نار فكانت البنادق وجميع آلات الزينة والرسوم الموكبية منشورة الاعلام وقد تقدمهم جماعة قد غلت ايديهم وعليهم الحرس وحولهم رجال تغني بانغام حماسية وفي عصر ثاني يوم اعادوا ذلك الموكب بعينه فوقف الملك في الميدان الكبير وحوله الطبول وارباب الموسيقى فامر بقتل اولئك المغلولين فصاروا يقتلونهم واحداً بعد واحد والالات تضرب بانغام عجيبة كانها تقول القتل القتل وكان امامه اناء من خشب ملآن نبيذاً وكلما قطع راس رقص له ثم في اخر هذا اليوم دخل الملك سرايته

فعند ذلك آمن كل من كان خائفاً منه على نفسه من الامراء وغيرهم فخرجوا من مكامنهم وصاروا يطوفون في ازقة المدينة فرحين بالخلاص مما حصل في اليوم الماضي وان كانوا غير آمنين مما يحصل في الاتي قال السائح المذكور وقد اعقب ذلك ان اعترتني حمى كان سببها اني اطلت الجلوس مع الملك بالامس وكان الوقت شديد الحر فلما رجعت الى بيتي لم اجد فيه ماء ولم يمكنني ان ارسل احداً من خدمي لشراء ما يلزمني من السوق خوفاً من ان يوخذ فيقتل كغيره ولم يكن في السوق احد من الناس خوفاً من القتل واستمر الذبح كل يوم على نحو ما تقدم الى ان انتهت ايام ذلك الموسم المشؤم

ومن عادة الاشانتيين انهم اذا مات احدهم يضربون له بارودًا على قدر مقامه اعلامًا بموته فاذا سمعت عبيده ذلك فروا الى الغابات والمغارات فاختفوا فيها الى ان تخرج جنازته ويدفن ومن بقي منهم ممن لم يشعر بموته توخذ منهم القرابين التي تذبح على تربته يوم موته وتكون على قدر ايسار الميت واعساره ومن عاداتهم ايضًا في موتاهم ان الميت اذا مات اجلسوه على كرسي واسندوه حتى يكون كما يجلس الحي وابقوه كذلك الى ان تظهر له رائحة وعند ذلك يدفنونه في منزله ويضعون عنده شيئًا من الذهب والاواني والملابس الثمينة

ثم قال الانكليزي للشيخ ان اردت زيادة الايضاح ذكرت لك يوم موت الملكة ام (كاتشي كوفي) على حسب ما وصفه ذلك السائح وذلك انها حين خرجت روحها بادر الملك الى بنت من حاشيتها فقتلها بيده وحكمة ذلك على زعمهم ان تجد المتوفاة من يخدمها حين يضعونها في قبرها الى ان ياتوا لها بالقربان الكبير ثم جاءت من طرف احبة العائلة واتباعها والمتمين اليها هدايا كثيرة من الاشربة والذهب وثياب الحرير وارسل الملك بهدية اعظم من الجميع لكونه هو الوارث للمملكة المذكورة فبعث بشي من الذهب والاقمشة الفاخرة الاّ ان هذا السائح لم يعرف مقدارها وانما قدر البارود الذي ورد وتلف في ذلك اليوم باربعة واربعين كاكا فقال ان ما ورد من طرف ولدها (كاتشي كوفي)

عشرون كاكا ومن طرف الملك اربعة ومن طرف اخي الملك اثنان ومن طرف الامراء ثمانية عشر فكان المجموع ما ذكر وهو يقرب من اثني عشر برميلاً

وهذا القدر من البارود قليل بالنسبة لها على مقتضى عادتهم وانما اقتصروا عليه لان الملك لما هو بصدده من الحرب كان قد امر بعدم الاسراف في البارود . ولما جاء وقت الزوال توجه السائح المذكور الى جهة يقال لها (عسافوا) فوجد الطيور تحوم في الجو على جثث القتلى الذين ذبحوا فتنزل وتنهش لحومهم ووجد هناك حلقًا من البنات منهن من يرقصن ومنهن من يندبن ويعددن فضائل المتوفاة ويولولن على فقدها . قال فكانت اصواتهن حينئذٍ تسمع على بعد عظيم ووجد قومًا اخرين حاملين للاقمشة التي اهديت اليها في اشكال مختلفة منها ما هو على شكل الصليب ومنها ما شكله مخروطي ومنها ما هو كروي وغير ذلك وكانت النساء الحاملات للاقمشة ترى من بعد في هيئة الشياطين لان صدورهن واذرعتهن وشعورهن كانت ملوثة بدم القرابين ومن فاتها ذلك لوثت نفسها بطين احمر تشبهًا بمن لوثت نفسها بدم القرابين فكان لاجتماع كل من الطبل والمزامير والبكاء والعويل صورة هائلة وراى السيافين يمرون وقتًا فوقتًا ومعهم من حكم عليه بالقتل فكان يرى على هولاء الناس هيئة فظيعة وعلى من اخذ للقتل ذهول وحالة شنيعة وكانت روساء العساكر تاتي من كل جهة وعليها

ملابس الحرب فتضرب لكل منهم نوبة نار وتدق له آلات الموسيقى الخاصة بهم وكل من حضر انضم الى من سبق حتى اذا حضر الملك بموكبه احاطت العامة به فحالت العساكر بينه وبينهم لاجل مرور الموكب فاول من مر (كاشتي كوفي) وعائلته فكانوا جميعًا يعلنون بفضائله ومدائحه وهو يتمايل من جهة الى اخرى كالسكران وكان يظهر على وجهه الفرح والظاهر ان ذلك لوجود القرابين المعدة لامه فكانت غرابة حالته مناسبة لغرابة الحادثة واما المأخوذون للقربان فهم وان كانوا في حالة ذل وهوان تراهم ينظرون للملك غير مبالين به ولا محتفلين بابهته مع انه كان في فم كل واحد منهم سكين داخلة من جهة نافذة من الجهة الاخرى وكان الناس يكثرون من سبهم ولعنهم كأن ما هم فيه لا يكفيهم ثم جاء من بعد (كاتشي كوفي) جميع الروساء وكانت هيآتهم في هذا الموكب غيرها في الموكب الاول لانهم كانوا في الاول بهيئة من يخرج للمقاتلة والكفاح واما في هذا الموكب فكان عليهم ملابس الزينة والافراح على عكس ما تقتضيه الحالة الراهنة وكان عليهم تمائم منها ما هو مصفح بالفضة ومنها ما هو مصفح بالذهب وكان مع الملك من الروسا من ليس لهم بابن الملكة المتوفاة الفة وارتباط وكانت خيامهم في الميدان المذكور على شكل نصف دائرة سعتها نحو ميل على وجه التقريب والعساكر في النصف الاخر وكانت القرابين من الادميين في ذلك اليوم ثلاثة عشر ومعهم الجلادون عليهم لبد

سود ذو شعر فكانت هيأتهم كصورة الدب واشنع وكان محلهم جهة
شمال الملك وحولهم الناس وكانت النسآ اللاتي تقدم ذكرهن يدرن
في الميدان ويغنين كما سبق وكان يفرق على الحاضرين شي كثير
من النبيذ والروم وقد ارتفع من اصوات الطبل والزمر وصياح
العبيد وغيرهم ما يزعج النفوس ويصدع الرؤس وبينما هم كذلك
واذا بالبارود قد اطلق من جهة الملك ثم من سائر الجهات
واستمروا على ذلك نحو ساعة وكان العسكر واقفين بمحلاتهم
لا يفارقونها والرؤساء يتواثبون خلف بعضهم في وسط ذلك
الميدان ولهم اشارات مزعجة وافعال فظيعة وعبيدهم تعدو خلفهم
حاملة للبيارق يذكرون اسماء ساداتهم ويعلنون بمناقبهم وشهرتهم
وبعض العبيد كان ياتي الى سيده بعد ان يضرب بندقيته فيأخذها
من يده وبينما هم كذلك واذا بعجوز ناشرة الشعر كانها خرجت من
قبر يقولون انها كبيرة المقدسين فدخلت وسط الرجال وصارت
تجري من هنا الى هنا وهم يضربون حولها البندق من كل جهة
ومن عادتهم في تعميرات البنادق ان تكون على قدر درجة الضارب
وكان غالب البنادق مربوطاً بحبال وكانت الامراء لا تضرب الا
وعبيدها خلفها كما تقدم اذ كان يحصل اغماء من شدة ضرب
البارود فيدركه عبده عند ذلك ومن طيشهم وخفة عقولهم كان
بعضهم يأتي الى ذلك السائح فيضرب بندقيته خلف اذنه ويضحك
منه حين كان يراه ينزعج لما كان يراه من ان كثيرًا من البنادق

ينفلق في أيدي الضاربين اما لعدم متانتها او لزيادة العيار ولما فرغوا من ذلك تفرغوا جميعاً لشرب النبيذ فكان كل من اخذ منهم كاساً اراق على الارض منه جزاء وذلك عادتهم في تلك الجهات كأنهم سمعوا قول الشاعر

شربنا واهرقنا على الارض فضلة

وللارض من كأس الكرام نصيبُ

وبعد ذلك كله حضر كل من له قرابة الى المتوفاة من النساء وصرن يرقصن وسط الجمع فكانت هيأتهن في الجملة اجمل من غيرها لان ملابسهن كانت من الحرير الاصفر ومع كل واحدة منهن سكين من فضة قد علقتها في عنقها بسلسلة من فضة كذلك الاّ ان اثنتين منهن كان معهما شي من فضة كالمزمار وبأيدي جواريهن شمسيات تظلهن بها من الشمس مدة الرقص قال ولم يكن رقصهن كرقص غيرهن بل كانت الواحدة منهن تعصب وسطها بشيء من حرير فتاتي الى الرجل فيأخذ ذراعيها على كتفيه وترقص وهي كذلك

وقبل ذبح القربان بعث كل من (كاتشي كوفي) والملك الى بعض هذه النسوة بشيء من الخمر والخرفان ثم ضربت الطبول اعلاماً بحلول الوقت لذبح القربان فقام الرؤساء وصاروا يقلبون اولئك المساكين المحتوم عليهم بالذبح ولم يعلم السائح ما المراد من ذلك لان المسافة بينه وبينهم كانت بعيدة قال وانما نظرت فرأيت

الجلادين يتنازعون في تعيين من يقدم منهم على غيره وكان المنتخب لان يكون اول مذبوح ينظر اليهم نظر عدم الاكتراث والمبالاة مع ما كان يعاينه من المدية النافذة من شدقيه ثم اخذ احد الجلادين سيفه بيده وقطع به يد واحد من المعدين للقتل وهم ثلاثة عشر رجلاً كما تقدم ثم انهم طرحوه على الارض وذبحوه ثم اخذوا في ذبح الباقي الاّ أن هذا السائح لفظاعة الحال لم يمكنه الصبر حتى يشاهد ما يحصل بعد ذلك فقام وانصرف الى بيته فبلغه انهم بعد ذبح من تقدم قربوا قربانًا اخر من النساء في الصحراء التي دفنت فيها المتوفاة ومن عقائدهم الفاسدة انه يجب عند دفن مثل هذه المتوفاة ان يبل ثرى القبر بدم رجل حر فلذلك تراهم اذا ارادوا الدفن ابتدأوا اولا بتصفيف روس المذبوحين في داخل القبر امام عبيد العائلة فيتحايل العبد على اصطياد رجل من الاحرار يبلون تراب القبر بدمه وذلك انهم يدعون الحاضرين لمساعدتهم في وضع النعش وفي خلال ذلك يتوارى احدهم في داخل القبر فيثب على واحد من الذين نزلوا للمساعدة ويضربه بسكين اعدها لذلك فيقع على الارض فيتركونه ويهيلون عليه التراب فلما رجعوا من دفنها أقاموا في عمل المآتم بارتكاب المآثم وشرب الخمر وضرب الطبل والزمر والرقص وضرب البنادق وفي كل ليلة تحضر الروساء والامراء ومن تأخر منهم أرسل نائبًا عنه مصحوبًا بهدية من النبيذ والروم واستمروا على هذه الحال اياما

عدة ولولا ما هم بصدده من الحرب لعمل لها ثمان مآتم في الاخير منها يضرب الملك السلاح بيده ومن عادتهم انهم بعد انقضاء مدة المحزنة تقوم اقرب النساء من الميت وتطوف حول البلد ثلاثة ايام لا تذوق فيها طعامًا ولا شرابًا غير النبيذ فتشرب منه ما شاءت فتندب فضائل الميت ومناقبه وتمدح من اهدوا الهدايا واعطوا العطايا ومن عادة تلك الجهة انهم اذا مات ملكهم اعادوا مآتم كل من مات من اعيانهم وامرائهم مدة ملكه من ابتداء سلطنته ايام مدته وجددوا ما تقدم من القرابين وغيرها فيحصل حينئذٍ من الاحوال الشنيعة والاهوال الفظيعة ما يضيق عنه البيان ويعجز عن وصفه اللسان وعند خروج روح الملك يقوم في الحال ابنه او اخوه او ابن اخيه او جميعهم معًا فيخرجون كلهم او بعضهم يطوفون في البلد فكل من عثروا به قتلوه لا يفرقون بين عبد وحر ومأمور وأمير وكبير وصغير ولا لوم عليهم في ذلك ولا عتاب ولا دية ولا حساب فتختفي الامراء في منازلها وربما ترسل عبيدها في الطرق والحارات لعلهم يقتلون فيكونون فداء لهم ويستمر الحال على ذلك مدة يومين

ومن يقتل في هذا اليوم بعض خواص الملك وهم مائة رجل من الارقا وغيرهم يعاهدونه على الثبات في خدمته والموت يوم موته فيميزهم عن غيرهم باطواق من ذهب يضعونها في اعناقهم وقد يكون فيهم بعض اقارب الملك فيتكفل لهم بمؤنتهم ويرفع عنهم

التكليف والعقاب وجميعهم يقتلون يوم موته الاَّ اثنين او ثلاثة هم امناء اسراره مدة حياته فهولاء يستبقونهم ويذبحون سائرهم

قال وسمعت ان مأتم الملك المتوفي قبل ملك ذاك الوقت يتكرر كل اسبوع الى ثلاثة اشهر يذبح في كل اسبوع نحو مائتي أسير ويحرق فيه من البارود نحو عشرين برميلاً واشهر هذه المآتم واعظمها مآتم والدة الملك عند موتها وقد كانت وليت نيابة تخت السلطنة في مدة حرب جرت بين الاشانتيين وجيرانهم الفنتيين وقد احصي من قتل فيها من قبَل الملك خاصة فكان ثلاثة الاف نفس منهم الفان من الاسراء الذين استولوا عليهم من جيش العدو وما أحرق من البارود من قبَله خمسة وعشرين برميلاً ومن قبَل كل واحد من الحكام والامراء عشرة انفس وعشرين برميلاً واتى من كل بلدة من البلاد عشرة أعبد وبرميلان من البارود .

واما مقابر ملوكهم فهي في محل مخصوص يعرف عندهم باسم (بن تما) حتى لو مات احد ملوكهم او اعيانهم بعيدًا عن ذلك المحل ولو في الحرب تحفظوا عليه الى ان يدفنوه فيه بعد عمل المآتم المعتادة عندهم بما فيها من المخازي والفضائح وانواع القبائح وفيه يدفن الذهب المعد لهم وفي تجاه المحل المدفون فيه عظمهم قدر كبير قد اعدوه لاجتماع دماء القتلى والقرابين فيه ولا ينقطع ذلك بل تراهم يواظبون عليه لاجل بلّ تربة الملوك بدماء القتلى دائمًا

ومن عادة ملوكهم ان يكون عدد نساء الواحد منهم لا ينقص ولا يزيد عن ثلاثة الاف وثلثمائة وثلاثة وثلاثين لاعتقادهم ان لهذا العدد سرًّا مخصوصًا به وهذه النساء يقيم معه في بيته ست منهن وباقيهن يقمن في الخارج فبعضهن يقمن في محلتين خاصتين بهن تقفل عليهن ويرسل لهن ما يلزم من الزاد والنفقة والبعض منهنّ يكون في مبان مخصوصة في ضواحي المدينة فاذا جاء موسم من المواسم اجتمعنَ حوله كلهنّ او بعضهنّ على حسب رغبته ولا يكلمنَ الامرا ولا يكلمونهنّ الاّ بواسطة تراجمة وهم رجال كهول من المشوهين

فاذا مررن بطريق بقصد نزهة او غيرها يتقدمهنّ عدة اطفال بايديهم سياط يضربون بها كل من رأوه في طريقهم لا يفرقون بين كبير وصغير وجليل وحقير فلذلك ترى الناس متى شعروا بهم انزعجوا وتنحوا عن طريقهم وزاحموا بعضهم وربما وقع بعضهم على بعض من الزحام فيحصل من ذلك للناس اذى كثير وتعب كبير ومن العادة عندهم ان لا ينظر اليهنّ في مدة مرورهنّ احد من الناس بل يغطي كل احد وجهه بيده

ولاحترام الملك واكرامه لهنّ كان ما يصرف عليهنّ مصاريف جسيمة لان ماكلهنّ ومشاربهنّ وسائر لوازمهنّ مثل ما يكون للملك واذا اريد اخبار الملك بامر من الامور المهمة وهو عندهن فلا يصل

اليه به الاّ الخادم الاكبر وهو كبير الخدم المعروفين في مصر بالاغوات

ومن العادة عندهم ان اخت الملك لها ان تحب من الرجال من اعجبتها صورته سواء كان اميرًا او حقيراً فاذا علم به الملك هيأه لها باحسن هيئة ووجه به اليها فاقام معها فان ماتت قبله الحق نفسه بها ما لم يكن من ذوي النسب

فقال الشيخ ان ادنى ما ذكرت يدل على توحش هولاء القوم وجهلهم وخشونة طبعهم وقلة عقولهم وكيف يكونون كذلك الى الان مع وجود الانكليز والفرنسيس وباقي الاوروباويين بسواحل تلك الجهة فيجتهدون في ابطال بيع الرقيق واسره ولا يلتفتون الى ابطال هذه العادات الفظيعة والرسوم الشنيعة مع ان اعتناءهم بها اهم والزم من اشتغالهم بابطال بيع الرقيق اذ لو فرض منع بيعه بالكلية على زعم الرأفة به مع بقاء العداوة بين هولاء الطوائف المتوحشة لم يكن لمن يقع في أسرهم من بعضهم غير القتل ولا شك ان الاسترقاق والبيع اخف منه

فقال الانكليزي ان طائفتنا وطائفة الفرنسيس وسائر الافرنج المقيمين بين اهل تلك الجهات لا يتعرضون لاعتقاداتهم ولا يمانعونهم في اجراء رسومهم وعاداتهم فان ذلك يجر عليهم من عداوة الاهلين وغيظهم ما لا يكون لهم معه راحة فلذلك ترى المقيمين في تلك الجهات من الامم الاوروبية لا يعنيهم تغيير شي من ذلك اذ

المقصود لهم من الاقامة في تلك الجهات انما هو التكسب بالتجارة في ما يستخرج من ارضها من المعادن وسائر مواد التجارة وارسال ذلك الى الممالك الاوروبية واستبداله بما يرد منها الى البلاد فلا يشتغلون الاّ بتوسيع دائرة هذه التجارة لا بتغيير العادات والمعتقدات اذ هذا مما لا يتيسر لهم هناك فان هذه البـــلاد بسبب اتساعها وبعدها وصعوبة المرور والعبور بها لما فيها من الموانع كالغابات والخلجان ثم كثرة حرها وتغير هوائها وكثرة ما يعرض للاغراب من الافرنج فيها بسبب ذلك من العلل الخطرة والامراض المهلكة لا يتأتى للدول الاوروبية أن تبعث لهذه البلاد بكثير من الناس والاجناد لمنع ذلك بالقوة القهرية والسطوة العسكرية فلذلك ترى المقيمين منهم هناك يختارون السكوت على هذه الاحوال والاقتصار على التكسب والتجارة والبيع والشراء والاخذ والاعطاء

وقد اسست دولة الانكليز عدة مواضع للتجارة في مواقع مختلفة من هذه السواحل في امتداد قدره الف وستمائة ميل انكليزي بين (سانت ماريا) (على مدينة نهر جنبي) واكارا (مدينة جهة رأس عشم الخير) ونقلت الى هذه المواضع مقدارًا كافيًا من العسكر وغيرهم اقامتهم بها وقبل ان تضع الحكومة يدها على هذه المواضع كانت ادارة امورها موكولة لشركة تعرف بالشركة الافريقية وقد بذل كل من تلك الشركة ودولة الانكليز جهده في استدامة السكنى بهذه الجهات ولكن لم يطب لاهل اوروبا العيش بها لما

اعتراهم فيها من الامراض الكثيرة فكان في كل سنة يموت قدر النصف ممن يرسل اليها من العسكر وغيرهم واتخذ الانكليز بها طرقًا كثيرة وتدابير متنوعة لانتشار الزراعة بها وتحسين احوالها فلم ينجح الاَّ القليل منها في بعض الجهات دون بعض وكذلك جددوا بها مدارس ومكاتب للذكور والاناث جمعوا فيها كثيراً من اهل البلاد فلم يترتب على ذلك للبلاد كبير فائدة لان من تربى منهم ولم يمت في عهد قريب آثر الاقامة بين من تربى عندهم على الاقامة بين اهله في بلده لكراهتهم له وتبرئهم منه ولعلمه انه اذا اتى اليهم مقتوه واحتقروه وان تكلم بما يخالف عقيدتهم قتلوه

وكما فعلت دولة الانكليز معهم كذلك فعل الفرنسيس والفلمنك وغيرهم وقد غيرت كل من هذه الامم مواضعها وانتقلوا من موضع رأوا فيه كثرة الامراض الى موضع ظنوا فيه جودة الهواء فخاب امل الجميع وتحققوا عدم النجاح ولذلك قل توارد الاوربيين اليها وصار المتوطنون بها من الاغراب هم المتناسلون بينهم وبين الافريقيين او الذين هاجروا اليهم من الامريكيين او اهل جزائر المحيط

وبالجملة فجميع التجار المقيمين هناك اخلاط متجمعون ومن شدة اختلاطهم باهل البلاد وطول زمن اجتماعهم ببعضهم كادت تتقارب طباعهم وتتشابه اخلاقهم وانما بقي في الاغراب بعض عاداتهم واخلاقهم الاصلية مع عدم التعرض لذم عادات اهل البلاد

والتصدي للنهي عنها لعلمهم بان ذلك يغري الاهلين بهم ويوقع العداوة والبغضاء فيما بينهم فلهذا اختاروا السكوت عن ذلك

وما ذكرناه من احوال هذه البلاد واهلها ليس الاّ القليل النادر بالنسبة لما لم نذكره فان عجائب افريقة وغرائبها اكثر من ان تحصر وفيها للسائحين كلام كثير يطول تتبعه وفيها من انواع الحيوان والنبات والاحجار ما لا يوجد في غيرها من الجهات فهي مخزن العجائب ومعدن الغرائب وكل بقعة منها تحتاج الى مجلدات متعددة فضلاً عما لم يصل اليه احد من الامم المتمدنة ففيها جزء عظيم متسع لم يكشف لنا الى الان امره ولم تعلم حقيقته وما ذكره عنه السائحون في كتبهم انما هو بالنقل والرواية لا بالمعاينة والدراية وفي افريقا انهار عظيمة كالنيل معظمها لا يدرى الى الان منبعه وغالب ما قالوه فيها انما هو بالظن والتخمين لا بالقطع واليقين

فلندع الكلام الان في هذا المعنى ونسمع من يعقوب بقية حديثه وما جرى له الى ان صار معنا وهل رجع الى بلده ورأى اخته ام كيف كان حاله بعد خلاصه من يد هولاء السودان

(انتهى الجزء الثاني ويليه الجزء الثالث)

فهرس

الجزء الثاني

من كتاب

علم الدين

